رواية

مكتبة ياسمين

رابعة غفاري

أن تُبقي الشمسَ حيّةً

ترجمة: علي عبد الأمير صالح

شازديـپور مُغترب إيراني مُسن في باريس، يتذكر، خلال يوم واحد، حياته الماضية في نيساپور، إيران. كانت أسرته تتندر عليه وتسميه «فوكولي»، أيّ «الأفندي صاحب ربطة العنق» المولع بالغرب وثقافته، يحب الموسيقى الغربية ويفضّلها على الموسيقى الفارسية الكلاسيكية ، إلا أنه مسكون بإحساس عميق بالفقدان، هذا الإحساس يتعمق مع اندلاع ثورة العام 1979.

تنطلق أحداث رواية «أن تُبقي الشمس حية» العام 2012 في باريس، حيث يجلس شازديـپور في مقهى مع صاحبه الفرنسي تريانان، ويتذكر اليوم الذي «ابتلع القمر فيه الشمس» قبل ثلاثين عاماً. ففي ذلك اليوم الربيعي اجتمعت أسرته في بستان الفاكهة الذي يمتلكه القاضي أكبر وزوجته بيبي- خانوم في نيساپور لتناول الغداء. ومع أن هذا الاجتماع كان يشكّل متنفساً اعتاده أفراد هذه الأسرة، إلا إنه يشهد نقاشات حامية بينهم تتكشف على أثرها أسرارٌ وخلافات مُعبّرة.

رابعة غفاري الكاتبة والممثلة وصانعة الأفلام التي غادرت إيران صحبة والديها قبل شهور عدّة من نشوب الثورة، رسمت لنا خرافات محلية، ووهبت حتى أصغر شخصياتها الروائية الكثيرة خلفية قصصية تراجيدية. وشيّدت لنا عالماً زاخراً جداً، دقيقاً جداً بحيث إنك تجد نفسك تعيد كتابة تاريخ ما لمجرد أن تتصوّر أنه يُمكن أن يُوجد.

ما يُحسب لهذه الرواية هو تنوّع شخصياتها، واختلاف خلفياتها وتوجهاتها ومشاربها وأفكارها، فهناك القاضي العلماني الذي ينتقد جور السلطة، وهناك شقيقه المُلاّ الرجعي الذي يدعو إلى تطهير المجتمع وفقاً للقواعد الدينية، وهناك ابن أختهما الغندور الذي يتوق للعيش في أوروبا، وهناك الشاب المُدمن على تعاطي الأفيون، والخادم الأفغاني المولع بتناول النبيذ، والقابلة التي تتحلّى بحنان ورأفة إنسانيين قلّ نظيرهما، إذ تعطف على عاهرة تسكن في كوخ بأطراف المدينة، وتترك لها الطعام عند باب منزلها كي تنقذها من الجوع. وهناك أيضاً العاشقان الشابان، الفتى الذي يطمح أن يدرس الهندسة المدنية ويسعى للإسهام في بناء مستقبل بلاده، والفتاة التي تستمع إلى أغاني گوگوش، وتتمنى أن تصبح ممثلة مسرحية.

زيادة على ذلك، تحضر باستمرار وصفات الطعام الإيرانية ، وطقوس الإيرانيين وعاداتهم، الوثنية والإسلامية، كما يحضر الشعر والشعراء الفُرس، حافظ والخيّام، وحكاية موت فريد الدين العطار. هذا كلّه في رواية آسرة، كثيفة، تعج بالأحداث والتفاصيل الصغيرة، تكشف لنا الكاتبة من خلالها العنف الذي شاب الثورة، وكيف انقسم المجتمع بين مؤيد ومعارض إزاء ما يجري من وقائع تتصارع فيها القيم الحداثية مع القيم الرجعية الراديكالية ؛ وقائع قاسية ومُوجعة مُبللة بالدمع ومُضرّجة بالدماء.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

9 789933 635183

لوحة الغلاف: للفنان رياض نعمة

رابعة غفاري

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

أن تُبقي الشّمسَ حيّةً

ترجمة : علي عبد الأمير صالح

Author: **Rabeah Ghaffari**

اسم المؤلف: رابعة غفاري

Title: **To Keep the Sun Alive**

عنوان الكتاب: أن تُبقي الشّمسَ حيّةً

Translated by: **Ali AbdulAmir Saleh**

ترجمة: علي عبد الأمير صالح

P.C.: **Al–Mada**

الناشر: دار المدى

First Edition: **2022**

الطبعة الأولى: **2022**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © 2019 by Rabeah Ghaffari

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

مكتبة ياسمين على تلجرام

الإهداء

إلى أبي، محمد باقر غفاري

كُن الشمس وسوفَ يراكَ الناس كافّة.

– فيودور دوستويفسكي

المحتويات

رابعة غفاري 11

باريس 13

20 آذار/ مارس 2012 13

نهاية شتاء 1978 19

الغداء 40

القيلولة 50

الشاي والغروب 62

باريس II 73

ساحة المدينة 78

المُلّا والقاتل 85

سيمفونية في الخرائب 96

حلم أفيوني 108

باريس III 121

بيبي وأكبر 127

الموعظة الدينية ومناجاة النفس 132

صبا 138

الرجال 144
حفلة طلب اليد للزواج 159
الغرق 169
أُمّان 173

باريس IV 181
الجامعة 190
النساء 202

باريس V 225
الابن يستفيق من النوم 230
حوض الأزهار 246
القمر يصعد 257

باريس VI 267

شكر وعرفان 271

المترجم 272

رابعة غفاري

رابعة غفاري كاتبة وصانعة أفلام سينمائية مولودة في إيران. قصتها المُتخيّلة مع الفنانة شيرين نشأت ظهرت في (تأملات في الفن الإسلامي) وفيلمها الوثائقي، (الفرقة)، قدّمه للجمهور توني كوشنر. رواية غفاري الأولى (أن تُبقي الشمس حية) أُختيرت لجمعية (إندي نيكست ليست) الخاصة بمخازن الكتب، واصطفتها مجلة (ذه مليونز) الإلكترونية بين (الكتب المُنتظَرة جداً لعام 2019). بالإضافة إلى المُراجعات المُرصَعة بالنجوم، أثنت على الرواية سلسلة مخازن (كُتب پولز) المتخصصة بالكتب الجديدة والمُستعمَلة بوصفها «... الرواية الكاملة ...» ومدحتها مجلة (ذه نيويوركر) الأسبوعية باعتبارها «رواية مُرهَفة القلب... تُظهِر العواقب المتواصلة للعنف البَنَوي والسياسي».

النسخة الصوتية من سرد رواية غفاري رُشح لـ(جائزة الفنون الصوتية). سيناريو فيلمها الطويل الأخير (الوارثون) كُلّفت به المنتجة/ مصممة الأزياء الأمريكية باتريشيا فيلد.

غفاري خريجة كلية (IFP)، في غوي مالميزون، بفرنسا، برنامج تطوير الموهبة لـ(مهرجان برلين السينمائي الدولي)، (مختبر كتاب السيناريو في مهرجان ساندانس السينمائي) بالاشتراك مع (مفوضية الفيلم المَلَكي) في الأردن. مقر إقامتها الدائم هو نيويورك والمكسيك.

باريس

20 آذار/ مارس 2012

بدأ صباح كسوف الشمس حاله حال أيّ صباح آخر. تناثر المارة أصلاً في شارع بيلڤيل الرئيس[1]. أبواق السيارات دوّت. البوابات الشبكية المعدنية ضُربت بعنف إلى الأعلى. الأطفال ينتحبون فيما كانت أمهاتهم تجرّهم إلى المدارس. المتقاعدون، وهم على غير عجل من أمرهم، شقوا طريقهم صوب المتنزّه، وراحوا يُلقون التحيات أحدهم على الآخر بحركة بطيئة، بينما اندفع المهنيون الشبيبة بعجالة في خط مباشر نحو محطة المترو.

كانت الوجوه في تلك الشوارع خليطاً غريباً: يهود، غرب إفريقيّون، صينيون، ومغاربة من بين آخرين كثيرين، قُذفوا معاً فيما يبدو أنه معسكر لاجئين مَديني. شازديپور لا يختلف عنهم البتة. إنه مُغترب شأنه شأنهم، ومثلهم كان مجهولاً، من دون اسم، خيطاً وحيداً غير مرئي في سجادة حِيكت كيفما اتفق. لكنّه أكبر منهم سنّاً فقط، أكثر هشاشة، يلبس بذلة حليب وسكّر[2] ذات كُمين ينسل طرفاهُما، وقد ظهرت بقع عَرَق طفيفة على القماش المكوي بنحو أنيق.

1- بيلڤيل Belleville: منطقة سكنية في باريس، فرنسا، تقع أجزاؤها في أربع دوائر مختلفة (باريس مُقسمة إلى عشرين دائرة). الجزء الأكبر من بيلڤيل يقع عند الحدود بين الدائرة العشرين والدائرة التاسعة عشرة، على طول شارعها الرئيسRue de Belleville. أما البقية فتقع في الدائرتين التاسعة والعاشرة - م.

2- حليب وسكر seersucker: نسيج قطني مخطط - م.

شقّ طريقه بصعوبة عبر الحشود، ساحباً عربته اليدوية أسفلَ درجات النفق، مُبعداً بعكازه كلَّ شخص يقترب منه كثيراً جداً. كان قطار «الخط الثاني» يقترب وبشقّ النفس تمكن من الدخول إلى العربة الأخيرة. وقف شابٌ وأعطى مقعده إلى شازديپور. اندهش شازديپور، وأراد أن يشكره، لا على المقعد، بل على لُطفه. ومثلما بات يحصلُ مؤخراً في أحيان كثيرة جداً، كان بطيئاً جداً، وكان الشاب قد أدار له ظهره أصلاً.

عند ساحة Place du Tertre[1]، كان السيّاح قد اندفعوا بأعداد كبيرة مارين بالفنانين والحِرفيين - غالبيتهم من المهاجرين. مراهقون سنغاليون يتجولون مُنادين على بضائعهم، سلال مُحاكة وجواهر قَبَلية. نساء تونسيات، أطفال صغار يتشبثون بتنوراتهن، يبعن قطع سيراميك تحتوي على وفرة من الرسوم هي في الواقع تصاميمُ إسلامية مُعقدة. كلّها بسعر عملات يورو قليلة، بسعر كوب قهوة أو أقل. طوال ما يزيد على ثلاثة عقود من الزمن كسب شازديپور رزقه وهو يكتب أسماء الأجانب المارين بالخط الفارسي. تمر الأعوام، أصعب فأصعب. فتح قفل عربة اليد العائدة له، وفتح الكرسي والمنضدة. مسح العرق من على جبينه بمنديله، ثم رتب كدس أوراق مصنوعة من خرق القطن، المحبرة، قلم الخط، والمُنظّف بالورق المُرمَّل.

اقتربت شابةٌ على الفور، شابة أمريكية. غطّس قلمه الحبر في المحبرة، وبيدٍ مرتعشة لرجل عجوز، رفع عينيه. «ما اسمكِ؟» خاطبها.

مالت عليه. «مو ـــــ نيـــــ كا»، أجابت، ببطء، كما لو أنه أصم. غطّس قلمه في الحبر ثانية وعصر أصابعه المصابة بالتهاب المفاصل حوله. وبحذر، باشر يكتب اسمها، من اليمين إلى اليسار، متفوّهاً بهدوء الحروف المُرادفة بالفارسية. استدارة حرف الميم تتدفق في الخط العمودي لحرف الألف. وبعدها حرف النون الشبيه بحرف U يتدفق مباشرةً في حرف الياء الشبيه بنصف القمر. ومن ثم رفع قلمه الحبر وشرع بكتابة حرف الكاف

1- ساحة Place du Tertre: ساحة في الدائرة الثامنة عشرة في باريس. لا تبعد سوى شوارع قليلة عن كاتدرائية القلب المقدس في مونمارتر وملهى Lapine Agile الشهير الواقع في 22 Rue des Saules -م.

المُثلّث، الذي لامست نقطتُه الثالثة الحرف الأخير قبيل أن يندفع بقوة في الألف الأخيرة. اللمسة الأخيرة للنقطة فوق حرف النون والنقطتين تحت حرف الياء أُنجزت بماستين خطيتين.

حين انتهى من ذلك، هزّ الرمل على الورق ونفخ الغبار. كان الحبر يجف بسرعة، إلا أنّ المقاطع الأنيقة، المنمقة، تُخلّف انطباعاً قوياً عند المشترين. طوى الورقة وربطها بشريط، وبخجل يَقْبل اليوروات الثلاثة من يد مونيكا. إلى الآن، أخذُ النقود من الناس لا يزال يُخجله.

الصياح لَفَت انتباهه. كانت تلك مدام وو. ثمة رجل يهز بوجهها قصاصة الورق التي ناولته إياها. قال لها: Mein name ist Adam not Yadang![1]

هزّت رأسها: C'est ton nom en chinois![2]

خاطبها قائلاً: Buchstabiere es wie A–D–A–M![3]

مدام وو، معلمة سابقة للأدب الصيني وخطاطة مُحترفة، أُبعِدت عن وطنها الأم خلال حملة التطهير أثناء «الثورة الثقافية»[4]، تخلّت عن شرح

1- Mein name ist Adam not Yadang!: هذه الجملة وردت بالألمانية والإنكليزية في النص الإنكليزي الأصل، وتعني: اسمي آدم وليس يادانغ - م.

2- C'est ton nom en chinois!: وردت بالفرنسية في النص الإنكليزي الأصل، وتعني: هذا هو اسمك بالصينية! - م.

3- Buchstabiere es wie A–D–A–M!: وردت بالألمانية في النص الإنكليزي الأصل، وتعني: تهجّيها مثل آ ــ د ــ م! - م.

4- الثورة الثقافية Revolution Cultural: هي حركة اجتماعية-سياسية في الصين بين سنتيْ 1966 و1976، بدأها الرئيس الصيني ماو تسي تونغ، وزعيم الحزب الشيوعي الصيني، كان هدفها المعلن هو الحفاظ على الفكر الشيوعي «الحقيقي» في البلاد من خلال تطهير بقايا العناصر الرأسمالية والتقليدية في المجتمع الصيني، وفرض الفكر الماوي بالقوة بوصفه الفكر السائد في إطار الحزب. هذه الحملة أعادتْ ماو إلى موقع السلطة بعد حملة «القفزة الكبرى للأمام». شلّتْ «الثورة الثقافية» الصين سياسياً وكان لها تأثير سلبي كبير على الاقتصاد والمجتمع الصينيين. زعم ماو أن العناصر البرجوازية تخللتْ الحكومة والمجتمع ساعيةً إلى إعادة الرأسمالية، وكي يزيل منافسيه في الحزب الشيوعي الصيني، أصر ماو على إزالة هؤلاء «التعديليين» من خلال الصراع الطبقي العنيف. استجاب الشبيبة الصينيون لدعوته تلك فشكّلوا «الحرس الأحمر» في أنحاء البلاد. تسببتْ «الثورة

الاختلاف بين اللوغوغرافي[1] والإملاء الصوتي للزبائن. خطت نحو الرجل، قبضت على الورقة التي في يده، ومزقتها إلى قصاصات صغيرة.

هز شازديبور رأسه. فكر في شقته، مذياعه، زجاجة الكونياك التي تنتظره في نهاية النهار، مشروب الكونياك الذي يشربه كلّ ليلة بارتياح واحتفال كبيرين.

مجموعة من راقصي «البريك»[2] بوجوه مطلية وشعور مستعارة ملونة، شعور مهرجين كانوا ينصبون مُسجلاتهم المتنقلة. أسبوعياً هنالك مزيدٌ ومزيد من فصول الشارع المسرحية، كلّها أكثر بهرجة، أعلى صوتاً، وأكثر نضارة من خَطّه. أطفال غجر اندفعوا عبر الحشد اليوم، يبيعون النظارات البلاستيكية بغرض رؤية كسوف الشمس هذا المساء، بعد وقت طويل من عودة شازديبور إلى العزلة الباردة، المريحة لحجرة المعيشة العائدة له. طوال أسابيع، كان الكسوف هو الموضوع الذي يتكلّم عنه جميع سكان باريس، وهو أول كسوف مرئي في المدينة منذ ثلاثة وثلاثين عاماً.

«ثلاثة يوروات»، قالت الفتاة الغجرية. وجهها أسمر ذهبي، فمها مُلطّخ بعصير مألوف داكن اللون. مال إلى الأمام، وراح يشم العطر اللزج الناضج

الثقافية» في مضايقات واسعة النطاق وإذلال علني وحجز عشوائي لملايين الأشخاص في أنحاء البلاد، وتسببتْ أيضاً بنزوح السكان تحت تهديد القوة وكذلك نقل شبيبة المدن إلى الأرياف – م.

1- اللوغوغرافي logography: استعمال حرف أو رمز أو علامة كي تمثل كلمة كاملة – م.

2- البريك دانس break – dance: يمكننا أن نصف هذه الرقصة بكونها «رقصة بهلوانية». وهي رقصة التكسير، تكون على موسيقى الهيب هوب أو الراب، وتطورت باعتبارها جزءاً من ثقافة «الهيب هوب». وأيضاً يمكن تعريفها بأنها التعبير الجسدي لموسيقى الراب. هذا الرقص من أصعب أنواع الرقص وأخطره، يعتمد على حسب الإيقاع كما يتعب التفكير، لكنه يعطي جسداً قوياً في ممارسته. كذلك أصبح منتشراً في جميع مناطق العالم، إذ انتشر في أمريكا، جنوب أفريقيا. كذلك اشتهر الكوريون والفرنسيون به كما البرازيل وإيطاليا وهولندا. أما في البلدان العربية فقد اشتهرت به تونس والجزائر والمغرب والأردن وسوريا. يُعد هذا الرقص رياضة صعبة، وزد على ذلك هو رقص تدخل فيه العديد من الحركات، ناهيك من الرقص العادي وحركات الدوران واللياقة لأنه يحتاج إلى لياقة عالية وتركيزٍ عالٍ جداً – م.

لحبات الكرز التي أكلتها. حفنة إثر حفنة. ربما سرقتها من «سوق بيلفيل»[1] أو انتشلتها من بين القطع المنبوذة المسحوقة وراء الأكشاك.

«Gilas»[2]، هَمَس بعينين مُغمضتين.

جفلت، ووثبت إلى الوراء، مصعوقة بكلمة غريبة الصوت، كلمة يبدو أنها حسبتها شتيمة. كان رجلاً عجوزاً بالنسبة إليها، له عطره الخاص، ذا جلد هش ورائحة فم كريهة وربما موت صغير. فرّت مبتعدة عنه. وعلى الأرض، استقر زوج النظارات عند قدميه في الموضع الذي أسقطته فيه. لم يكن بحاجة إلى النظارات. وليست به حاجة لأن ينضم إلى الحشود عند ضفة النهر خلال ذلك المساء. كان قد شاهد السماء وهي تغدو قاتمة من قبل، تترامى الظلال فيما كان القمر يبتلع الشمس بتؤدة، إلى أن لا يبقى شيء باستثناء حلقة ضعيفة من النار في الظلام الحالك. كان قد وقف في ذلك الظلام الدامس بحيث ما من شيء جليّ خارج عقله. كان ذلك قبل ثلاثين عاماً مضى أيضاً، في عالم آخر، في سهول نيساپور[3] الذهبية، في

1- سوق بيلفيل: وردت بالفرنسية في النص الإنكليزي الأصل Marché de Belleville – م.

2- Gilas: وردت باللغة المالاوية في النص الإنكليزي، وتعني «نضارة» أو «تورّد». اللغة المالاوية هي اللغة التي يتحدث بها المالاويون الذين يعيشون في شبه الجزيرة المالاوية، وجنوب تايلند، والفلبين، وسنغافورة، وشرق سومطرة، ورياو، وبعض الأجزاء الساحلية في بورنيو – م.

3- نيساپور(بالفارسية نيشاپور Naishapur): مدينة في مقاطعة خراسان، شمالي شرقي إيران، قرب العاصمة الإقليمية مَشهد. كانت نيسابور عاصمة لمقاطعة خراسان قديماً، وتُعد من أشهر مراكز الثقافة والتجارة والعمران في العصر العباسي، قبل أن يدمرها زلزال ضربها عام 1145م، ثم أكمل خرابها غزو المغول لها سنة 1221م. تعد مدينة نيساپور من مدن إيران القديمة، وربما الأقدم بينها، التي ما زالت حتّى أيامنا هذه مأهولة بالسكّان، وتعتبر الأقدم بين المراكز المهتمّة بالعلوم الإسلاميّة في دولة إيران. كان لهذه المدينة سابقاً الشأن الكبير في الكثير من المجالات، خاصّة في مجال الأدب والثّقافة، وأيضاً العلم الذي عنيت به الشيء الكثير، ولا يُنسى اهتمامها بالشأن الفنّي، وأيضاً بالشأن السياسي. تعتبر مدينة نيساپور من أهمّ المدن التي تقع على طريق الحرير بل أهمّها. ويذكر أنّها كانت قديماً مركزاً دينياً مهماً في كلّ بلاد فارس لكلّ من النساطرة وأيضاً الزرادشتيّين، وذلك في زمن الحكم الساساني. في

بستان أسرته. أزهار ثلجية بيضاء تلتصق بأغصان أشجار التفاح. عناقيد الكرز الأخضر تتدلى بكثافة على الأغصان. في النسيم، توجد رائحة الإجاص وأزيز النحل والفرقعة النظيفة للقطن فيما كانت تُفتح «السُفرة»[1] ويجتمع أعضاء أسرته من أجل تناول الغداء. الوقت ربيع، ربيع على الدوام، والشمس متوهجة، فوق الرؤوس.

نيساپور العديد من الأماكن الأثريّة المهمة، كمقبرة عمر الخيّام، والمسجد الخشبي، وفيها أيضاً جامعة مهمة وعريقة هي جامعة نيساپور الإسلاميّة الحرّة، وأيضاً نجد مسجد نيساپور، وساحة كبيرة ورئيسيّة تعرف باسم ساحة عمر الخيام – م.

1– السُفرة sofreh: المائدة وما عليها من طعام. وأحياناً تُستعمل كلمة «سُفرة» بمعنى الغطاء الذي تُوضع عليه أطباق الطعام، وقد يكون من المشمع أو من قماش أو نسيج معين. هذه الكلمة يستعملها العراقيون في حديثهم اليومي المألوف – م.

نهاية شتاء 1978

يقع بستان مِردمَد في مدينة نيشاپور، أو في «المدينة الجديدة للملك شاپور»، في المنطقة الشمالية الشرقية من خُراسان، المعروفة بـ «الأرض التي تشرق منها الشمس». كان البستان تابعاً لأسرة بيبي-خانوم على مدى أجيال، وقد شيّده جدها الثالث. كان قد اشترى أربعة هكتارات من الأرض القاحلة من الحكومة المحلية وعَمِل مع المهندسين كي يبني القنوات المائية التي جلبت الماء إلى الأرض من «جبال بينالود» الواقعة شمالاً. كان البستان مُحاطاً بسور مستمر واحد من الطوب ذي أبواب خشبية هائلة في الزاوية الغربية الجنوبية. عند الدخول، تتبعُ درباً مفروشاً بالحصى يمتد بالقرب من السور الغربي. كانت الأشجار تَحفّ بالدرب في كلتا الجهتين ويوجد جدولان ضيقان يؤديان إلى مناطق سكن العائلة. أغلب أشجار الفاكهة زُرعت سويةً في الجهة الجنوبية الشرقية. كانت هنالك ثمار متنوعة ذات نواة واحدة مثل الخوخ، المشمش، الكَرَز، والكَرَز الحامض، وثمار من الفصيلة التفاحية مثل التفاح والكمثرى. كان القطاف السنوي يجلب عائداً مالياً ثابتاً للأسرة لخزينة العائلة ويزوّدهم بجميع الفاكهة التي يحتاجونها لاستهلاكهم الخاص، بما فيها الفاكهة التي يحفظونها، المُربيات، الكومبوتات[2]، والفاكهة المجففة.

إنها مسيرة عشر دقائق كاملة كي تصل إلى نهاية البستان، حيث تصلُ هناك إلى نافورة تمتلئ بأسماك زينة حُمر، ذهبية، برونزية، وسود، وشجرة جوز كبيرة سوداء مهيبة. وعلى ارتفاع درجتين تقوم منصة المنزل. وعلى طول السور الشمالي توجد حظيرة حيوانات صغيرة تؤوي عدداً قليلاً من الماعز

2- الكومبوتات compotes: مفردها «الكومبوت»، تعني فاكهة مطبوخة بالسكر بطريقة تُحافظ فيه على شكلها - م.

والأغنام فضلاً عن خمّ الدجاج. وبجانب الحظيرة يوجد مخزن يمتلئ بالحبوب، الرز، التوابل، وكلّ أنواع أطعمة الإصطبل. السور الشمالي، حيث تدخل القنوات المائية إلى ما تحت سطح أرض البستان، مُغطى بالكروم. في الناحية الجنوبية من المنزل يوجد حوض زهور هائل حيث تطوّق صفوفٌ من أزهار السوسن، الخزامى، والليلك شجيرة ورد.

كانت بيبي-خانوم هي الشخص الوحيد الذي يعتني بالبستان وكانت تسكن فيه مع زوجها، وهو قاضٍ متقاعد، وابنهما المُتبنى الذي يبلغ عمره عشرة أعوام، جعفر، الذي لم يكن يتكلّم على الإطلاق. الآن، في الأسابيع الأخيرة من الشتاء، يعود البستان إلى الحياة بعد سُباته. ضوء ذلك الصباح ذوّب الصقيع، والماء يُقطّر من الأشجار إلى أن لم يتبقَ شيء باستثناء اللحاء الرطب والأغصان. تعددية أصوات متصاعدة ببطء من غناء الطيور ونداءات تزاوج الحشرات التي كانت تزقزق وتصر ما بين النباتات الخضر. حَفَر النمل بنشاط مساكنه الواقعة تحت الأرض. جمعت الطيور الأغصان الصغيرة كي تبني أعشاشها. النحل يدور حول براعم الزهور بحثاً عن الرحيق. كانت بيبي-خانوم تتحرك ببطء وصعوبة حول الحجرات، تحزم ملابس الشتاء والبطانيات المتناثرة في الجناح الجنوبي من المنزل، حيث قضت الأسرة الشهور الباردة القاسية، باعتبار أن هذا الجناح يمتلك أغلب الضوء الطبيعي. طوال الشهور الدافئة القادمة، يحتاجون إلى ظل الجناح الشرقي، وكانت بيبي-خانوم هي التي تضطلع بمسؤولية الانتقال إلى الموقع الجديد سنوياً.

شقت طريقها شرقاً عبر المجاز ونظرت خارج الأبواب الفرنسية. ميرزا، مساعدها الأفغاني، علّق جميع السجاجيد العائدة للمسكن الربيعي للأسرة. وبغضب راح يضرب السجاجيد بعصا. الغبار يتلاطم مرتفعاً إلى الأعلى في الهواء الذي غمره ضوء الشمس. سحبت بيبي-خانوم عباءتها[1] على فمها، وراحت تتنفس من خلال النسيج الطويل، الأبيض، الخفيف كالشاش.

1- العباءة chador (چادر بالفارسية): لباس خارجي تلبسه النساء في إيران، غالباً ما يكون لونها أسود، في حالة الخروج إلى الشارع، أما عباءة الصلاة فتكون حافلة بالورود الصغيرة. ويقال إنها تعود إلى عصر الأخمينيين، تكون على شكل نصف دائرة ومفتوحة من الأمام، وليس فيها فتحات للذراعين أو أزرار. في ترجمتنا هذه سوف نستعمل كلمة «عباءة»، ونعني بها «الچادر» أو «الشادور» الذي تلبسه النسوة الإيرانيات - م.

«ميرزا-جان»، قالت، مستعملةً المصطلح القديم المألوف للتحبب، وتابعت: «اترك ذلك حالياً. يلزمنا أن نبدأ بتحضير طعام الغداء».

أمضى زوج بيبي-خانوم الصباح جالساً تحت شجرته، وهي الشجرة الوحيدة التي تنتصب منفصلة عن الأشجار الأخرى في البستان، شجرة الجوز السوداء التي زرعها جد بيبي-خانوم الثالث أمام المنصة الواقعة في المدخل الشمالي للمنزل. الأغصان الثقيلة الطويلة تتدلى واطئةً، صانعة ظُلّة حول الجذع السميك، وعند قاعدته كانت الجذور تنتفخ كالأوردة في يد بشرية، ممتدةً إلى الخارج ومختبئةً تحت التربة. بَسَط القاضي، كما يدعو الجميع زوج بيبي-خانوم، سجادته عند قاعدة الجذع، جالساً بين اثنين من هذه الجذور، كما لو أنهما ذراعا كرسي. كان قد اكتشف هذه البقعة في يوم زفافه. كانت تظلّلُه في الصيف وتدفّئُه في الشتاء. في هذا الموضع يقرأ كتبه، يعقد حواراته، ويتأمل أفكاره. وفي هذا الموضع أيضاً طبع أولَ قبلة على ثغر زوجته.

رغم أن عشرة أعوام انطوت منذ إحالته على التقاعد من منصبه القضائي، زملاؤه وطلاّبه السابقون لا يزالون يترددون إلى البستان كي يجلسوا معه على سجادته تحت الشجرة ويُقدّموا وقائع دعاواهم القضائية فيما هم يحتسون الشاي برفقته. كان الحُكم العابر على زملائه الآدميين شيئاً يُثقل كاهل القاضي على الدوام. أن يقضي الفصول الأخيرة من حياته وهو يتكئ على شجرة يراقب نحلةً تُلقّح نبتة حليب الشوك[1] شيءٌ يملؤه بالهدوء والطمأنينة والرواقية، وكان كثيرٌ من الناس يُخطئون فيحسبون ذلك «برود».

هذا اليوم تحديداً، جلس زميلٌ سابق معه ما يزيد على ساعة، حين خرج

1- حليب الشوك milk thistle: نبات مزهر أرجواني اللون، يعود أصله إلى جنوب أوروبا وبعض أجزاء آسيا. يُسمى أيضاً «الخرفيش»، «الشوك»، و«المريانية». بعض الفوائد الصحية لنبات الخرفيش تشتمل في قدرتها على إزالة السموم من الكبد وإصلاح سرعة الجهاز الهضمي وعلاج بعض الأنواع من السرطان والقدرة على علاج الالتهابات الفطرية وعلاج الإفراط في تناول المشروبات الكحولية والحماية ضد الآثار الجانبية لعدد من الأدوية وإبطاء ظهور مرض ألزهايمر والخرف والحد من أمراض القلب والسيطرة على أعراض مرض السكري - م.

عقربٌ كان يعيش تحت شجيرة الورد القريبة مُسرعاً، خارجاً من مكان استراحته. كان العقرب يفعل ذلك يومياً، في الوقت نفسه على وجه الدقة، إلا أنه اليوم وقع على نحلة جريحة سقطت من الخلية الكائنة في الأعلى. وعلى الفور أطبق فصه الأخير[1] على جسم النحلة، وشلّها قبل أن يقضم برفق جزءاً من الحشرة. استمر زميل القاضي في مناقشة قضيته في المحكمة وكيف أنه متردد فيما يتصل بنتيجتها. حين انتهى العقرب من وجبة طعامه، استدار ورجع مسرعاً إلى جحره. التفت القاضي إلى زميله، الذي لم يلاحظ شيئاً، وانبرى قائلاً: «قوانين الطبيعة تبدو واضحة وخالية من المكر، حتى في قسوتها المؤقتة. بينما قوانين البشر تبدو مُبهمة وخبيثة، حتى أثناء سعيهم إلى المساواة».

أحضر ميرزا قفصاً مليئاً بالخضار إلى المطبخ من مستودع الشتاء في الطرف الغربي من المنزل جنباً إلى جنب مع بعض اللحم من صندوق التجميد وشرائح من الباذنجان المُجمّد الذي كان قد قُلي سابقاً. تناولت بيبي-خانوم صينية الباذنجان. قطّعت البصل وقلته في قِدر فيما كان ميرزا يغسل اللحم تحت الماء الفاتر، يقطّعه إلى مكعبات صغيرة، ويُضيفها إلى القِدر. بعدها أضافت بيبي-خانوم الباذنجان. استمرا في تحضيرهما طعام الغداء بصمت، يتحركان أحدهما حول الآخر بالراحة والانسجام الناجمين عن سنوات التكرار.

ما إن انتهى إعداد الطبق، ثمّنت بيبي-خانوم المهمة التي تنتظرها. قِدران بحساءين مختلفين لا يزالان يغليان برفق على الموقد، طاس كبير من الرز غير المطبوخ منقوع في الماء والملح، طماطم طازجة، بصل، وخيار ترقد على قالب التقطيع جاهزة لأن تُصنع منها السَلَطة، وحفنات من الطرخون، الريحان، النعناع، والكزبرة ترقد جافة في منخل. مسحت يديها الرطبتين بخرقة الأطباق والتفتت إلى ميرزا:

«سوف نحتاج إلى قاطفي الثمار كي يبدؤوا بالعمل في أقرب وقت ممكن. إنه مطلع الربيع».

1- الفصّ الأخير telson: الفص الأخير من جسم الحيوان القِشري - م.

«أجل، سوف أرتّب الأمور».

«أعتقد أنني سأصنع مربى الكَرَز الحامض وكومبوت الكمثرى. أما البقية فبالإمكان أن تذهب إلى السوق».

«وماذا عن الكروم؟».

كانت بيبي-خانوم تعرف على وجه الدقة لماذا استفسر عن مصير الكروم. إنهما ينخرطان في الحوار الرقيق نفسه سنوياً.

«هل تحتاج إلى قفص أو قفصين من أجل عصيرك الطبي؟».

«أجل. إنه مفيد جداً لمشاكل النوم».

«بالطبع. لمشاكل النوم».

هزت بيبي-خانوم رأسها في خيبة أمل تشوبها السخرية. حاول ميرزا أن يكبت بسمة.

كانت بيبي-خانوم مُسلمة تقية لم تمس شفتاها الكحول، إلا أنّها لا تبالي حين يفعل الآخرون ذلك. نظرت خلسة إلى المجاز:

«أين جعفر؟».

«مع الدجاج».

«ثانيةً؟».

في داخل الخم، كان جعفر يدور حول القش المُغبر، يُطارد دجاجة منفوشة بوضوح. كان لديه شريط أحمر في يده. انحنى عليها محاولاً أن يمسكها من مؤخرة ظهرها. تحركت بسرعة وراحت تتهادى بنحو أسرع في دوائر. كان غلاماً بديناً وكان يتنفس بصوت مسموع بسبب الإجهاد. الدجاجة تُحبط مناوراته في كلّ منعطف. وفي النهاية يستسلم ويجلس لافاً ساقاً على ساق في وسط الخمّ، رأسه بين يديه. كانت الدجاجة تتهادى ببطء. ابتسم لها، مدّ يده في جيبه، وأبرزَ يده الممتلئة بالبذور، وراح يُسقِطها على الأرض. وبتردد رفعت رأسها والتقطت البذور. لفّ الشريط الأحمر حول رقبتها وبسرعة ربطه قبل أن تحتج وترفرف مبتعدة. تهادت مبتعدة في دوائر، وراحت تقوقي احتجاجات على الدجاجات الأخريات كما لو كانت سيدة ماخور.

وقفت بيبي-خانوم في مدخل الخم وهي تمسك بعباءتها على فمها وأنفها. سعلت وقفز جعفر على قدميه، توّرد وجهه خجلاً.

«هل سمّيتَها؟» قالت بيبي-خانوم.

أومأ جعفر برأسه أن نعم.

نظرت إلى الدجاجة وعلى مدى لحظة موجزة سمحت لنفسها أن تراها كما رآها جعفر. الريشات البيض كالثلج، المنقار الأصفر الحاد، الشريط الأحمر الساتان. كانت تقريباً تشبه ثوب زفاف مُتقناً. نظرت بيبي-خانوم إلى ابنها الصغير ووضعت يدها على رأسه. «لن يُصيبها أذى، لكن عليك أن تكفّ عن تسمية الدجاج».

أومأ برأسه موافقاً على مضض.

«الآن ادخلْ وغيّرْ ملابسك. الجميع في طريقهم إلينا. بمَن فيهم مجيد».

أشرق وجهُ جعفر لدى ذكر اسم مجيد. تبع أمه وهي ترجع إلى داخل المنزل فيما كانت دجاجته الجميلة تعود إلى حبوبها.

***

كان أول الواصلين إلى دعوة الغداء ابنة أخت بيبي-خانوم، قمر، زوجها المُعارِض محمد، وابنتها المُتعنتة، نسرين. تصاعدت سُحب الغبار فيما كانوا يحثون الخطى في الطريق وكانوا قد شرعوا في الجدال.

لمّا وصلوا إلى بابيْ البستان، دفعت قمر زوجها خارج الدرب. البابان لهما قارعتان منفصلتان. القارعة التي في جهة اليسار كانت صفيحة بيوتر[1] مزخرفة ذات مقبض مستطيل يتدلّى من مفصل. إنها للزائرين الذكور. كان نوع القارعة يُحدث صوتاً أعمق. أما القارعة التي في جهة اليمين فهي للزائرات الإناث، وهي مزودة بمقبض مستدير رقيق يتدلى من الصفيحة فتُحدِث فرقعة عالية الصوت. أمسكت قمر بقارعة الذكور وبدأت تقرع الباب بشدة. جفل زوجها.

حالاً ميّز ميرزا قرع قمر، ليس من خلال صوته بقدر ما ميّزه من خلال

1- بيوتر pewter: أُشابة معدنية مقومها الأساسي القصدير - م.

ضراوته. استعد لدخولها بأن رفع بصره إلى السماء سائلاً رباً لم يكن يؤمن به كي يحميه.

اقتحمت قمر المنزل ومحمد يتبعها، عيناه مثبتتان في الأرض، فيما كانت نسرين تفتش عن حبيبها مجيد.

«استمروا!» جأرت قمر.

طار عصفورٌ عبر شجرة كمثرى.

كان من دأب قمر أن تكون أول الذاهبين إلى أيّ مكان، كما لو أنها لا تطيق المكان الذي توجد فيه.

في وقت أبكر من صباح ذلك اليوم، جلست على الكنبة المغطاة بالبلاستيك، وراحت تصيح إلى أن أخرج محمد المسبحة وراح يداعب خرزاتها. نقر بإصبعه خرزات قليلة، ثم استجمع شجاعته كي يغادر حجرة نومه ويواجهها.

كانت نسرين قد ظلت في غرورها. رفعت صوت كاسيت المسجل العائد لها، واستأنفت وضع مجموعة غير منسجمة من مساحيق التجميل التي جمعتها من صديقاتها على مرّ الأعوام. علبة ألوان الشفتين «ماري كيّ» الوردية المغبّرة، أنبوب مسكرة «ماكس فاكتور» مع مشط خشب، ملقط صدئ، وحامل كحل من النحاس الأصفر عتيق الطراز. أنشدت مع نجمة البوب گوگوش[1]: «ساعدني، ساعدني. لا تدعني أبقى وأتقيّح هنا.

1- گوگوش Googoosh: (اسمها الحقيقي فائقه آتشين) ولدت في 5 أيار / مايو 1950 في طهران، وهي ممثلة ومغنية إيرانية. ولدت گوگوش لأبوين أذريين. مثلت مرات عدّة في أفلام إيرانية في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي. إلى جانب شهرتها في إيران، هذه الفنانة معروفة أيضاً في بلدان الشرق الأوسط، إذ أحيت حفلة غنائية في بغداد العام 1977، كذلك حفلة أخرى في أربيل / إقليم كردستان العام 2010. وقفت گوگوش على خشبة المسرح وهي لا تزال في الثالثة من عمرها مع أبيها الذي كان يعمل ممثلاً أكروباتيكياً وممثلاً مسرحياً. غنت بالإضافة إلى الفارسية باللغة الإسبانية والإيطالية والفرنسية، ويبلغ عدد أغانيها التي غنتها بلغات أجنبية 55 أغنية وحصلت بعضها على مراتب متقدمة في ترتيب الأغاني في أمريكا الجنوبية. تعتبر أغنية «من آمده ام» من ألبوم «طلاق» هي الأشهر بين أغانيها وما زال معجبوها

ساعدني، ساعدني. لا تدعني أُقبّل شفتَي الموت هنا»، فيما كانت تتفحص وجهها من كلّ الزوايا الممكنة.

بصرف النظر عن المكان الذي يجلس فيه مجيد بالنسبة إليها في البستان، كانت تحرص على أن تكون خالية من العيوب. تلصصت على شعرة حمراء في حاجبيها اللذين اعتنت بهما بكلّ معنى الكلمة، انتزعتها من دون ندم، وبعدها استمرت بالغناء: «في أوردتي لا يجري الدم بل قصيدة الرحيل الحمراء».

كانت حجرتها مَرقَداً للكاسيتات الصوتية، المجلات، والكتب المُتعلّقة بالمسرح. ملصق كبير لأحد الأفلام السينمائية، «أثناء الليل»، تمثيل گوگوش، مُعلّق فوق سريرها. الفيلم الذي أُطلِق في السنة الفائتة، يتناول قصة ممثلة- مُغنية شهيرة تقع في غرام مُعجب شاب يموت باللوكيميا. في منتصف الفيلم، تُظهر الممثلة ثدييها على الشاشة، وهي أول ممثلة سينمائية تفعل ذلك في السينما الإيرانية. التقليديون استشاطوا غضباً. ونجمت عن ذلك مقاطعات واحتجاجات.

في رأي نسرين، گوگوش امرأة مغرورة، شهوانية تتمنى أن تكون مثلها في يوم ما. ليت أمها ابتعدت فقط عن طريقها.

أغمضت عينيها ودندنت بأغنية گوگوش عن سمكة تتضرّع إلى عاشقها كي يحررها ويُعيدها إلى المحيط. لمست شفتيها وفكّرت في مجيد، في قبلته التي بطعم اللوز الأخضر، في شفتيه الطريتين المكتنزتين.

***

مندفعةً عبر البابين الفرنسيين للمطبخ، سارت قمر مباشرة إلى بيبي-خانوم. أطلقت تنهيدة واتكأت على الحائط. «أوه، خالتي»، تأوّهَت. «إني أغلي في هذه العباءة!».

يستمعون إليها. لم تترك الفنانة إيران بعد الثورة الإيرانية بل بقيت لكنها كانت ممنوعة من الغناء، كما مُنعَت أغانيها من البث. غادرت إيران نهائياً في العام2000. تعيش گوگوش اليوم في كاليفورنيا، الولايات المتحدة الأمريكية، حيث ما زالت تواصل مسيرتها الفنية - م.

«ماء؟» قالت بيبي-خانوم.

«إنها ليست مشكلة كبيرة جداً». سعلت قمر برفق وتطلّعت إلى ميرزا الذي ناولها كأس ماء.

استنشقت قمر الماء. كانت تشك في ميرزا. كانت تشك في أيّ شخص أفغاني، تركي، أرميني، عربي، منغولي، بلوشي، يهودي، أو كوردي، وهذا من شأنه ألا يُبقي أحداً في إيران لها كي تثق به. في إحدى المناسبات، مجيد، ابن ابن أخت زوج بيبي-خانوم، أخطأ في الإشارة إلى قمر بأنه ليس ثمة شيء فارسي وإذا ما أرادت أن تقابل فارسياً، يلزمها أن تمضي إلى الهند وتجد شخصاً فارسياً. كانت قمر حذرة منه منذ ذلك الحين وكانت تخبر زوجها عادةً بأنه يوجد شيء هندي صغير في بشرته الزيتونية.

التحق محمد بالقاضي في غرفة المعيشة. جلسا على وسائد الأرض وراحا ينقران خرزات مسبحتيهما ويتناولان الشاي.

«كيف هي مهنة الخياطة؟» سأل القاضي.

هز محمد رأسه: «كما هي. في الأغلب نحن نخيط العباءات لرجال الدين. يبدو أنّ الله لم ينفد ما لديه من رجال دين جُدد، وكلّ ما يحتاجونه هو الثياب الجديدة. لا بد أن تصبح المهنة ناشطة بحلول الربيع، وأيضاً. أخيّط فساتين الزفاف والبدلات الرجالية».

«وماذا عن الأسرة؟».

«جميعهم أصحاء وسعداء».

تأمل القاضي وجه محمد. ثمة شيء لا يقوله زوج ابنة أخت زوجته. طوال العام الفائت، بدا محمد بعيداً أكثر عن حياته، حيث كان يتردد على البستان في أوقات غريبة كي يلقي التحية ويبقى ساعات، كما لو أنه لا يود الذهاب إلى منزله. أما قمر فقد أصبحت، من جانبها، أكثر تحدياً وكانت تنفجر بسهولة على أدنى إزعاج. كان بوسع القاضي أن يستشعر التوتر بينهما، لكن ليس من طبيعته أن يتطفل. «والحياة تستمر»، قال باسماً.

أما ثاني الواصلين فهو شقيق القاضي الأكبر منه سناً، الملّا. كان قد فرغ تواً من قيادة صلاة ناجحة بنحو خاص في الجامع المحلي، مرتدياً ثوباً أبيض وعباءة خاكية اللون كان محمد قد خيّطها له.

كان أتباعه يزدادون يوماً بعد يوم. وكانت خدماته التي يقدّمها أيام الجمع تمتلئ تماماً تقريباً. في صبيحة ذلك اليوم، بدأ بكلمة واحدة: «الكرامة». وبعدها جعل الكلمة تدوّي وهو يجلس على حافة المنبر الكائن فوق حشد المُصلين. خفض الرجال عيونهم ناظرين إلى الأرض، وراحوا ينقرون بأصابعهم حبات المسبحات التي في أيديهم ويهشون الذباب. النساء غطين أفواههن بعباءاتهن. كان المتعبدون خليطاً من تجار البازار، الفلاحين، أصحاب الحوانيت والمخازن، وعمال من الحقول والدوائر الحكومية. ناهيك من الطلبة وربات البيوت. جلس الرجال في جهة بينما جلست النساء في الجهة الأخرى. فَهِم الجيل الأكبر سناً الكلمات بوصفها بلسماً شافياً، بينما فَهِمها الجيل الأصغر سناً باعتبارها دعوةً للحرب.

«المال؟» استأنف المُلّا حديثه. «السلطة؟ الملكية؟ المنزلة الاجتماعية؟ الأسرة؟ ماذا تنفع هذه الأشياء الإنسان الذي باع كرامته؟ بمستطاع المرء أن يفقد ثروته. يُمكن أن يسقط من موقعه في السلطة. قد يتحطم منزله بواسطة كارثة طبيعية، قد تُدمر مكانته في ومضة عين، ويؤخذ منه أفراد أسرته. لكنه إذا كان يمتلك كرامته، فهو لم يفقد شيئاً. إذا كان يمتلك كرامته، فهو في حالة نعيم. ذلك أن الله وهبنا الكرامة ولا يُمكن أن تؤخذ منا إلا إذا أعطيناها بملء إرادتنا».

فتح المُلّا عباءته، وضع يده في جيب الصدر العائد له، وأَبـرزَ وثيقة: «أتى إليّ رجلٌ حاملاً قصاصة الورق هذه بيده. خاطبني قائلاً: «[حاج-آغا، السلطات أعطتني هذا الصك العائد لقطعة من الأرض وقالوا لي إن باستطاعتي أن أفلحها وأزرعها وأُطعم أعضاء أسرتي. إلا أنها أرض غير كافية وليس بحوزتي الموارد المالية كي أزرعها]».

نظر إلى الوثيقة برعب مشوب بالسخرية.

«إنها قصاصة ورق مُؤثرة. إنها تحمل دمغة رسمية جداً من دائرة عليا. إلا أنها قصاصة ورق. هل بوسع هذا الرجل أن يعيش عليها؟ هل بوسعه أن يؤوي عائلته بها؟ هل بمستطاعه أن يأكلها؟».

أطلق حَشد المُصلّين ضحكة جماعية.

«سألني قائلاً: «[حاج-آغا، ماذا بوسعي أن أفعل؟ إلى أين أمضي؟ أنا رجل واحد من دون موارد مالية. ماذا باستطاعتي أن أفعل إزاء فساد كهذا؟]». أحس المُلّا أن عينيه تمتلئان بالدموع.

بدأ من جديد: «الإمام الحُسين».

انفجر جمع المُصلين بالبكاء.

«الإمام الحسين وقف على سهول كربلاء مُحاطاً بجيش تعداده عشرة آلاف رجل قوي. التفت إلى أتباعه وغطى وجهه وانبرى قائلاً: [سوف نموت كلّنا هنا. كلّ مَن يرغب بالمغادرة ليفعل ذلك الآن]».

تنفس المُلّا الصعداء، وتابعَ: «غادر الجميع باستثناء اثنين وسبعين فرداً. وقف الإمام مع أسرته المؤلفة من اثنين وسبعين، غالبيتهم من النساء والأطفال، مُحاطين بجيش قوامه عشرة آلاف رجل. كان أعضاء أسرته يموتون من العطش في المخيمات حيث انكمشوا هناك، كان فم طفله الرضيع ينزف من التقيّحات، أما زوجته فكانت تبكي وتتضرّع طلباً للماء. كلّ ما ينبغي له أن يفعله كي ينقذهم، هم الذين بمنزلة لحمه ودمه، هو أن يبيع كرامته، يبيع كرامته مقابل حياته وحيواتهم. إنما بدلاً من ذلك، أشقائي وشقيقاتي، اختار أن يموت».

كانت عينا المُلّا حمراوين، حنجرته يابسة. بدأ ينتحب ورفع طرف عباءته إلى وجهه فيما كان ينتحب، وانتحب المؤمنون كافة معه.

لمّا كان الملّا يقترب من المنزل، كان نصْرُه الأبكر يتلاشى، ويحلّ محله الاستياء الذي طالما أحس به تجاه شقيقه الأصغر منه سناً. قضى المُلّا سنوات حياته كلّها وهو يعيش في ظلّ القاضي. كان المُلّا قصيراً وبديناً في حين كان القاضي طويلاً ونحيفاً. كان يتمايل حين يمشي، بسبب ساقيه المقوّستين، بينما كان القاضي يمشي بخطوات واسعة من دون مجهود. كان صوته عالياً ونارياً مقارنة بصوت شقيقه الناعم «الباريتون» العميق، وكان يُضايق أفراد الأسرة بأحاديثه. نادراً ما كان شقيقه يتكلّم، وحين يتكلّم، كان ينطق كلمات ملاحظة قليلة أو يطرح سؤالاً. كان الجميع يفضلّون القاضي وكان المُلّا يعرف ذلك.

دخل المجاز، وخلع صندليه عند الباب. وما إن رأته قمر وبيبي–خانوم في مدخل المطبخ حتى ضبطتا عباءتيهما. وتعبيراً عن الحشمة، أشاح بصره قبل أن يُلقي عليهما التحية. أرشدته بيبي–خانوم إلى حجرة المعيشة في الجناح الجنوبي. «حاج – آغا»، خاطبته مستعملةً لقبه الدال على التشريف، كما كانت تفعل ذلك دوماً: «أنا متأسفة جداً لأني لم أتمكن من المجيء صباحاً. كان لديّ أعمال كثيرة جداً كي أنجزها هنا. لم يكن بوسعي الخروج من المنزل والمجيء إلى المسجد».

قاطعتهما قمر. «حاج – آغا. كنتُ أروم المجيء. ارتديت ملابسي وتأهبتُ للذهاب، إلا أنني أسكن مع السلاحف لذا من الأعجوبة أن نصل إلى هنا». ألقت نظرة تشي بالاتهام على زوجها وابنتها. كلاهما خفض بصره ناظراً إلى يديه.

انحنى القاضي وقبّل المُلّا في كلا خديه وقاده إلى الموضع الذي كان يجلس فيه. سكب له قدحاً من الشاي، قَبّله المُلّا، وقدّم إليه الفاكهة، إلا أنه رفضها. أخرج المُلّا مسبحته. محمد والقاضي استعادا نشاطهما. وعلى مدى دقائقَ قليلة، كان الصوت الوحيد المسموع في الحجرة هو صوت نقر حبات المسبحات بالأصابع.

شعرت نسرين بأنها غير مرتاحة بحضور المُلّا. كانت تعي بشعرها المكشوف فغادرت الحجرة، على الرغم من نظرات أمها المُحدّقة. على الأرضية في المدخل الجنوبي للمنزل، راحت، تتمشى جيئةً وذهاباً مُتظاهرة بأنها تُشمس نفسها فيما كانت تختلس النظر إلى درب البستان.

ضيّقت قمر عينيها. نسرين تفتش عن مجيد، هذا ما شَكّت به قمر. طوال العام المنصرم، أمست ابنتها مهتمة بمظهرها، حتى وهي بصحبة أفراد أسرتها. كما كان هنالك نتف الحاجبين، مساحيق التجميل، والثياب الزهرية التي شرعت نسرين تلبسها في كلّ مرة تزور فيها البستان.

عاودت قمر الانتباه إلى زوجها:

«محمد– آغا، قطّع بعض الفاكهة للحاج – آغا».

«إنه لا يُريد أيّ فاكهة».

«هذا ليس سبباً كي تكون قاسياً».

بمجهود قليل، انحنت والتقطت ثمرة برتقال، خيارتين فارسيتين، وتفاحة من الطاس. وضعتها على الطبق وأخذتها إلى زوجها مع واحدة من سكاكين التقشير: «الآن قطّع هذه برقة للحاج –آغا».

شاهد المُلّا ذلك كلّه من دون أن يلوح على وجهه أيّ تعبير. «جزيل الشكر، قمر–جان. بعض الفاكهة ستكون شيئاً لطيفاً».

رفعت قمر حاجباً لزوجها، الذي سقط فجأة على الفاكهة، وراح يقشرها. نفضت يديها فيما كانت تتوجه عائدة إلى المطبخ.

هز المُلّا رأسه وانبرى قائلاً: «إنك تدع امرأة تتكلّم معك بهذه الطريقة؟».

ابتسم له محمد: «هي ليست امرأة، حاج – آغا. إنها حارس سجن».

قهقه المُلّا، وبعدها نظر من النافذة إلى البستان. «الربيع أتى مبكراً هذا العام».

أومأ القاضي برأسه علامة الإيجاب. «نعم، جاء مبكراً وفي غير أوانه».

«سوف يكون الصيف طويل الأمد وحاراً. يلزمك أن تُبقي الأراضي مُشبعة بالماء، وقاطفو الفاكهة عليهم أن يأتوا قبل انقلاب الشمس الصيفي».

«أجل».

«أخشى أنه ليس بالأمر السهل جداً بالنسبة إلى الفلاحين. لن يتمكنوا من سقي الأراضي، ناهيك من استئجار قاطفي الثمار».

على ركبتيه، زحلق محمد طبق الفاكهة المُقطّعة أمام الشقيقين. نظر المُلّا إلى القطع الموضوعة أمامه بنحو بارع. لم يأخذ أيّ قطعة. «إن مسألة تخصيص الأرض هذه ظلمٌ كبير. ناهيك من ازدراء طريقتنا في الحياة. لسنا بالشيوعيين الكافرين».

«إن موضوع تخصيص الأرض شأن شرعي جداً».

«الناس غاضبون جداً من المعاملة المفضّلة تجاه أولئك الأشخاص المُقرّبين من الموظفين الحكوميين. حصل الفقراء على أسوأ الأراضي. كالعادة».

«وهنالك أيضاً أولئك الأشخاص الموجودون في المؤسسة الدينية ممَن كانوا غير مسرورين بأن تُؤخذ منهم أرض أسرتهم».

نظر المُلّا إلى أخيه بازدراء. إن الاعتراض الصريح جداً على تخصيص الأرض هو من رجال الدين الذين استولت الحكومة على أراضي عائلاتهم. إلا أنّ هذا موضوع ثانوي بالنسبة إلى المُلّا. كانت المسألة التي تعنيه هي تلك المتعلّقة بالفقراء الذين تأثروا. وبناءً على ذلك فإن هذا الاهتمام قويم ولا يقبل الجدل. «هذه قضية تتعلّق بفساد الحكومة».

«في اعتقادي إنها قضية معقدة»، قال القاضي. «توجد عوامل كثيرة من شأنها أن...».

«إن التردد من شأنه أن يُعقّد القضايا التي يفسرها الظلم».

نقر القاضي بإصبعه حبات مسبحته بهدوء. كان يعي تماماً الممارسات غير الأخلاقية من جانب الموظفين الحكوميين إلا أنه مُجهَد بالدرجة نفسها فيما يتصل برجال الدين الناشطين الذين استولوا على القضايا الحقيقية كي يعززوا حملاتهم الشخصية العنيفة.

على مدى أشهر عدّة ناضل من أجل صياغة فهم أعمق لموضوع الأرض. كلّما يعتقد أنه توصّل إلى نتيجة، يجد حجة مُضادة. وهذه الحجج والحجج المُضادة ظلّت تتسابق في عقله، ودفعته إلى الاعتقاد بأنه لا يوجد جانب صحيح فيما يتصل بكفاح الفرد، أيّ فرد، من أجل السلطة.

شقيقه اختصر النقاش كلّه بنداء الإيمان.

الإيمان، في نظر القاضي، هو تسليم بالسيطرة، وليس ممارسة لها. ما وجده في شقيقه لم يكن إيماناً بل يقيناً، اليقين نفسه الذي شَهِده عند منصة المحكمة، سنةً إثر أخرى، رجال ونساء أثرياء وفقراء كانوا مُساقين إلى أعمالهم الوحشية بفعل قناعاتهم الراسخة.

ماذا لو كان اليقين جنوناً؟ ألن يكون عدم إطاعة ذلك الشك هو عين العقل؟ في بداية مسيرته المهنية، كانت قد أغوته القناعة المتعلّقة بإلقاء المسؤولية: مُعاقبة الأشخاص المُخطئين، العدالة تخدم أولئك الذين كانوا مُخطئين. غير أنه بمرور الأعوام، راقب فيما كانت الدعاوى القضائية المشتملة على منشقين سياسيين تُنقل بصورة عاجلة وتُؤخذ إلى المحاكم العسكرية حيث تلاشت هناك. إن ما يُسمى «تهديدات الأمن القومي»

و«الاتهامات بالخيانة» سممت قاعات محكمته. كيف يُمكن أن تكون هنالك عدالة إذا كان هنالك شخص واحد فوق القانون؟ أصبح غير متيقن من قدرته على الرؤية بوضوح. كان ينظر بعمق إلى كلّ دعوى من الدعاوى القضائية تأتي أمامه، ساعياً إلى تخفيف شعوره بالذنب بسبب عمله في هذا النظام الاستبدادي. ويا لدهشته، بدأ يرى الروح الإنسانية المُنكسرة لكلّ شخص، حياة هذا الشخص ومستقبله هو من يقرّرهما، وكان هذا الأمر يشلّه. وفي الختام لم يعد قادراً على أداء واجباته.

يرى المُلّا الشك باعتباره ضعفاً. قلّما كان قادراً على احتواء الاحتقار الذي كان يحسه تجاه شقيقه، وهو رجلٌ أُعطي كلّ فائدة من فوائد الحياة، رجلٌ تزوج من الثروة والراحة، من دون أن يعرف رعب الجوع، الانحلال، أو الاستهتار، رجلٌ وصل إلى قمة السلطة لمجرد أن يتخلّى عنها، رجلٌ من دون قناعة راسخة.

إن هذه الفجوة الكائنة بينهما جعلت حواراتهما بلا نهاية على الدوام.

***

في المطبخ، وقفت بيبي-خانوم وقمر عند كاونتر المطبخ على قِدر مليء بكتل مثلثة من جبن «ليغوان» من «شرق أذربيجان»، كانت بيبي-خانوم قد جلبته أثناء عزلتها الشتوية. وضعت قمر قطعة في فمها. «هذا كمال بكلّ معنى الكلمة. البلغاريون يستعملون كثيراً من الملح، أما اليونانيون فيستعملون مقادير قليلة جداً منه. تمكن أولئك الأتراك أخيراً من أن يفعلوا شيئاً ما بنحو صحيح».

هزت بيبي-خانوم رأسها. «قمر، لا تُميّزي في المعاملة. إنه شيءٌ مُخزٍ».

«أنا لا أُميّز، خالتي. أنا أكره الجميع». نظرت قمر خارج نافذة المطبخ إلى ابنتها. كانت نسرين قد أمسكت بمكنسة وراحت تكنس الأرضية من دون هدف.

امتصت أسنانها، إلّا أنّ بيبي-خانوم قبضت عليها من ذراعها: «دعيها تفعل ما تشاء. ألا تتذكرين كيف كان الحال؟».

«نعم، أتذكر. ولهذا السبب خرجتُ إلى هناك».

«مجيد شاب لطيف»، قالت بيبي-خانوم، وهي لا تزال مُمسكة بها.

«كيف يُمكن أن يكون نسل الأفندي صاحب ربطة العنق[1] لطيفاً؟».

تفرست فيها بيبي-خانوم مصعوقة: «هذا يكفي! شازديپور يحب الجلوس على الكراسي وتناول حلوى الشوكولاتة. هذه ليست جريمة».

«إنه متكبر ولا يُطاق!»، سحبت قمر ذراعها وغادرت المطبخ. عبر الشباك، شاهدت بيبي-خانوم ابنة أختها وهي تتجادل مع ابنتها، إلا أنّ قمر أحست أن فؤادها يؤلمها. كيف يُمكن أن تكون تعاستها لا تُحتمل؟ بحيث أنه لم يكن أمامها خيار سوى أن تبصقها على أيّ فرد يقترب كثيراً جداً منها: شازديپور، مجيد، ابنتها، زوجها، الأتراك، الأرمن، اليهود، فرنسا، أوروبا.

تحرّكت ريحٌ خفيفة بين الشجر، حجبت الأصوات المنبعثة على الأرضية وقعقعة ميرزا فيما كان يقرع سجاجيد حجرات النوم. أغمضت بيبي-خانوم عينيها، وشرعت تستمع إلى العصافير والعنادل وهي تُحدِث خشخشة في ثنايا الأشجار، ثمّ شكرت الله على حلول ربيع آخر.

***

طرق شازديپور بشدة على باب ابنه بعكازه. «تعال، مجيد!» قال، ثمّ أضاف: «لقد تأخرنا أصلاً». كان شازديپور ابن شقيقة القاضي والمُلّا والطفل الوحيد لشقيقتهما التي فارقت الحياة أثناء الوضع. كما كان أيضاً أفندي الأسرة الذي يرتدي ربطة العنق. اليوم، حاله حال معظم الأيام الأخرى، كان يلبس بذلة «الحليب والسكّر» ذات القطع الثلاث بالوردة المثبتة بعناية في طيّة صدر سترته. كان يتباهى بإخبار أيّ فرد يُمكن أن يستمع إليه أنّ بذلة «الحليب والسكّر» أتت من الكلمات الفارسة «شير و شَكَر» أو «الحليب والسُكّر». كان شديد الهزال بحيث أن البذلة نفسها تبدو عليه مثلما بدت على مشجب الملابس. كان نحوله الشديد قد جعل أنفه وحاجبيه الكثين تبدو بارزة أكثر.

1- الأفندي صاحب ربطة العنق: استعملت الكاتبة كلمة «فوكولي fokoli»، وهي صفة تعني «أفندي» أو «غندور» أو «مرتدي الملابس الأجنبية» وخاصة «مرتدي ربطة العنق»، بنحو يدل على التهكم. وكلّما ترد كلمة «أفندي» في ترجمتنا هذه لاحقاً، يكون المعنى المقصود هو هذا، أي ما تحمله الكلمة من تهكم - م.

رفع عكازه وطرق على الباب من جديد. كان العكاز من الماهوغاني[1] مزوّداً بمقبض على هيئة رأس أسد. اشتراه من كتالوغ جنتلمان إنكليزي. كان ملكيته المُثمنة، يأخذه في حلّه وترحاله، يستعمله في ضرب الأحجار بعيداً من مساره في الطرقات الريفية غير المُمهدة في نيساپور، فيما هو يغمغم همساً «بربرية».

«أنا قادم، أبي»، قال مجيد فيما هو يطوي كتابه. كانت حجرة مجيد هي نتاج الفكر القوي والهورمونات الغاضبة. غطت أكداس من الكتب جداراً كاملاً. بعض هذه الكتب كانت ذات زوايا صفحات مطوية فبدت أشبه بمنفاخ أكورديون. مزار من الصور الفوتوغرافية أُلصق على مرآته: «المشارك البطولي في حرب العصابات»[2] الشبيه بالأيقونة (نظ ي گيڤارا الثابتة أثناء نصب تذكاري لأولئك الذين قُتلوا في تفجير وكالة الاستخبارات المركزية للسفينة التجارية La Coubre في هاڤانا)[3]، محمد مُصدّق[4] مشبوب العاطفة (مدافعاً عن تأميم النفط الإيراني من [شركة النفط الإنغلو-إيرانية] في [محكمة العدل الدولية])، والجريء محمد علي كلاي (المُحاط برياضيين سود في لقاء بـ[الاتحاد الصناعي والاقتصادي الزنجي] يشرح سبب رفضه قرعة الخدمة العسكرية التي تدعوه للمشاركة في [حرب

1- الماهوغاني mahogany: خشب صلب بُني ضارب إلى الحمرة يُصنع منه الأثاث الفاخر – م.

2- المشارك البطولي في حرب العصابات: وردت بالإسبانية في النص الإنكليزي الأصل Guerrillero Heroico – م.

3- هذه السفينة التجارية فُجرت في ميناء هاڤانا، كوبا، في الرابع من آذار / مارس العام 1960، حين كانت تُفرّغ من بضائعها التي تزن 76 طناً من القنابل اليدوية والذخيرة الحربية. بلغ عدد القتلى نحو مئة شخص، وجُرح عدد أكبر منهم. اتهم فيدل كاسترو الولايات المتحدة بأنها من قامت بهذا العمل التخريبي، وسرعان ما نفته الأخيرة – م.

4- محمد مصدّق (1882–1967): رئيس وزراء إيران الأسبق، انتخب مرتين (سنة 1951 و1953). إلا أن المخابرات الأمريكية (CIA) والبريطانية (MI6) خلعته في عملية مشتركة سميت بعملية «أجاكس». سببت قراراته في تأميم شركات النفط بإزاحته في انقلاب عليه يوم التاسع عشر من آب / أغسطس 1953، بعد إجراء استفتاء مزور لحل البرلمان – م.

فيتنام]). هذا الثالوث المتفاوت -ثائر ماركسي أرجنتيني، رئيس وزراء إيراني مُحِب لوطنه، ورياضي مسلم أمريكي أسود- يجمعه شيء واحد: كان الثلاثة رجال ضمير. يتوق مجيد لأن يصبح رجلاً من هذا الطراز في هذا العالم إلا أنه لم يتخيّل بعد كيف بوسعه أن يفعل هذا. نام على سرير خفيف نقّال وفكر في شيئين لا غير، الدور الذي يمكن أن يلعبه في مستقبل بلاده وأن يكون بصحبة نسرين. كان يعرف أن كلا الأمرين مرتبط أحدهما بالآخر داخلياً ونهائياً.

والده لا مكان له في مستقبله. كان شازديپور يتوق إلى عالم يسوده النظام والكياسة، عالم مليء بالشوارع المرصوفة بكبار الحصى وقاعات طعام ذات كراسيّ مُذهّبة. كان قد شكّل حجرته وفقاً لصالون أوروبي وكان من دأبه أن يجلس في الليل على كرسيه، كرسي المنتدى[1] الجلد، مرتشفاً الكونياك ومرهِفاً السمع لحركة موسيقية بطيئة من خماسية شوبرت الوترية في C major[2]، مستذكراً تقاسيم وجه زوجته التي فارقت الحياة، وجهها الذي يحمل شبهاً لافتاً لوجه ابنهما، مجيد.

يحمل والد مجيد عكازه فيما كانا يتقدّمان عبر البستان، شازديپور يضرب الحصى بعنف ويغمغم هامساً بغضب، أما مجيد فكان يتجاهل معركة أبيه العقيمة مع الأحجار. كانت رائحة الكمثرى والكرز تختلط برائحة الغبار في الهواء. نشأ مجيد في البستان. وأثناء سنوات صباه، كان البستان هو المكان الوحيد الذي كان حراً في الطواف فيه من دون مراقبة أو قيود. نصف عار، وحيداً، وجهه مُصطبغ بعصير الفاكهة التي هزّها من الأشجار. أفلت من لسعات النحل وركض بضراوة طفل، غير واعٍ بالخدوش والجروح التي لحقت بجسمه. وقف على تلال النمل وراقب جهودها بإعجاب تام. ومن ثم، بالسهولة ذاتها، مسحها من على وجه الأرض بركلة من قدمه.

ساعده الإثم على أن يفهم غريزياً ما سيتعلّمه بنحو واعٍ لاحقاً، بأن

1- كرسي المنتدى club chair: كرسي خفيض وثير ذو ذراعين - م.

2- C major: درجة C هي اللحن الافتتاحي الأكثر شيوعاً في الموسيقى الغربية. ومعنى المصطلح كلّه: على درجة دو الكبير «ميجور»، بحسب المصطلح الموسيقي العالمي - م.

شخصية المرء تتقرر بالطريقة التي يختارها كي يستخدم السلطة التي يملكها على الآخرين.

ولمّا دخل شازديپور ومجيد المنزل، ألقت نسرين نظراتها على حبيبها وأحست بأن ضربات فؤادها تتسارع. كانت دقائقهما القليلة الأولى معاً تملؤها دوماً بالقلق. اتكأت على مدخل المطبخ فيما كان هو وشازديپور يُسلّمان على أفراد الأسرة، منتظراً أن تلتقي نظراته بنظراتها. مجيد له عينان بُنيتان. إلا أنهما ليستا كأيّ عينين بُنيتين. إذا أمعنت النظر فيهما مدةً طويلة بما يكفي، فسوف ترى جمرات عقله الداكنة منهمكة في العمل. وكانت تُطوّقهما أهداب طويلة، أهداب فتاة صغيرة إلى حدّ ما.

شعرت نسرين بضيق مفاجئ ووثبت.

«كفي عن التوقف هنا وهناك كالنعجة»، خاطبتها أمها. «اذهبي وأحضري مزيداً من الشاي».

هرعت نسرين إلى المطبخ، من دون أن تنظر إلى الوراء كي ترى ما إذا انتبه مجيد إلى ارتباكها. كان السماور يقطّر. وقفت، وهي تستشيط غضباً: لماذا أمها قاسية ومتطفلة جداً؟ لماذا تحاول أن تتحكم بكلّ لحظة صحو من لحظات حياتها، ساحقة شيئاً بهيجاً كتوّقع اللقاء بعينيْ حبيبها؟ لم تسمع وقع خطوات مجيد الرقيقة حين دخل المطبخ بغلاية الشاي الفارغة. وقف بجانبها، ومال عليها كي يصل إلى حنفية السماور. وما إن لامست ذراعه ذراعها، حتى تبدد كلّ التوتر في جسمها. عارفاً أنّ باستطاعته أن يؤثر فيها، هذا الأمر جعل مجيداً يحس أنه يحميها، بخاصة بالقرب من أسرته. كان يعتقد أنّ أسرته ليست لديها أيّ فكرة عما يجري. ولمّا انتهى من ملء غلاية الشاي، همس لها قائلاً: «مرحباً، صديقتي».

ابتسمت نسرين. هذه هي تحيته الجديدة لها، وهي تحية أعطاها إياها بعد قبلتهما الأولى، القبلة التي حصلت في غداء يوم جمعة الصيف الفائت. كانا قد سرقاها أثناء قيلولة ما بعد الظهر وسارا جنباً إلى جنب وسط الأشجار، كما كانا يفعلان ذلك دوماً، كي يتحدثا. تكلّم بإسهاب عن النظريات، وكانت نسرين تصغي إليه. لكن في ذلك اليوم بالذات

كانا يتحدثان عن الحب. كان مجيد يفكر بصوت عالٍ عن الطبيعية الزائلة للحب الرومانسي. كيف أنه حين يسقط الستار مرةً بين شخصين، تتبدد العاطفة، وكلّ ما يتبقى هو الرباط المستمر طوال أربع وعشرين ساعة، وهو رباط يكون كسرُه إما معقداً جداً أو مريحاً جداً. تحدث كم كان شيئاً خادعاً بالنسبة إلى الشعراء العظام كي يتحدثوا عن «العشق»، أو «الغرام»، لمّا لم يكن ممكناً أن يحتفظوا بشعور من هذا الطراز. وبناءً على ذلك، خلص إلى القول، إنه شيء أفضل بنحو لا نهائي أن يبقى وحيداً. لزمت نسرين الصمت لحظات قليلة، وبعدها قالت: «ربما تكون على صواب. إلا أنني أعتقد أنه لهذا السبب فإنّ «عَشِقتَم»[1] هو مصطلح أدبي، وهو مصطلح يُستعمل غالباً في الكتب. في الحياة، يقول الناس «دوستيت دَرَم»[2] أحدهم إلى الآخر، وهما كلمتان تعنيان حرفياً [إنكَ بالنسبة إليّ صديق، أو: إنكِ بالنسبة إليّ صديقة]».

فيما يتعلّق بهذه النقطة، كان لديها ببساطة شخصٌ ما تتحدث معه، شخص كان يضحك دوماً وكانت تتجادل معه كلامياً، شخصٌ ما كان يستفز رهافة لم يكن يخبرها إلا بحضور أمه. من بين الأحاسيس الكثيرة التي شعر بها لمّا قبّلها، ما برز إلى السطح هو الإحساس بالفقدان.

كَسَر صرير باب المطبخ المتأرجح الصمت لمّا دلف ميرزا. أخذ مجيد غلاية الشاي المليئة وهمس لنسرين: «إلى أن يحين وقت القيلولة».

نظرت نسرين في ما حولها، ساعيةً إلى أن تجد شيئاً تنشغل به. «سأبدأ بالسَلَطة»، قالت، وبعدها وقفت عند لوح التقطيع وبدأت تقطّع الخيار إلى مكعبات صغيرة، ثمّ أغمضت عينيها فيما هي تتخيّل اللقاء المرتقب. أمسك ميرزا بيدها وهزّها كي يوقظها من ذهولها. كانت توشك أن تقطع إصبعها

1- عَشِقتَم asheghetam: وردت بالفارسية اللفظية في النص الإنكليزي الأصل، وتعني «أنا مُغرم بك» أو «أنا مغرمة بك» (نعني بالفارسية اللفظية: طريقة نطقها وليس كتابتها، أي أنها تُكتب بأبجدية إنكليزية وليس بأبجدية فارسية وهي في الأصل أبجدية عربية مع اختلافات طفيفة) - م.

2- دوستيت دَرَم dostet daram: وردت بالفارسية اللفظية في النص الإنكليزي الأصل - م.

بالسكين. ابتسمت، ارتبكت، وعادت إلى تقطيع الخضار وعيناها مفتوحتان هذه المرة. وقف بجانبها، عند «سنك» الكاونتر، وأخذ يغسل الأعشاب. «من الأفضل دوماً أن يُبقي المرء ذهنه حاضراً»، قال. «خطوة واحدة إلى الأمام أو خطوة واحدة إلى الوراء والعالم سوف يفلت من قبضتك».

الغداء

كانت تحضيرات الغداء تجري على قدم وساق. مَدَّ ميرزا السُفرة على الأرضية خارج المنزل مباشرة. جلس القرفصاء على القماش السميك ووضع الأطباق على الحافات مع شوكة وسكين لكلّ طبق. وبعدها جلب صينية فيها إبريقا دوغ[1] وكؤوس. وضع كلّ إبريق من اللبن الرائب في الطرفين المتقابلين من السُفرة وأضاف كأساً لكلّ طبق. ابتعد مسافة قليلة ونظر، مقتنعاً بأنّ كلّ شيء في مكانه الصحيح.

كانت بيبي-خانوم ونسرين في المطبخ تُنجزان قِدراً ضخماً من الرز فيما كان جعفر يحوم في المَدخل. كانت رائحة الزعفران والزبد تنبعث عبر الهواء. ملأت بيبي-خانوم سِنك الكاونتر بالماء البارد بعمق بوصة واحدة. كانت هي ونسرين قد وضعتا قِدر الرز في السِنك وسكبت بيبي-خانوم الرز في طبق فضة كبير. ولمّا وصلت إلى القاع، وضعت طبق فضة مستديراً على القِدر والاثنتان قلبتاه ووضعتاه على الكاونتر. بيبي-خانوم سحبت بتؤدة القِدر إلى الأعلى وكشفت قشرة خارجية مستديرة تماماً، التهديغ[2]، المحترقة قليلاً بحيث أصبحت بُنية ذهبية. التهديغ هي الطعام الشهي لوجبة الأكل. لم تكن هناك كمية كافية من التهديغ وهي تجربة متوترة بالنسبة إلى سائر المنخرطين فيها لمّا تنكسر وتُوضع على الأطباق.

بعد القبلة الأولى بين نسرين ومجيد، وضعت التهديغ العائدة لها على

1- الدوغ doogh: لبن رائب فارسي لذيذ المذاق، مُتبّل بالنعناع - م.

2- « التهديغ tahdig: وردت بالفارسية اللفظية في النص الإنكليزي الأصل، وهي القشرة الخارجية في قعر قِدر الرز. تُسمى بالعامية العراقية «حِكّاكة» - م.

طبقه. وأثناء القيلولة التي أعقبت وجبة الطعام مباشرة، عاقبها على لامبالاتها فيما كانا يتبادلان القبلة.

«هل تريدين أن يعرفوا ما يجري بيننا؟».

«بالطبع لا».

«إذاً توقفي عن إعطائي التهديغ العائدة لك».

أثناء تحضير الطعام تفلسفت بيبي-خانوم فيما يتصل بالطعام مع نسرين. بوسعكِ أن تحكي كثيراً عن الأشخاص، قالت، من خلال كميات التهديغ والأجزاء التي يأخذونها منها: «الأفراد ذوو الشخصيات الهادئة، ذوو البُنيات النحيلة يأخذون دوماً قطع الحافات الذهبية الفاتحة. أما الأفراد ذوو الشخصيات التحريضية والميول النهمة فيأخذون قطع الوسط المحترقة، البُنية».

وتالياً سكبتا الحساء[1] في الأطباق. كان أحد هذه الحساءات هو «خورشته قورمه سبزي»، وهو حساء لحم الحَمل والفاصوليا المصنوعة مع البقدونس، الثوم المعمَّر، الحُلبة المقطعة إلى قطع صغيرة جداً وليمونات يابسة كاملة[2]. الكُركم يخفف رائحة الليمون المُرة ولحم الحَمل والفاصوليا يُعطيان للحساء لونهما الترابي وعمق النكهة. أما الحساء الثاني فهو «خورشته بادميجان» المصنوع مع الباذنجان ولحم الحَمل بأساس الطماطم مع العنب الحامض والقرفة القوية، زكية الرائحة.

كان يحلو لبيبي-خانوم أن تتكلّم مع نسرين خلال إعدادهما الطعام. شرحت لها كيف أنّ بعض الأطعمة، مثل الخيار، البطيخ الأحمر، النعناع في الماء الساخن، الباذنجان، والفجل، تُبرّد الجسم، وتبطئ وظائفه. في حين

1- الحساء أو المرق أو خورشت khoresht: وردت بالفارسية اللفظية في النص الإنكليزي الأصل. تُكتب أحياناً «خورش» - م.

2- ليمونات يابسة كاملة dried whole lemons: المقصود هنا ما يسميه العراقيون «نومي بصرة». وهي ليمونات سوداء اللون فقدت محتواها من الماء، بأن قضت أغلب وقت تجفيفها في الشمس، تُستعمل كثيراً في المطبخ العراقي. تُستعمل أحياناً وهي كاملة، أو مُقطّعة أو مطحونة في أطباق بلدان الشرق الأوسط. كما يُمكن عمل العصير من «نومي بصرة» - م.

أنّ الأطعمة الأخرى، مثل الثوم، الأبصال، الجوز، لحم الضأن، والقرفة، تدفئ الجسم وتحفز وظائفه. إذا ما عرفتِ هذه الصفات، قالت لها، فإنكِ تعرفين جسمكِ.

الطهي الفارسي، بحسب بيبي-خانوم، هو دراسة في التوازن، تفاوض عميق بين النكهات المتناقضة التي وجدت بشكلٍ من الأشكال طريقاً للتعايش من دون أن تهزم إحداها الأخرى. إن الطعم اللاذع للفاكهة يعالجه العبير اللطيف للزعفران، الكُركم، والقُرفة. وفاقٌ كامل بين ما هو ذكوري وأنثوي، وفاق كامل بين الشعر والنثر، وفاقٌ كامل بين الدنيوي والصوفي.

أطلقت تنهيدة ومسحت يديها بخرقة الأطباق. كانت محاضرة الطعام قد أرهقتها أكثر من تحضيره. إن التكلّم يتطلّب الحيوية التي يخلقها العمل. مدّت يدها وربتت على وجنة الشابة. استدارت نسرين وحدّقت فيها بخجل. كانت هذه الإيماءة مقويّاً لانتقاد أمها لها.

تسلل جعفر إلى المطبخ سراً. كان الشطر المفضل له من وجبة الطعام، «الكباب المقلي»[1]، وقد جرى هذا قبل موعد وجبة الطعام. وقف في المدخل وراح يحدّق في أمه إلى أن انتبهت إليه. أخذت بيبي-خانوم ملء ملعقة من «حساء الخضار واللحم»[2] واستخدمت يدها كي تمزجها مع الفتات المتبقي من التهديغ في قعر القِدر. كان جعفر يهمهم فيما هو ينتظر، داعكاً بطنه، متوقّعاً الكباب المقلي. انحنت بيبي-خانوم ودفعت كتلة كبيرة، لذيذة الطعم في داخل فمه بأصابعها. ثم أعدت طبقاً من الرز، المرق، وقطعة من التهديغ، والباذنجان المُخلّل، الذي غطته بقطعة قماش وسلّمته إلى جعفر: «خذ هذا الطبق إلى القابلة وارجع فوراً إلى غدائك».

تجمعت الأسرة حول السُفرة وانتظرت القاضي بهدوء. وما إن جلس، حتى خشخشت الأواني الفضية مع الأطباق، ومُررت الصحائف. لم يكن

1- الكباب المقلي أو اللقمه the loghmeh: وردت بالفارسية اللفظية في النص الإنكليزي الأصل - م.

2- حساء الخضار واللحم أو قورمه سبزي ghormeh sabzi: وردت بالفارسية اللفظية في النص الإنكليزي الأصل - م.

بمستطاع المُلّا أن يُبعد الإحباط من على وجهه. قبل لحظات قليلة لا غير، حين جلس، ما من أحد حرّك ساكناً كي يباشر بتناول الطعام. قلّما يُشكر على حضوره. وكان هو أكبرهم سناً.

غطست قمر في عباءتها وعلى وجهها لاح تعبير متجهم فيما كان زوجها يكدّس الرز على طبقها. لاحقاً أنبته لأنه بالغ في كمية الطعام الذي قدّمه لها، رغم أنها هي من طالبت بذلك: «إنك تحاول دوماً أن تجعلني سمينة».

خدمت نسرين نفسها بأقل ما يُمكن من الحصص، الأمر الذي لم تغفل عنه أمها. «لماذا لا تأكلين شيئاً ما؟ إنك تأكلين كالبقرة في المنزل».

أرسلت نسرين نظرة إلى أمها تجعل الثور يذوي واندفعت بعيداً إلى أعماق عقلها. قضت وقتاً طويلاً هناك. رسمت سيناريوهات للطرائق التي تقتل فيها أمها في الحمام. باستطاعتها أن تُمسك برأس أمها في حوض الماء وتُغرقها. أثناء قيلولة ما بعد الظهر، كان بوسعها أن تضرب بعنف خلية النحل في الشجرة وتدع النحل يفترسها، وفي الختام سوف تكون نسرين حرّة، سوف تظل صاحية بعد منتصف الليل وتُعلّي صوت موسيقاها وتنام في فراشها مع مجيد. هذه الفكرة الأخيرة جعلتها تبتسم فيما هي تسكب كمية أخرى من الرز.

تململ شازديپور، محاولاً أن يجد وضعاً مُريحاً. كان يكره الجلوس على الأرض. كان ينتقي قطعة واحدة من اللحم من المرق في كلّ مرة، وبعدها يُضيف قليلاً من الخضار، ثم يُتم الطبق بمغرفة من الرز وبعض الأعشاب التي قطعها إلى مكعبات صغيرة على حافته. همست قمر لزوجها: «الأفندي صاحب ربطة العنق يتغذى بشريحة لحم بقري مع ملكة بريطانيا».

كان مجيد يجلس دوماً بجوار القاضي وينتهز الفرصة كي يتكلّم عن أحدث كتبه، إلا أنه هادئٌ اليوم بنحو غير مألوف. تفحص القاضي وجهه. «ماذا كنتَ تقرأ؟».

«كنا نقرأ توأ[بستان الكرز] من تأليف تشيخوف في درسنا، درس الأدب».

«ما رأيك بهذه المسرحية؟».

«كانت مناقشتنا بشأنها في درس السيد مُعيني عميقة جداً. أشياء كثيرة جداً مما يحصل من حولنا هنا في هذه المسرحية».

خفض مجيد بصره ناظراً إلى طعامه ودفعه بحركة مستديرة بشوكته: «ما الذي يضايقك؟».

مال مجيد نحو القاضي وهمس قائلاً: «في الأمس لمّا ذهبنا إلى درس السيد معيني لم يكن هناك. كان رجال البوليس السري قد قبضوا عليه وأخذوه. يقولون إنه كان يوزع منشورات دعائية شيوعية. ما علاقة تشيخوف بالشيوعيين السوفييت؟».

«تشيخوف كاتب روسي. وهذا الموضوع كانوا يفكرون فيه كثيراً فيما هم يُعطون المادة»».

«ما الشيء الذي يخافون منه؟».

«الأشخاص الذين في السلطة يخافون دوماً من فقدانها، مجيد. إلا أنّ المسرحية هي إيحاء. شاهدتُها وهي تُمثل في العاصمة قبل سنوات طوال خلت».

«أجل. لقد أذهلتني المسرحية. بمستطاع البشر أن يكونوا مُحبَطين جداً. الخيارات التي ينتقونها. الأشياء التي لا يقومون بها. كما لو أنّ امتيازهم يُنتج الكسل».

لاحت بسمة تنم عن البهجة الخالصة على وجه القاضي فيما هو يستمع إليه. بالنسبة إلى رجل لا يتجاوز عمره ثمانية عشر عاماً كان مجيد يفكر بجاذبية وفرق دقيق. هذا الأمر منح حضوره صفة كئيبة كانت مُريحة بنحو غريب.

توقف مجيد عن الكلام وأغمض عينيه نصف إغماضة. كان باستطاعته أن يسمع صرير الأواني الفضية والأصوات البشرية من حوله والريح وهي تتحرك بين الأشجار. فكّر في المسرحية التي يُقطّع فيها بُستان إلى قطع صغيرة من أجل المنفعة القصوى. التفت إلى القاضي: «لا يُمكنني أن أتخيّل هذا المكان من دون أن أكون هنا».

إن الشخص الوحيد الذي تغيّب عن الغداء هو شقيق مجيد، جمشيد، الذي كان يكبره سناً بعامين. ومثله مثل مجيد، كان طويل القامة، لكنّه قوي وممتلئ الجسم وذو شخصية غير مألوفة. كان جذاباً وذكياً، ذا صوت عال

ودوماً على حافة الضحك. لكن كان يبعد عن تجمعات الأسرة بسبب إدمانه الأفيون. كان الإدمان قد تسبّب بإحداث شرخ في العائلة، وهو شيء كان يستشعره الجميع إنما لا أحدَ يُشير إليه. في مناسبات كثيرة كان القاضي يحاول أن يتدّخل نيابة عن جمشيد. حاول أن يساعده في التغلّب عن إدمانه، إلّا أنّ جهوده باءت بالفشل. بالنسبة إلى شازديپور، إن فقدان ابنه المنزلة الاجتماعية وهو شيء شائع جداً، مُقرناً بما رآه بوصفه شخصية بليدة، جعله غير قادر على الشعور بأيّ شيء باستثناء العار والاحتقار تجاه جمشيد. التظاهر بأنه غير موجود بدا أشبه بالحلّ الأكثر تحضراً.

فيما كانت وجبة الطعام تقترب من النهاية شاهد شازديپور القاضي يُومئ إلى ميرزا ويهمس له. إنه يعرف على وجه الدقة ماذا كان يجري، لأنه يجري في كلّ جمعة. القاضي أبلغ ميرزا بهدوء بأن يحضر طبق طعام لجمشيد، وهذا الطبق سوف يأخذه مجيد إليه.

كان جمشيد يجلس مستنداً إلى السور خارج البستان. كان قد أومأ برأسه، منتظراً شقيقه. لم تكن لديه رغبة بالطعام أو العائلة بسبب تلك القضية. في حقيقة الأمر، هو لا يقدر أن يتذكر آخر مرة أراد شيئاً ما. ببساطة لقد ظهر على خلاف عادته. «هذا هو جمال الأفيون»، قال ذات مرة لشقيقه. «إنه ينتزع كلّ شيء».

***

كان مجيد قد تعلّم أشياء كثيرة من جمشيد. الأخير هو الذي علّمه كيف يقرأ. في الواقع، سائر الكتب في حجرة مجيد تعود لشقيقه. غير أنّ جمشيد كان قادراً على أن يطلق العنان لأهوائه بطريقة لا يقدر عليها مجيد. كان قد قضى أعوام شبابه كلّها في مشكلة مع أبيه، مع الأكبر منه سناً، مع السلطات المحلية، والنساء. كان مجيد يندهش من قدرته على أن يكون متهوراً وكان يتمنى أن يحاكي هذا السلوك، إلا أنّ التفكير والعاقبة كانا يعذبانه.

كان جمشيد يقود السيارة بسرعة، يشرب الكحول بإفراط، وكانت لديه شخصية ساحرة تجذب الناس إليه. قبل وفاة أمهما، كان سلوكه المتفاخر يجعل أكثر الأنشطة بساطةً تبدو مثيرة. كان بمستطاعه أن يبدد أيّ موقف

متوتر بإشارة ساخرة وأن يقطر أيّ حجة إلى جزئها المقوّم المُضحِك جداً، وهكذا يُنهيها. لا شيءَ مُقدّساً بالنسبة إليه. لم يكن يأخذ أيّ شيء على مَحمل الجد، واستناداً إلى ذلك لم يكن بالمستطاع تحريك مشاعره.

إن هبوطه إلى سديم الأفيون هو الانفصال الأخير. بدأ يختفي طوال أيام عدّة. ولما يرجع، كان يجلب حمل أذرع من الهدايا لأفراد أسرته، يكسو أمه بأنسجة جميلة ويحمل عالياً أقراط ذهب لامعة إلى أذنيها. كان يرمي كتباً مُحرّمة في حضن مجيد، هامساً له: «هذا الكتاب سيسبّب لك الأرق بضع ليالٍ»، وكان يُسلّم والده زجاجات من أجود أنواع الكونياك، وكان شازديبور يتقبلها لكنه لا يشربها البتة. كان يروي نكاتاً فاجرة وقصصاً همجية تتعلّق بمغامراته، كلّ قصّة غير قابلة للتصديق أكثر من غيرها.

في ليلة من الليالي، خلال شهر مُحرّم، في طريقه إلى منزل أحد أصدقائه من أجل حضور تجمع ما، كان قد صادفه موكب من مواكب عشية عاشوراء، حيث كانوا يحيون موت الإمام الحسين في سهول كربلاء الصحراوية. لم يكن باستطاعته أن يجتاز الشارع لذلك بدأ يمشي مع الناس، يضرب صدره بقوة ويهتف معهم، رغم أنّ بحوزته قنينة فودكا مُخبأة في داخل سترته. كان الخوف من أن يقبضوا عليه وهو يحوز الكحول قد دفعه إلى أن يهتف ويمشي في الموكب بحماسة تفوق حماسة أكثر المؤمنين وَرَعاً. وفي اللحظة التي رأى فيها فرصة للهرب من الموكب دخل بسرعة شديدة إلى أحد الأزقة ويمّم وجهه شطر منزل صديقه، واستعاد حيويته بفعل التجربة غير المتوقعة الشبيهة بالنشوة. كانت أمه تُخدَع بقصصه على الدوام. شازديبور يشعر بالارتباك منها. أما مجيد فكان يشعر بالسعادة لدى سماعها.

ذات مساء، أتى جمشيد منطلقاً بسرعة فائقة ودخل المنزل، لاهثاً، وثمة نظرة شاذة في عينيه. في تلك المرحلة، كان مرض أمه قد كسر معنوياتها وكانت مستلقية على الكنبة، هشة، وقانطة. كان شازديبور ومجيد جالسين بجوارها بصمت. سار جمشيد إليها مباشرة وأخذها بقوة بين ذراعيه. أخذها إلى الخارج، الأمر الذي قوبل باعتراضات كبيرة من جانب أبيه. «أترين تلك أماه؟ إنها دراجة نارية».

إنها من نوع سوزوكي GT750 ذات تركيبة ألواح زرقاء ملكية ومقعد جلدي أسود مُغبر جرّاء الطريق. اتكأت على ابنها وحشدت ابتسامة ضعيفة. رفعها وأجلسها في الأمام وانطلق بالدراجة النارية قبل أن يتمكن أبوه من إيقافهما. ركبا بالدراجة وقطعا الطرقات القذرة واجتازا ساحة المدينة. توقف الناس وراحوا ينظرون إلى أمه العليلة، الملتفة بالعباءة. غيّر اتجاهه نحو الكثبان الرملية لـ «نيساپور القديمة»، المهجورة منذ غزو جنكيز خان. وسارا بسرعة على طول المدينة العتيقة فيما كانت الشمس تأفل. سحبت أمه عباءتها عن رأسها، ومالت إلى الخلف وباتت في حضن جمشيد، وسمحت للريح بأن تهب عبر شعرها.

فارقت الحياة بعدها بيومين، لمّا كانت تتخذ من حضن زوجها مَهداً لها، فيما كان ابناها يُمسكان بيديها. حين ملأ الماء رئتيها، وأجبرها على أن تزفر نَفَسها الأخير، عرف الرجال الثلاثة أنّ ما جمعهم قد انكسر. لا شيءَ يُمكن أن يبقى على حاله مجدداً.

***

جلس مجيد مستنداً إلى السور لصق شقيقه. وضع طبق الطعام أمامه وراح جمشيد يحرّك الطعام بحركة مستديرة في الطبق بشوكة، إلا أنه لم يتناول لقمة واحدة. «كيف هو مسيو شازديپور؟».

«غيّر ماء الكولونيا العائد له من راڤِل إلى أراميس».

«هل ما يزال يستحم به؟».

«باستطاعتي أن أشمّه[1] من حجرتي».

قهقه الشقيقان معاً، وكانت أكتافهما تصطدم. ثم توقفت اللحظة تدريجياً. لزما الصمت من جديد. شاهد مجيد شقيقه جمشيد يحرّك طعامه بحركة مستديرة بنحو أكثر. كلّما يرى شقيقه يحس بأنه يتجدد وأنه متململ. كما لو أنّ ثمة شيئاً أضاع فرصة القيام به. أبعده خَدَر حياته الرومانسي في المنزل عن الأشياء ذات الأهمية الحقيقية. نكز جمشيد. «هل كنتَ في العاصمة؟».

1- أشمه smell him: هنا نعني أنه يشم شازديپور وليس ماء الكولولونيا - م.

«أجل».

«وماذا بشأنها؟».

«تبلغ مرحلة الأزمة. باستطاعتك أن تحس بذلك في شوارعها. في المباني التي تضم مهاجع الطلبة الداخليين. يتعين عليك أن ترى الطلبة وهم يحتشدون هنا وهناك بإصرار».

كان جمشيد يمضي أسابيع عدّة من الشهر في العاصمة يبيع الأفيون للطلبة. كانت تلك هي طريقته في الإبقاء على عادته شائعة. ما إن يتم استبدال العقاقير والنقود بهدوء، حتى يُدعى لشرب الشاي، ولمّا يتلاشى في الخلفية، ينساه الفتيان ويستأنفون نقاشاتهم عن المخاض المُرتَقب. وجد شغفهم غريباً وعقيماً بكلّ معنى الكلمة. كان يبتسم لمّا كانوا يتحدّثون عن الظلم، الفقر، القمع السياسي، والتقدّم الإجباري. كان يومئ برأسه علامة الموافقة حين يتحدّثون عن الأمية، عن الأراضي المفقودة، والفساد المستشري، وعن حكومةٍ جرّت أبناءَها الحائرين إلى جيل «غربيّ»، إلى بلدٍ يقف حاملاً إمبراطورية ميتة على ظهره.

«إنهم فتيان حمقى»، قال، وهو يهز رأسه. «لا أحدَ من الأحزاب قوياً بما يكفي كي يحل محل المَلَكية. كلّ حزب يناصب الحزب الآخر العداء والكراهية. ألا ترى العُقم؟».

«الاضطراب لا يتعلّق بالأحزاب، جمشيد. إنه يتعلّق بالعدالة الاجتماعية والمساواة الاقتصادية».

«لا تكن وجدانياً جداً، مجيد. هنالك بُنيتان راسختان للسلطة في هذا البلد: المَلَكية والسلطة الدينية. حتى هؤلاء هم بيادق ضعيفة».

«يا إلهي، جمشيد. إنك رجل ساخر بامتياز».

«لا، أخي. أنا رجل واقعي. لسنا أكثر من بلدٍ وحّده الشعراءُ الموتى والطغاةُ الأحياء».

لزم الشقيقان الصمت. التقط جمشيد قطعة من التهديغ وقضمها. غطى الزبد لسانه كالطبقة الرقيقة جداً. أسقط بقيتها على طبقه وأزاحها جانباً، تناول سجائره من جيب جاكتته المصنوعة من قماش قطني متين. أعطى واحدة إلى مجيد وأخذ واحدة لنفسه، أشعل سيجارة شقيقه أولاً.

مجيد لم يكن مُدخناً لكنّه دوماً يأخذ سيجارة من جمشيد. كان يحلو له أن يصنع الحلقات من خلال الضرب على خده، وحاله حال غير المدخنين، حمل السيجارة بأطراف أصابعه. أما جمشيد فأمسك بها بين سبابته ووسطاه بواسطة مفاصل الإصبعين. كلاهما استند إلى السور. كان دخان سيجارة جمشيد يدخل إلى حلقات مجيد، ومن ثم يطفو بعيداً ويتبدد تماماً. مال مجيد نحو شقيقه. «أتتذكر تلك السجادة في غرفة المعيشة، تلك السجادة التي ورثناها من خال أبينا؟».

«أجل. كان أبونا يفتخر بها كثيراً. وكان على الدوام يُخبر الجميع بأنها من الحرير الذي تمت خياطته باليد».

«لما بدأتَ بالانتظام في المدرسة، تعوّدتُ أن أجلس على تلك السجادة وأنظر إلى الألوان المتكررة على مدى ساعات. النقش النافر في الوسط مربع الشكل مدعوماً بنسيج صوفي مزركش بالرسوم، وتعلوه دائرتان. إذا جلستَ في الوسط على الرسم النافر وقطعتَ طريقك ببطء وصعوبة إلى الخارج، سترى أنّ كلّ الأشكال الهندسية تنسجم مع تلك الرسوم المتكررة الثلاثة. حتى إذا أصبحت أصغر فأصغر. كلّ دائرة تقلب الاتجاهات إلا أنها لا تزال تُقيم علاقة متبادلة مع المربع الذي في الوسط، النسيج الصوفي المزركش والدائرتين. ولا يتداعى النقش إلا حين تصل إلى الحافة».

«وأنا الشخص الذي يدخن الأفيون». أمسك جمشيد السيجارة بأسنانه وزحلق ذراعه حول رقبة شقيقه.

«مجيد، إن الحياة الواقعية ليست أنيقة ولا متوازنة. ليس ثمة نماذج تُحتذى. باستطاعتك أن تفكر بميزتنا القومية بقدر ما تشاء لكنك حين ترى العالَم كما هو، ستجد أن لا مكانَ لك فيه».

«هل هذا هو هدف الأفيون؟ مكانٌ في العالَم؟».

«لا، أخي. إنه طريق للخروج منه».

القيلولة

بعد الغداء، مدّ ميرزا بساطاً ضخماً كان ملفوفاً على الأرضية[1] حيث كانت الأسرة قد فرغت تواً من تناول الغداء. على خلاف سجاجيد المنزل، لم يكن البساط يحتوي على نسيج وَبَر أو تصاميم معقدة، إلا أنه يحتوي على نماذج قَبَلية قاتمة ومتفاوتة. طرح وسادة وثنى ملاءة لكلّ شخص ينام القيلولة. في الداخل، كان الرجال قد غيّروا ثيابهم وارتدوا السروال الكوردي. ورغم أن شازديبور كان يستمتع براحة السراويل، إلّا أنّ لارسميتَها تُثير أعصابه. اندس محمد في سرواله وعلى وجهه لاح تعبير بالارتياح، وسخر مجيد من جعفر لأنه سحب سرواله عالياً إلى صدره.

كان استعداد المُلّا للقيلولة رسمياً أكثر بكثير. كان قد خلع ثيابه في غرفة منفصلة كي يحافظ على الخصوصية وعلى شعور باللياقة يناسب منزلته الاجتماعية. في أول الأمر، خلع عباءته وطواها بعناية ووضعها على السجادة. وبعدها خلع رداءه الطويل الشبيه بالجلباب[2] وطواه أيضاً. ومن ثم خلع عمامته ووضعها على ملابسه، وترك الطاقية على قمة رأسه. شق طريقه صوب المنصة بسرواله وقميصه الأبيض الذي يصل إلى مستوى الركبتين كالذي يلبسه أولئك الشهداء.

كان القاضي يختفي دوماً أثناء القيلولة. لا أحدَ يعرف إلى أين يمضي باستثناء بيبي-خانوم. ما إن انتهت وجبة الغداء حتى اغتسل وسار وحده

1- الأرضية deck: رقعة مُسطحة ومرصوفة من الأرض من دون سقف ملاصقة للمنزل - م.

2- رداءه الطويل الشبيه بالجلباب: استعملت الكاتبة اسم «قبا ghaba» العربيّة، لكننا آثرنا أن نشرحها كما في المتن أعلاه. وهذا الرداء يُلبس فوق الثياب، ويُسمى بالدارجة العراقية: «الجُبّة» أو «الصاية» - م.

مسافة طويلة على الطريق الترابي المؤدي إلى الكثبان الرملية. وجد صخرة كي يستريح عليها، أغمض عينيه، وحدّق في الشمس. كان ذلك بطريقته الخاصة نوعاً من النوم.

تجمعت الأسرة على المنصة[1]، منتظرين بدء القيلولة. اتخذ محمد مكانه على حافة البساط كي يكون بمستطاعه أن يشيح رأسه عن الجميع، وبخاصة زوجته. كان قد عاش حياة مدروسة، موزعة بكمية صغيرة في كلّ مرة على إنسان آخر. بالنسبة إلى سائر الأشخاص المحيطين به، بدت أشبه بحياة العبودية، حياة الأسر في ظل امرأة مُستبدة تتحكم بكلّ لحظة من لحظات وجوده، باستثناء نومه. إلا أنه لم يسبق له أن عرف هكذا حياة. قبل قمر، عاش مع أُم كانت تُدير أسرتها كما لو كانت تُدير سجناً عسكرياً: الأيام كلّها ذات مواعيد مُحددة، الواجبات مُوزعة بحسب عمر وجنس كلّ صبي أو بنت، الانحرافات يتم التعامل معها بقسوة وبسرعة. في رأيه، الحياة مع قمر كانت استمراراً للحياة المألوفة، ووهبته شعوراً بالبقاء يتوق إليه البشر جميعاً، غالباً على حساب سعادتهم.

كانت حياته الخيالية قضية مختلفة تماماً. كان وقت القيلولة يسمح له بأن يضع رأسه على وسادة وينزلق بعيداً نحو أحلامه؛ وهذه كلّها تتعلّق بامرأة واحدة. امرأة رآها ذات مرة حين كان فتى صغيراً، في اليوم الذي أخذته فيه أمه إلى الحمام العمومي. جلس هناك، بجوار أمه، وشاهد تلك المرأة تغسل شعرها. وفيما كانت متدثرة بقماش كتان، جثت بجوار المسبح وسكبت ملء طاسات من الماء على رأسها. عصرت برفق الماء الزائد، وبعدها قذفت رأسها إلى الوراء ورفعت بصرها ناظرة إلى المَنور. رأى وجهها أخيراً والضوء والدفء المنبعثين منه.

وبمرور الأعوام، شيّد حياة خيالية مع هذه المرأة. غازلها، تزوج منها، حملت أطفاله في أحشائها. تشاجرا وضحكا معاً، تطارحا الغرام وكسرا رغيف الخبز. كان يعرف كلّ تقاسيم وجهها وتعاريج جسمها. هَرمت معه –

1– المنصة platform: استعملت الكاتبة أحياناً كلمة «المنصة» وتعني بها «الأرضية»، التي أشرنا إليها آنفاً – م.

وكانت تغدو دوماً أجمل. رتب منزلاً وزينت هي جميع حجراته بالسجاجيد الجميلة من الحرير المُحاك ووسائد الأرض المطرزة بوفرة التي انتشرت هنا وهناك للضيوف. كان قد أعطى نفسه مهنة نبيلة مثل أن يكون قاضياً أو طبيباً، وهذه المهنة منحته منزلة لائقة في المجتمع. كان قادراً على أن يزوّدها بأبهى الملابس ومن أجلها احتفظت بقوامها الرشيق. كان ولداهما على الدوام نظيفين وحَسني السلوك، وكانت زوجته شغوفة به وتحقق كلّ رغبة من رغباته. حين يضع محمد رأسه على أيّ وسادة، تلوح بسمةٌ على وجهه ويُهيمن عليه الهدوء وراحة البال، لأنه يكاد يرى زوجته الجميلة، الوديعة، العطوفة.

كانت زوجة محمد الحقيقية تقضي الدقائق القليلة الأولى من القيلولة تطالب بحقها في أن تفسح لها مكاناً على البساط. في رأي قمر، نوم القيلولة هو رياضة ذات تماس كامل بين اللاعبين. وما إن تعيّن موقعاً لها حتى تركز على أن تغفو بأسرع ما يُمكن من خلال تكرار مقاطع ملاحظات رسخت في بالها، مثل «ذلك الجبن لذيذ جداً» أو «جعفر غلام غريب الأطوار» أو «مجيد يغدو أكثر سمرة». إذا كانت ثمة شيء تخشاه، فهو أن تكون وحيدة في الاستبطان.

رقدت نسرين بجوار أمها، من دون أن تُبالي بركلاتها ودفعاتها المتواصلة. أغمضت عينيها وركزت على الرائحة المميزة جداً لبشرة مجيد. كانت رائحة بدائية وعضوية أشبه برائحة المطر الغزير على الصخور الصلبة.

كان شازديپور على مبعدة مسافة آمنة، محتشمة. كان يستلقي على ظهره مُحدّقاً في السماء. في رأيه، نوم القيلولة هو إذلال آخر ينتمي للعالَم الثالث يتعين عليه أن يكابده. كان يمضي إلى المشتريات المستقبلية التي كان يُخطط لها من كتالوغ الجنتلمان الإنكليزي. كان يحدّق في منفضة من الزجاج الكهرماني، على الرغم من أنه لا يدخن السجائر. وبجانبه كان مجيد الذي أجبر جعفر على الاستلقاء بجانب المُلّا. كان الوضع هكذا على الدوام. جعفر ينظر إلى مجيد بعينين مستديرتين عاطفيتين، قلقاً أصلاً فيما يتعلق بنزوع المُلّا إلى إطلاق الريح أثناء نومه، ريح قوية بما يكفي كي تُسكت حياة أصلب الرجال، فما بالك بغلام صغير؟

كان موضوع الجهاز الهضمي للمُلاّ هو نتيجة الحساسية المفرطة للألبان،

الأمر الذي لن يكون موضوعاً لو أنه عمد إلى الاعتدال في الأكل. وعلى الرغم من ذلك في كلّ وجبة غداء كان يلتهم طاساً كاملاً من اللبن الرائب مع السبانخ المقلي بسرعة في قليل من الدهن، البصل المُسمّر، والكركم. كان جعفر المسكين يُدمَّر تماماً في أعقاب ذلك.

نظر مجيد إلى الفتى البائس وهمس قائلاً: «تذكر فقط بأنك في يومٍ ما سوف تكون قادراً على أن تضرط على شخص آخر».

الطعام حفّز النوم في الجميع حالاً، باستثناء مجيد ونسرين. تسللا خارج كدس الأجساد وشقا طريقيهما سائرين على أطراف أصابعهما وتغلغلا في ثنايا أشجار الكَرَز الكثيفة. العلاقة الغرامية كلّها بدت مُفرِحة وخطِرة. كلّما يلتقيان تبدو هذه العلاقة مُلحّة بنحو جامح.

مرَّ عام تقريباً منذ أن أصبحت علاقتهما جنسية. كانت قبلتهما البريئة الأولى التي أخذتهما من الصداقة إلى التغزل، قد أعقبها ما بعد ظهيرة، حين افترس كلّ واحد منهما عنق الآخر. وفيما بعد أخفت نسرين علامات حب مجيد بوشاح شيفون. لاحقاً، عرّى مجيد نهديها. وبعدها، لم يمر وقت طويل حتى تعرّيا معاً والتحما، وكلّ واحد منهما راح يتلّمس طريقه خلال فعل كان فطرياً ومكتسباً في الوقت نفسه، وفي بعض الأحيان كان هزلياً وغير بارع. وحالياً، أصبحت علاقتهما أخيراً تحريراً.

بعد يوم المواعدة، آوى مجيد رأسه بين نهديْ نسرين. ومن ثم غطّ في النوم فيما هي تربت على شعره وترنو ببصرها إلى شجرة الكَرَز السوداء، أخفت أغصانها أجمةٌ من الأوراق البيضاوية التي تغلّف عناقيد الفاكهة الداكنة. كانت الريح قد سمحت لقطع من نور الشمس الدافئ أن تخترقها بين الفينة والفينة.

كانت الشمس في أعلى نقاطها وأثرت تأثيراً عميقاً في السماء. الصراصير، الزنابير، النحل تنشد حولهما من الجهات كلّها، بـ«زززز» مستمرة كانت تتأرجح بين نبرة ناعمة ودندنة رهبانية تصم الآذان. بعينين شبه مغمضتين، سمحت نسرين لنفسها أن تهوي في نشوتها، واعيةً دوماً أنها لا تستطيع أن تدع نفسها تستسلم للنوم.

أيقظته بقبلة رقيقة على جبينه. تدحرج على ظهره وراح ينظر معها إلى أعالي الأشجار التي كانت أشبه بظُلّة. ضغطت على يده واستدارت نحوه: «دعنا نخرج من هنا».

«حالياً؟ لدينا مزيد من الوقت».

«لا. أعني خارج هذا المكان. دعنا نذهب إلى العاصمة. أيّ مكان عدا هذا».

التفت كي ينظر إليها. كاد وجهاهما أن يتلامسا. رأى اليأس في عينيها. «نسرين، إذا تمكنت أمك من الوصول إليكِ هنا، فبوسعها أن تصل إليكِ في أيّ مكان».

جلست نسرين منتصبة في السرير وراحت تزرر فستانها. «هذا هو الأمر إذاً؟ سوف نبقى هنا ونذبل مثل أبوينا ووالدتينا؟». استدركت والتفتت إليه. «أنا متأسفة. لم أكن أعني أمك».

«لا بأس. لكننا إذا غادرنا، فيجب أن تكون مغادرتنا من أجل شيء أفضل. ليس فقط كي نبتعد عن شيء لا يُطاق».

«أمي امرأة قاسية. كلّ يوم تغدو أسوأ. إن الوقت الوحيد الذي أنعمُ فيه بالهدوء وراحة البال هو حين أكون في غرفتي أو معك. أنوي الذهاب إلى العاصمة وأحاول الانضمام إلى فرقة مسرحية. ربما أعمل في كشك التذاكر، ثم أرتقي خشبة المسرح. أتلّقى دروساً. أحصل على شقة. أقابل الأصدقاء في المقهى. أتحدث معهم عن الأشياء التي تنال اهتمامي. أضحك بصوت عال كما يحلو لي. أنام على سرير حقيقي معك».

جلس مجيد منتصباً في السرير الآن، ولم يعد يصغي إلى ابتهال رغباتها، إلا أنه راح يشاهد دموعها وهي تنسكب على وجهها.

«ليست لديّ حياة، مجيد. وأُريد حياة. معك».

جرّها إلى الأعلى، وأحاط وجهها بكفيه كما الكوب فيما كان يتكلّم معها. «أعرف ماذا تواجهين من محن. أنا أفهم كم هو صعبٌ الأمر عليك. إلا أنكِ أكثر حيوية من أيّ شخص أعرفه، وإذا ما تعين علينا أن نمضي إلى مكان آخر لمجرد أن يكون بوسعكِ أن تري ما رأيتُه أنا أصلاً فيكِ، عندئذ أعدكِ، سوف نفعل ذلك».

مسحت نسرين دموعها وابتسمت.

بدآ مسيرتهما عائدين نحو المنزل جنباً إلى جنب. ولمّا كانا يهمّان بالخروج من صف الأشجار، استدار كي يواجهها. كانا واقفين هناك في صمت، كلّ واحد منهما ينظر إلى الآخر. قبّلها في جبينها، وراقبها وهي تعود ماشية إلى القيلولة، وبعدها مشى نحو ميرزا.

كان ميرزا يسكن في كوخ صغير في البستان، بناه بنفسه بالقرب من المَدخل. كان الكوخ حجرة واحدة ذات باب واحد ونافذة واحدة. كان الديكور متقشفاً. وكان العنصر الأبرز هو سجادة أعطته إياها بيبي-خانوم باعتبارها هدية الانتقال إلى منزل جديد. كان يتناول وجبات طعامه على السجادة وينام عليها أيضاً.

حين وصل مجيد إلى الكوخ، رأى الباب مفتوحاً. كان ميرزا مشغولاً في الزاوية يعبث بحنفية برميل من خشب البلوط. تحرك بسرعة من حوله وفي يده كوب، ثمّ هتف لمّا سمع مجيداً يقترب من الكوخ: «عصير طبي؟».

أطلق مجيد ضحكة قوية. «بالطبع».

تناول الكوب وجلس على السجادة فيما كان ميرزا يملأ كوبه هو ويتخذ مكانه بجواره. تأمل ميرزا وجه مجيد. أحس بالسعادة الغامرة حين شاهد الوجه المحمر والشعر المبعثر لشاب عاشق ومُفعم بالرغبة الجنسية. رفع كوبه إلى مجيد وشرب نخب صحته كما تعوّد أن يفعل، مع رباعية من «رباعيات» عمر الخيام. «تعال، املأ الكأس، وفي نار الربيع اقذف لباسك الشتوي الخاص بالتوبة: طائر الزمن لا يملك سوى طريق صغير كي يرفرف فيه، والطائر قيد التحليق».

كلاهما ابتلع النبيذ ودوّر لسانه حول فمه، متذوقاً بقية الراتينج. نهض ميرزا بسرعة ووقف على قدميه كي يملأ كوبيهما من جديد بحماسة صبيانية إلى حدّ ما. أمال البرميل وهزّه كي يجعل النبيذ يتدفق. «وَصَلَ إلى القاع. آن الأوان كي نحصل على دُفعة جديدة عند بيت ميرزا الريفي الضخم»[1].

1- بيت ميرزا الريفي الضخم: في النص الإنكليزي Chateau Mirza. هنا كلمة Chateau فرنسية، وقد تعني «قصراً فرنسيّاً إقطاعيّاً». ومن دون ريب، مجيد هنا يمزح مع ميرزا - م.

تذكر مجيد أول مرة دعاه فيها ميرزا إلى حجرته. جلس على السجادة، وفيما كان ينظر من حوله، أدرك أنه باستثناء السجادة وبرميل البلوط، الأشياء الوحيدة هناك هي لوح النرد الخشبي، وكدس صغير من الملابس، وبعض قطع الصابون. ليس هنالك كتاب واحدة ولا صورة فوتوغرافية. لا أثرَ واحداً من حياة ماضية. «مَن أنت؟» سأله.

« أنا لا أحد»، أجاب ميرزا. «أتريد مزيداً من العصير؟».

اليوم، تكلّم ميرزا عن النباتات التي تُفرَش كمِهاد[1] والأشجار المُشذّبة. تكلّم عن تحوّل الأوراق من حال إلى حال وهجرات الطيور والحشرات. تكلّم عن حركة الشمس وحركة الرياح في الربيع، الصيف، الخريف والشتاء. تكلّم عن كآبة الدجاج والمعزاة العجوز المتعنتة التي كانت تتعلّق برِجل سرواله أثناء الإطعام الصباحي. غمره مرحٌ مفعم بالحيوية فيما هو يأتي على ذكر هذه الأشياء، وأدرك مجيد أنّ ميرزا قد أصبح البستان نفسه. وتساءل مع نفسه كم هم لا يُطاقون، بعض الأحياء حتماً، إذ ينبغي التخلّي عنهم كي يستطيع المرء أن يواصل حياته.

جلب ميرزا لوح النرد. كان مصنوعاً من خشب الجوز السميك وفيه نقوش هندسية معقدة. «هل تريد القطع السود أم البيض؟»، سأله.

«السود».

كلّ واحد منهما أخذ رقعته ونصب خطوة سريعة. قذف ميرزا أحد أحجار النرد العاج المستديرة إلى مجيد. «أقل أم أكثر؟».

«أقل».

في الوقت نفسه كلاهما رمى الحجر. حجر مجيد حطّ على ستة بينما استمر حجر ميرزا في الدوران، وفي النهاية حطّ على ثلاثة. على الفور أمسك ميرزا بالحجر وبدأ اللعبة. لعبا بسرعة، وأكملا مباراتين في أقل من خمس دقائق، وفي كلتيهما فاز ميرزا. في المباراة الثالثة كان قد سبق مجيداً

1- النباتات التي تُفرش كمِهاد mulching plants: المقصود هنا النباتات التي تُفرَش على الأرض لوقاية جذور النباتات الغضة من الحرارة أو البرد أو لإبقاء الثمار المتساقطة نظيفة - م.

بشوط بعيد فصرعه قبل أن يتمكن مجيد من أخذ جميع قطعه إلى المنزل. هزّ ميرزا الحجر في يده، ساخراً من الشاب. «أنا أشم الرائحة النتنة للأستاذ».

خسارة مضاعفة. إلا أن مجيداً لم يكن متأهباً للاعتراف بالهزيمة، حتى الآن.

نفخ ميرزا على حجريْ النرد ورماهما. كلاهما راقب الحجرين يلفان ويدوران ويتباطآن ويتوقفان ويحطان على الستة المضاعفة.

«يا إلهي»، قال مجيد. «يا للحظ السعيد هذا الذي تملكه!».

رفع ميرزا بصره ناظراً إليه وابتسم بسمة قلّما حجبت حزناً لن يفسره أبداً. «حظي يبدأ وينتهي بحجر النرد».

***

وقفت بيبي-خانوم عند كاونتر المطبخ العائد لها مع نارجيلتها وعلبة التبغ. ملأت القاعدة بالماء العذب ثانية وملأت الطاس بالتبغ وغطته بستار. وضعت مربعاً صغيراً من الفحم على الستار وأشعلت الفحم. نفخت برفق على الفحم وحملت النارجيلة وعادت بها إلى غرفة نومها في انتظار وصول القابلة.

كانت القابلة أقدم وأعز صديقات بيبي-خانوم. كانت تقيم في كوخ من حجرة واحدة لا يبعد سوى مسيرة دقائق قليلة عن البستان، في أطراف البلدة. كانت أطراف المدينة مُحاطة بالكثبان الرملية، معزولة وقاحلة.

كانت القابلة هي من ولّدت أطفال نيساپور المولودين حديثاً طوال ما يزيد على خمسين عاماً، إلا أنها أُرغمت على التقاعد بعد ولادة صعبة كادت أن تقتل فيها الطفل والأم. ورغم أنه لم يكن ذلك بسبب خطأ من جانبها، إلّا أنّ سكان البلدة لم يعودوا يثقون بها.

القابلة قلّما تأتي إلى وجبات غداء الجُمع. كانت تُفضل أن تقضي وقتها مع بيبي-خانوم وحدها خلال القيلولة التي تعقب الغداء. كانت تظهر دوماً كي تُعيد الطبق الذي سلّمه جعفر إليها، وكانتا تقضيان ما بعد الظهر معاً في غرفة بيبي-خانوم، تدخنان. كلّ واحدة منهما تستند إلى وسادة أرضية،

تمسك بـ «أمجِدها»[1] الخاص، وهو مَبسم مزخرف تضعانه على الخرطوم فيما هما تمرانه جيئة وذهاباً. في بعض الأحيان تلعبان جولات قليلة من لعبة الطاولة أو لعبة الورق مثل «حُكم» أو «پاصور»، وفي أوقات أخرى كانتا تجلسان بصمت تستنشقان وتستمتعان بدوار النيكوتين، تتحدثان بالتعاقب في «قرار وجواب»[2]. كانت القابلة هي التي تحرز دوماً المرتبة الأولى في اللعب. في الآونة الأخيرة، كانت مواضيعها كئيبة. «أنا خائفة من الموت»، قالت.

«كيف يسعكِ أن تخافي من شيء لا تعرفينه؟».

«وهذا على وجه الدقة سببُ خوفي منه».

قضت القابلة حياتها كلّها في خدمة الخلق، لا يسعها أن تُحصي الولادات الكثيرة التي سهّلتها. ومع ذلك غموض العمل ودهشته لم يكفا عن إثارتها. تلك اللحظة بالذات حين تنتزع الطفل الوليد المُضرّج بالدم من قناة الولادة، ترفعه عالياً وتصفع فتسمع أول صرخة من الطفل، وهي صوت أولي جداً، بدائي جداً بحيث أنها كانت تعتقد أنه صوت الرب، إذا كان للرب صوتٌ من هذا الطراز.

غير أنّ الموت صامت وهذا ما يُخيفها. «ما من حكمة تأتي مع تقدّم العمر، بيبي-جان، الرضا وحده هو الذي يأتي».

«غير أن هذا الرضا هو حكمة، عزيزتي».

1- أمجِد amjid: وردت بالفارسية اللفظية في النص الإنكليزي الأصل - م.

2- قرار وجواب call – and – response: هنا استعملت الكاتبة مصطلحين موسيقيين. القرار هو الصوت الخفيض أو العميق، وهو في الموسيقى تردد منخفض نهائي مرتجع وهو أدنى أجزاء الهارموني وعادة يصدره الإنسان عند استيقاظه من النوم صباحا ويعرف أيضا بالنبرة أو النغمة الخفيضة أو العميقة ويمكن إبرازه من خلال صوت غيتار البيس أو الأصوات الإلكترونية الهادرة أو صوت الغناء العميق، أو ضربات الطبل. أما الجواب فهو يشير إلى النغمات أو الطبقات الصوتية التي يكون ترددها أو مجالها الموسيقي أعلى نهايات سمع الأذن البشرية وهو في الموسيقى يشير إلى النوتة الموسيقية المرتفعة أي الحادة. ومن أمثلة أصوات الجواب نغمات الجيتار، وصوت الأنثى، وصوت الفتيان الذكور إلخ. ويكون صوت الجواب أعلى من القرار العائد له بثماني درجات من السلّم الموسيقي - م.

«في كلّ ليلة أمضي إلى فراشي وأنا خائفة من أنني ربما لن أستيقظ. أنا أنتظر موتي».

«نحن كلّنا ننتظر موتنا، عزيزتي. نحن الأقرب إليه وحدنا الذين ننتظره بترّقب أكبر».

«أنا مُتعبة من الانتظار بترقّب».

«بعض الشاي يجعلكِ تشعرين بالتحسن».

«أجل، سيكون هذا شيئاً لطيفاً».

***

نظرت بيبي-خانوم الآن من شباكها وشاهدت القابلة تقطع الطريق آتية صوب المنزل. كانت ذرةً من امرأة عجوز، طويلة وهزيلة، محدودبة الظهر، وذات رِجلين مقوستين، إلا أنها كانت تتحرك بروح فتاة في ميعة الصبا. ولمّا وصلت إلى المنزل مضت مباشرة إلى المطبخ ووضعت طبقها، وبعدها توجهت إلى غرفة بيبي-خانوم ودقت الباب برفق.

«ادخلي».

اتخذت موضعها على الوسادة وأطلقت تنهيدة: «شكراً على إرسال جعفر. ما كان يلزمكِ أن تفعلي ذلك. أنتِ عطوفة جداً معي».

«هذا من دواعي سروري. زيادة على ذلك، بوسع الفتى أن يبذل بعض التمارين».

نظرت كلّ واحدة منهما إلى الأخرى وضحكتا. كلّ واحدة منهما أمسكت بعباءتها كما الكوب على فمها، وما إن خفت الضحكة، حتى أفلتتها. هزت بيبي-خانوم رأسها وتناولت مبسمها من الخرطوم وسلّمته إلى القابلة. «إني قلقة عليه أيضاً».

«إنها مجرد بدانة طفل صغير. سوف يتخلّص منها لمّا يتقدّم في السن».

«لا، أنا لا أقصد هذا».

«هل ما يزال غير قادر على التكلّم؟».

«لا ينطق حتى كلمة واحدة».

«وماذا بشأنه في المدرسة؟».

«إنه يقرأ ويكتب لا غير».

«وماذا يقول زوجكِ بشأن هذا؟».

«قال [دعي الغلام وشأنه. سوف يتمكن من القيام بالأشياء بطريقته الخاصة. سائر الناس يتكلّمون لكن كم عدد الناس الذين يستطيعون أن يسمعوا؟]. كان ينبغي لي ألا أدعه يُخبر جعفر أنه ابن مُتبنى. أعتقد أنّ الأمر زرع الخوف في نفسه. إنه يصر على القول إن الحقيقة سوف تجعل جعفر قوياً، إلا أنني أعتقد أنها أورثته الحزن».

«إن الحقيقة الوحيدة التي تهمّ هي أنه ابنكِ وأنتِ التي ربيتِه».

استلت القابلة المَبسم خارج حمالة الصدر العائدة لها ووضعته على الخرطوم. كانت تضع كلّ الأشياء التي تملكها مُثبتة إلى حمالة الثديين العائدة لها. وكلّما يحتاج شخصٌ إلى شيء ما، تمد يدها وتسحبه من تحتهما إلى الخارج: المناديل الورقية، الدبابيس، الجوارب، أحمر الشفاه، حتى وعاء صغير يحتوي كحول التدليك. كما كانت تحفظ مجوهراتها هناك. وإذا ما نظر المرء، أيّ امرئ، إليها بغرابة، فيما هي تنقّب كي تجد شيئاً ما، تخاطبه قائلة: «احفظ الشيء الذي تحتاجه قريباً من قلبك ودع البقية تنفصل وتهوي أرضاً».

كانت القابلة هي التي ولّدت[1] جعفر. كانت وحدها تعرف هوية أُم جعفر وكان هو الطفل الوحيد الذي ولّدته ورأسه مُغطى بغشاء. وما إن شقت الكيس السَّلوي[2] وفتحته، حتى عرفت أنها تكشفه لعالَم القصص الخيالية، لأنها لن تخبر أحداً أنّ الأم التي ولدته عاهرة تسكن في كوخ في الناحية الثانية من الطريق.

رفضت أُم جعفر النظر إلى الطفل ووضعت يديها على أُذنيها كي لا

1- ولّدت delivered: أيّ بمعنى ولد على يديها، باعتبارها القابلة - م.

2- الكيس السلوي amniotic sac: هو الغشاء الداخلي الذي يحيط بالجنين مباشرة في الرحم، ويكون مملوءاً بالماء. هذا الماء يُسمى بالدارجة العراقية «ميّ الراس»، وحين ينفجر هذا الكيس ويتدفق الماء، يُعَد ذلك علامة من علامات الولادة - م.

تسمعه وفي الختام زعقت كي يُبعدوه عنها. سحبت القابلة السوائل من ثديي الأم وغذّت الصبي بنفسها[1]. كانت أمه مستلقية على السرير، مكتئبة ورواقية مثل بقرة معمل. حتى بعد أن أخذت القابلة الصبي إلى منزل بيبي-خانوم، رجعت إلى الأم كي تجمع الحليب وتجلبه إلى البستان، تحدثت مرة واحدة فقط عن الصبي كي تُعلن لها بنحو زائف أن أسرةً ضُمنت له في مدينة مَشهد.

سحبت القابلة النارجيلة بعمق ونفثت هبّة دخان وقالت:

«كان الباذنجان المخلل لذيذ الطعم».

«لقد صنعته خصيصى لك».

«إنها الأكلة المفضّلة لديّ».

«وماذا عن التهديغ؟ أعتقد أنها مصنوعة بشكل نموذجي هذه المرة».

«أيّ تهديغ؟».

هبّت بيبي-خانوم واقفة، وراحت تتمتم مع نفسها: «ذلك الغلام!». دفعت الشباك وفتحته قليلاً وأطلقت صوتاً بين الهمس والصياح: «جعفر». وفيما هو شبه نائم على الأرضية، فتح عينيه بهلع. كان يعرف لماذا كانت أمه تناديه. بدأ يبكي ويشهق، في الوقت الذي كان فيه المُلّا يُخرِج نداء بوق آخر من الغاز من أحشائه.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

1- في الأيام الثلاثة أو الأربعة بعد الولادة، ثديا الأم لا يدرّان الحليب الناضج، بل «اللبأ»، وهذا ما قصدته الكاتبة - م.

الشاي والغروب

كان شاي ما بعد القيلولة يبدأ على الدوام بوصفه مسألة غامضة مع أيّ فرد لا يزال مترنحاً جرّاء النوم. تجمع الرجال خارج المنزل عند آنية الشاي والفاكهة، وكان ميرزا قد جهّزها لهم.

أما النسوة فقد اجتمعن في حجرة بيبي-خانوم كي يشربن شايهن، ويبدين دهشتهن حيال مشاريعها الخاصة بخياطة الشتاء. هذه المرة، أحضرت كدساً من قفازات اليد والرسغ كانت قد حاكتها من أجل تقشّر الجلد وكانت تُسمى «اللِّيف»[1]. كانت أغلب هذه «اللِّيف» بيضاء بشكل طبيعي، تلك المخصصة للطفل الصغير تكون زرقاء ذات أزهار حُمر. تلك اللِيف، سلّمتها بيبي-خانوم للقابلة. وجرّبت نسرين وقمر القفازات الأخرى كي تريا حجمها.

وتالياً بسطت العباءات ذات الألوان الزاهية التي خيّطتها. تفحصت قمر والقابلة الأنسجة التي طُبعت عليها الزهور باللون الأزرق، الوردي، والأبيض، في حين نظرت نسرين بلا مبالاة. عرضت قمر عباءة واحدة لابنتها فيما هي تقول: «ألا تريدين واحدة؟».

«لا أحتاج إلى أيّ عباءة».

«لكنكِ تعوّدتِ أن تحبي عباءتي. عليّ دوماً أن أحصل عليها من حجرتك».

«إنه هزل من أجل وقت التسلية. إني ألبسها بوصفها ثياباً تصل إلى مستوى الأرض، لا لتغطي رأسي».

1- الليف leafs: وردت بالفارسية اللفظية في النص الإنكليزي الأصل. كلمة «ليف» ذات أصل عربي، شأنها شأن كلمات كثيرة في اللغة الفارسية. وهو نبات حولي، من أنواعه الليف المصري، وهو النوع الشائع المستعمل للاستحمام - م.

«نسرين، راقبي فمكِ. هذا الأمر ليس مزحة».

تدخلت بيبي-خانوم: «الآن، تعالي. إنها مجرد قطعة من القماش. كيفما تلبسينها تكون الطريقة التي تُعرّف بها. بالنسبة إلى نسرين العباءة ثوب وبالنسبة إلينا هي عُرف. لكلّ امرأة رأيها الخاص».

تفرّست قمر في نسرين كأنها تقول «انتظري ريثما نصل إلى المنزل».

وكي تُغيّر المزاج، أحضرت بيبي-خانوم علبة مجوهراتها. فتحتها للسيدات. مهما كانت قطعة المجوهرات التي يبدو أن امرأة ما، أيّ امرأة، تنتبه إليها بقوة، كانت تعطيها إليها بوصفها هدية. في أول الأمر، ترفض المرأة باعتدال، وبعدها، بإلحاح من بيبي-خانوم، توافق المرأة بسعادة غامرة. وبنحو أدهش الجميع، أخذت القابلة دبوس شعر مُسطحاً مُحكم الإغلاق مكسواً بالجواهر. سحبت عباءتها عن شعرها، كاشفة خصلة من الشعر البرتقالي اللامع المصبوغ بالحنّاء؛ خصلة ذات جذور بطول بوصة بلون أبيض أكثر لمعاناً. بدت أشبه بزهرة الشمس. أزاحت شعرها إلى أحد جانبيْ وجهها الأسمر ودست الدبوس فيه. ومن ثم أبدت إعجابها بنفسها في المرآة اليدوية. أخذت قمر قلادة ذهب تتدلّى منها قطعة فيروز أشبه بالدمعة. فتحت الكلّاب وحاولت أن تغلقها حول عنقها غير أنّ القلادة كانت قصيرة جداً. تأففت وتجهمت إلى أن أخرجت بيبي-خانوم قلادة ذهب أطول من العلبة ونقلت دمعة الفيروز إليها.

استوت نسرين في جلستها وراحت تراقب. هي وحدها التي لاحظت أنه في كلّ ربيع كانت بيبي-خانوم تتخلّص من قطعة أخرى من حياتها المادية. كانت قد أعطت أساورها الذهب إلى نسرين، سواراً بعد سوار. اليوم، بيبي-خانوم سحبت الأساور الثلاثة الأخيرة المتبقية ودفعتها على ذراع الشابة. رفعت نسرين بصرها إليها غير مُصدّقة، إلا أنّ بيبي-خانوم ابتسمت لها وقالت لها بهدوء: «لا بأس. إنها كلّها الآن مُلكك. أنا امرأة مُسنة جداً ولا ينبغي لي أن أُحدِث ضجةً كبيرة جداً. الآن حان وقتك كي تفعلي ذلك».

***

على الأرضية، اتخذ الرجال مواضعهم المألوفة على الوسائد الأرضية.

كلّ واحد منهم سكب الشاي في الصحن الصغير كي يبرد. أومأ المُلّا إلى ميرزا كي يجلب بعض التمر. ولمّا رجع ميرزا، انحنى كي يضع التمر أمام المُلّا، حبس رجل الدين أنفاسه وتخضب وجهه بالحمرة. «اذهب واغسل فمك».

وضع ميرزا يده على فمه وأسرع إلى داخل المطبخ غير واعٍ بأنّ رائحة النبيذ قد عَلِقت بنَفَسه. وقف عند سِنك المطبخ وأخذ حفنات من الماء وأدخلها في فمه وراح يتغرغر.

في الخارج، كان المُلّا قد باشر في سرد حكاية ذات مغزى أخلاقي عن سبب منع المسلمين من تناول الكحول. كيف أنّ السُكر يجعل المرء ينسى الله والصلاة. لعن الحانات ومخازن بيع المشروبات الروحية التي فُتحت باعتبارها محلات تجارية على مدى الأعوام القليلة الفائتة، وشرع أصحاب هذه المحلات يبيعون مشروبات محظورة فالتين من العقوبة. واستمر يتكلّم بإسهاب عن شرور المُسكِرات، ومن ثم انتقل إلى أخطار ألعاب الحظ. إذا لم يلتزم الإنسان بمبادئه، قال، لا يُمكن أن يُسمّي نفسه إنساناً. ومن هناك، وجد بشكلٍ من الأشكال طريقةً ما كي يُقحم الإمام الحسين في حديثه، وهذه موهبة يبدو أن جميع رجال الدين يمتلكونها. لا يوجد موضوع في العالم بأسره لا يمتّ بشكل من الأشكال بصلة إلى الإمام الحسين.

لم يندهش مجيد من رد فعل المُلّا. كان يعرف التضييق الإسلامي على تناول المشروبات الروحية. ورغم أنّه لا يوجد في ظل النظام الحالي قانون ضد الخمر، لا يزال هذا الأمر يُقابَل بالتقطيب والامتعاض. إن ما صدمه فعلاً هو أنّ المُلّا اختار أن يوضح رأيه من خلال إذلال رجل كان تابعاً له بنحو جليّ. مال ناحية القاضي، الذي كان جالساً بلا حراك، يرهف السمع لشقيقه وهو يواصل حديثه، وهو يكاد يتوق لجرعة من الفودكا بوصفها إنقاذاً مؤقتاً من التقوى. «إذا حَطّ الإنسان من قَدر رفيقه الإنسان»، همس، «لا يُمكنه أن يُسمي نفسه إنساناً ذا مبادئ».

هذا الكلام دفع القاضي لأن يبتسم. غير أن المُلّا استأنف كلامه. كانت عيناه شبه مغمضتين وكان لا يعي بكلّ معنى الكلمة بأن كلّ الرجال الثلاثة

أمامه كانوا يتعاطون الخمر. ما من إنسان عانى من مواعظ المُلّا الدينية أكثر من شازديپور. كان شازديپور يحتقر إيمان عمه بالقدر نفسه الذي يحب فيه الكونياك.

انتبه إليه مجيد وهو ينظر أمامه ومن ثم يرفع يده كما لو أنه يقول: «نخب صحتك». كان شازديپور يشعر بأنه مُبتهج ابتهاجاً شديداً في أن يكون ضمن المؤامرة التي ضحك عليها بصوت عال. لزم رجل الدين الصمت ونظر إليه مباشرة. «إنك تعتقد أنّ الطفل الذي يموت من العطش في الصحراء مسألة مُضحكة؟».

تجمد شازديپور. كان قد ضحك على وجه الدقة في تلك اللحظة من قصة المُلّا حين مات طفل الإمام الحسين الصغير من العطش. هبّ مجيد للدفاع عن أبيه. «حاج – آغا، هذه القصة حزينة بشكلّ مروِّع جداً. أبي يكبت بكاءه. ولم يكن يقهقه».

وضع شازديپور يده على جبينه من أجل تدبير درامي جيد. حدّق فيه المُلّا، وما إن اقتنع، حتى عاد إلى موعظته الدينية.

أصغى مجيد الآن إلى رجل الدين بجد. كان شازديپور يراقب التعبير اللطيف على وجه ابنه، وهو تعبير شديد الشبه بتعبير أمه بحيث أنّ شازديپور أحس بأنه مقهور، مرةً أخرى، بسبب فقدان زوجته. لم يكن هنالك أحد يفوق عاطفة زوجته. اعتادت أن تجمع بقايا الطعام من موائدهم كي تُعطيها إلى المومس التي أرغمها المُلّا، قبل سنوات خلت، على التخلّي عن مهنتها. كانت المومس تسكن عند الكثبان الرملية في كوخ من حجرة واحدة. في أحيان كثيرة كانت تحصل على مهنة ما من أشخاص هم من خارج البلدة إلا أنّ تلك المناسبات كانت قليلة ومتباعدة وقد تُرِكت مُعوزة.

أسبوعياً، كانت زوجة شازديپور ترتب بقايا الطعام بهيئة خدمة مناسبة وتترك الطعام عند باب كوخها كي لا تُخجلها وتدفعها للتعبير عن شكرها على الحَسَنة. كانت ترفو العباءات العتيقة للمرأة وتحرص على أن يكون لديها صابون. هذه الأشياء كلّها كانت تتركها أيضاً عند الباب. لم تتحدثا قط، ولو لمرة واحدة.

ما كان بمستطاع شازديپور أن يعرف هذا لو لم تأتِ المومس إلى جنازة زوجته. كانت خائفة جداً من المشي وسط المُعزين والمُعزيات وكانت تنتظره عند مدخل الفناء الخلفي. وما إن غادر الجميع، حتى قرعت الباب وأخبرته بكلّ شيء. لم تنظر في وجهه مباشرة ولا مرة واحدة، ولا طلبت منه العون. سألته فقط إن بوسعها رؤية صورة زوجته الفوتوغرافية. لم ترَ البغي وجهها من قبل. في إحدى المرات تبعتها فيما كانت متجهة نحو المنزل وهكذا عرفت المكان الذي تسكن فيه.

دخل شازديپور إلى حجرة المعيشة حيث كانت جميع الصور الفوتوغرافية للأسرة معروضة للمُعزين والمُعزيات. اختارت صورة فوتوغرافية بالأبيض والأسود لزوجته، وهي تحمل مجيداً بين ذراعيها. هذه الصورة أُخذت في البستان قبل أعوام طوال مضت. سلّم الصورة للبغي. وعلى مدى دقائق قليلة، تفرّست في الصورة وابتسمت. بعدها سألت: «ما اسمها؟».

«صَبا».

«والصبي هو ابنك؟».

«نعم. مجيد».

شكرته وانطلقت تمشي مبتعدة، وبعدها استدارت إلى الخلف وانبرت قائلة: «أنا أيضاً أنجبت صبياً ذاتَ مرة».

***

أصبحت الشمس باهتة. الفصل الأخير من غداء الجمعة. خرجت النساء من غرفة بيبي-خانوم، مقاطعات موعظة المُلّا الدينية. واحداً إثر الآخر، عبّر الضيوف، رجالاً ونساءً، عن امتنانهم للمُضيفة، وألقوا عليها تحية الوداع، ثمّ انطلقوا يقطعون الطريق مشياً عائدين إلى منازلهم. كان المُلّا يسير في الصدارة، وبعده قمر، وهي تتمتم همساً بشأن اضطراب معدتها بعد تناول قدر كبير من الطعام. كان زوجها يتبعها سائراً خلفها بنصف خطوة ومن ثم نسرين، وهي تقبض على ذراع القابلة. وسار مجيد في آخر هذا الطابور مُبدياً إعجابه بمشية نسرين الهيّنة فيما هي تتظاهر بشغفها بالتحاور مع أبيه. كان شازديپور قد شكّ بأنّ ثمة شيئاً ما بين الشاب والشابة والآن بات متيقناً من

ذلك. نظر إلى الحيز بين العاشقين الشابين وكاد يشعر بالحب القائم بينهما وفكّر، في تلك اللحظة، أنهما إذا ما تحوّلا إلى إيقاعين موسيقيين، فيجب أن تكون هي إيقاعاً «سريعاً إنما ليس سريعاً جداً»[1] مصاحباً لإيقاع مجيد الـ «وقور والرزين مع الحيوية»[2]. تمتم شازديپور مدةً طويلة، وهو يضرب الأحجار بعكازه المصنوع من خشب الماهوغاني مُبعداً إياها عن طريقه.

أومأ إليه المُلّا بأن يكون على رأس الطابور. حثّ شازديپور خطاه. «هل تعرف أنه كلّ ثلاثين سنة يتطابق التقويمان القمري والشمسي؟» قال المُلّا.

«إنها إسرار الكون! سوف يكون هنالك كسوف شمسي كامل أيضاً، هذا ما سمعتُه».

نظر المُلّا بتجهم إلى ابن أخته. «إنه ليس سراً. إنها الحرب. يقع [احتفال الأربعاء][3] في اليوم نفسه من عاشوراء. لو أنني أمسكتُ بشخص واحد يحتفل بذلك الطقس الوثني في الوقت الذي يجب عليه فيه أن يندب مقتل الإمام الحسين وأصحابه، فعليه أن يدفع الثمن عن فعلته».

لا يصدّق شازديپور أن طقس القفز حول النار الزرادشتي هو إهانة لليوم الذي قُتل فيه الإمام الحسين في «معركة كربلاء». إن الطقوس الزرادشتية بدءاً من «احتفال الأربعاء» حتى «نوروز» هي إلى حدّ كبير جزءٌ من الثقافة التي كان يحتفي بها الإيرانيون كلّهم بصرف النظر عن دينهم. كان شازديپور يكره عاشوراء، أيضاً. كان يكره كلّ ما له صلة بالإسلام الشيعي. سنوياً خلال شهر عاشوراء يختبئ في صالونه ويحتسي الكونياك، بينما المواكب الباكية من الناس يضربون صدورهم فيما هم يمرون خارج باب منزله.

1- سريعاً إنما ليس أكثر مما ينبغي: وردت بالإيطالية في النص الإنكليزي الأصل allegro ma non troppo – م.

2- وقور ورزين مع الحيوية: وردت بالإيطالية في النص الإنكليزي الأصل grave con brio – م.

3- احتفال الأربعاء: وردت هاتان الكلمتان بالفارسية اللفظية في النص الإنكليزي Chaharshamba Suri (چهارشنبه سوري)، وهو عيد إيراني يحتفل به عشية الأربعاء الأخير قبل عيد الربيع (نوروز) (السنة الإيرانية الجديدة) الذي يُصادف في 21 آذار / مارس – م.

في رأيه، كان وصول الإسلام هو مأساة إيران الكبرى. في رأيه، إن تغلغله في الحياة اليومية للشعب هو انحدار إلى العصور المُظلمة. إن مسيرات الحزن الشعبية هي من أجل -كما صاغها بعد كؤوس كثيرة من الكونياك- «رجل عربي مات في وسط الصحراء قبل ألف وثلاثمئة سنة خلت وهو في طريقه للاستحواذ على السلطة»، وهذا أحط منزلة يُمكن أن ينحني لها الشعب. وما يُضيف مهانة إلى هذا الأذى هو أن يُقال لك أن تخضع، ثلاث مرات يومياً، لهذا السرد المُختَرع باللغة العربية، وهي لغة أجنبية، وهذا في رأيه، نهاية «الحضارة الفارسية». التفت إلى المُلّا وقال له: «أنا متأكد من أنّ الناس سوف يحترمون الطبيعة الجادة والفريدة لتطابق التقويمين».

«إن الأشياء تتبدل ويتعين على الناس أن يباشروا بدفع الثمن عن أعمالهم الطائشة».

كان شازديپور يعرف تمام المعرفة أنّ المُلّا يُلمّح إلى ذلك. كان يقضي كلّ مساء من أماسيه في صالونه يستمع إلى الإذاعة البريطانية «BBC». الأصوات المتذمرة الناجمة عن القلقِ والاضطرابِ في المدن تزداد وتغدو أقوى فأقوى. إنها مسألة وقت ليس إلا قبل أن تتصدع الأرض تحت قدميه، مهما كان يجلس بهدوء وأناقة في كرسي المنتدى العائد له محاولاً أن يُغرقها بالحركات الموسيقية البطيئة، بالحركات الموسيقية المتحركة ببطء معتدل، والحركات الموسيقية السريعة.

***

نزلت ساعةٌ ذهبية على البستان وانحنت الشمس في ظلال طويلة ملمّحة للقمر بأن آنَ أوانُ بزوغه. ورفعت جوقة الحشرات أنشودتها كي تمجد طلوعها، ثمّ غطست في غروب ناعم تحت نظرتها المحدّقة.

بسم الله الرحمن الرحيم، همست بيبي-خانوم فيما كانت عيناها مغمضتين، واقفة على سجادة صغيرة لا شيءَ عليها سوى «حجر صلاة» من كربلاء. ركعت وسجدت على هذا الحجر ومسته بجبينها حيث كانت هنالك علامة صغيرة تشكّلت جراء سنوات من السجود.

بعد سطور قليلة من الصلاة، رفعت راحتيها للسماء، ومن ثم سجدت ثانية ووضعت رأسها على الحجرة.

كانت الكلمات التي همست بها قد نطقتها عن ظهر قلب باللغة العربية، وهي لغة أجنبية بالنسبة إليها، إلا أنّ قيودها أتاحت لها الدخول إلى فضاء كانت وحيدة فيه بحضور الله. الحمد لله رب العالمين. وهذه كلمات باعتبارها وسيلة من أجل التضرّع. كررت الإيماءات نفسها مرات عدة، ولما انتهت طوت سجادة الصلاة العائدة لها ووضعتها جانباً.

فرغ ميرزا من عمله في المطبخ ورجع ماشياً إلى كوخه مع مصباح الكيروسين العائد له، وصوت الحصى تحت قدميه. كانت ضفادع المستنقع تنق وتزقزق بنحو إيقاعي دعوات التزاوج العائدة لها على طول الجداول. وكانت طيور البوم الكبيرة تنعب في الأشجار قبل أن تنطلق إلى صيدها الصامت. جلس ميرزا على سجادته. كان وهج مصباح الكيروسين يُنعش الحجرة. ثنى إلى الخلف طرف السجادة وأخرج صورة فوتوغرافية مُخبأة تحتها. كانت صورة امرأة باسمة الثغر ومعها صبي صغير لا يزيد عمره على عشرة أعوام. إنها صورة زوجته وابنه. الاثنان قُتلا في انفجار ساحة السوق في ما بعد ظهر مُشمس أثناء ذهاب الأسرة للتسوّق في مسقط رأسه بأفغانستان. كان قد دعا زوجته تواً كي تأتي وتشم حبات الكرز التي اشتراها لها كي تصنع منها المربى، لمّا اقتحمت سيارة الكشك حيث كانت زوجته واقفة مع ابنهما، وانفجرت.

وفيما كان مصعوقاً وصامتاً، دخلت قطعة شظية تحت عينه الشمال مباشرة. بدأ يمشي، ولم يكن في يده سوى كيس من الكرز، حتّى وصل إلى منزله. هناك التقط حقيبة صغيرة للكتب وظلّ يمشي إلى أن اجتاز الحدود، حيث كان يستريح في الطرق الفرعية وفي الطرق السريعة على طول مساره. وفي الوقت الذي وصل فيه إلى ساحة المدينة في نيساپور، كان الكرز قد تعفن والشظية كوّنت سدّاً[1] ضارباً إلى الزرقة في عينه الشمال. قبل ذلك، كان طبيب يتحدّث اللغة الفارسية من هِرات يمضي هنا وهناك بالاسم الذي

1- السّد cataract: إعتام عدسة العين – م.

كان يحمله، محمد علي خان. الآن بات اسمه ميرزا، وهو الشخص الذي يطهو وينظف في البستان.

كان قد أتى إلى عمله فقط من خلال المرور عبر الأبواب المفتوحة. هناك، تحت شجرته، جلس القاضي. جلس لصقه. لم يتكلّما طوال ساعة باستثناء ما يتعلّق بإعطاء الشاي. بعد تناول الشاي، التفت إلى القاضي وسأله ما إذا ثمة عمل كي يؤديه ومكث هناك منذ ذلك الحين.

إنه يستلقي الآن على سجادته ويحدّق في الصورة الفوتوغرافية. أسندها إلى المصباح وراح يتحدّث إليها بنبرات هادئة عن يومه. أخبر ابنه كيف تبين أن التهديغ نموذجية، وعن التوبيخ الذي ناله جعفر لأنه سرق حصة القابلة. حكى لزوجته عن المُلّا والنبيذ وكم شعر بالخجل لأنه ضُبط ورائحة النبيذ تفوح من فمه. وبصوت خفيض، حدّثها هامساً عن موعد نسرين ومجيد الغرامي وسط الأشجار وكيف أن ذلك جعله يتوق توقاً مُوجِعاً إليها، كما كان يتوق توقاً مُوجِعاً إليها على الدوام. وبعد أن انتهى من حديثه إليهما، قبّلهما معاً متمنياً لهما ليلة سعيدة ووضعهما تحت السجادة. نفخ على مصباحه وأطفأه ورقد كي ينام.

في ضوء القمر، جلس القاضي تحت شجرته. وجلست بيبي-خانوم وظهرها إليه. سحبت عباءتها إلى الأسفل وناولته فرشاة الشعر العائدة لها. بدأ يُمشّط شعرها، وفي بعض الأحيان كان يسحبه من عنقها ويلاطف بشرتها هناك، وهذا الأمر لا يزال يجعلها ترتعش. «عملتِ كثيراً جداً اليوم»، خاطبها. «لا بد أنكِ مُرهقة».

«أنا على ما يُرام. ميرزا يتحمل العبء الأكبر من العمل».

«أحرجه شقيقي فيما يتصل بالنبيذ».

«نحن نسميه [عصيراً طبياً]».

قهقه القاضي: «هذه التسمية تُطلقينها على الكحول؟».

ضحكت بيبي-خانوم وطلبت المغفرة من الله وقالت من دون تفكير: «أستغفر الله»، قبل أن تقول: «نعم!».

مالت عليه وطوّقها القاضي بذراعيه، ولمّا غطست في عناقه لا يسعكَ أن

تجزم أين بدأ الأول وأين انتهى الثاني. تلاشت ضحكاتهما وجلسا معاً، في هذا السكون والهدوء. جلسا معاً في حضور أحدهما الآخر، في عزلة. غالباً ما تكون العاطفة هادئة جداً، ويتعين عليك أن تغمض عينيكَ كي تستمع إليها.

پاريس

II

رفع شازديپور عينيه عما خطّه بيده. كانت المقاهي المحيطة بالساحة قد بدأت تمتلئ بجمهور الغداء. كان يوم الجمعة وكان من المتوقع أن يحضر شازديپور وجبة طعامه الأسبوعية مع صديقه مسيو تريانان. لمس وجهه وتحسس لحيته التي لم يحلقها. في دوخة فورة النشاط الصباحي نسي أن يحلق ذهنه. أقلقه سهوٌ كهذا.

كان يحلق ذقنه، يومياً، طوال الأعوام الستين المنصرمة. حتى في صباح اليوم الذي أعقب وفاة زوجته، حلق ذقنه. علّم كلا ابنيه أن يفعلا ذلك، أيضاً.

في أول الأمر جمشيد، وبعدها علّم مجيداً. علّمهما كيف يحملان شفرة الحلاقة كما ينبغي، كيف يسحبانها في اتجاه الشعر، كيف يستعملان حرارة وضغط الفرشاة بدلاً من شفرة الحلاقة، وكيف يرفعان الشعرات بعيداً من الوجه. كان طلب لكلّ واحد منهما طقم أدوات حلاقة من كتالوغ الجنتلمان الإنكليزي.

بعد درسه، كان جمشيد يجلس في غرفة مكتب أبيه، يلتهم الحلوى ويبتلعها مع الشاي. كان لديه حَزّ في عنقه أخفاه شازديپور بالورق. ظلّ يلمسه باستمرار. «توقف!»، قال شازديپور. «سوف تجعل الحَز يتلوث بالجراثيم».

استمر الفتى في تناول الطعام كالحيوان، ونادراً ما كان يمضغه. «هل يُمكنني الحصول على ماكينة حلاقة كهربائية؟».

«سنرى»، قال، وهو يشعر بخيبة الأمل لأن ابنه الأكبر سناً لا يُقدّر الطقس

الذي أصبح مُطلّعاً عليه. كانت تلك واحدة من خيبات الأمل الكثيرة التي سوف تتجمع أخيراً وتغدو احتقاراً ما بعده احتقار.

أما مجيد، من الناحية الأخرى، فقد أخذ تلقين أبيه بجدّ تام. إذ جلس في غرفة المكتب بعد أن حلق ذقنه أول مرة وناقش أصل الحلاقة. قضى وقتاً معيناً في المكتبة وراح يدرس المسألة. لاحظ كيف أن أباه كان قادراً على أن يحلق ذقنه في عشر ضربات أو أقل. في الأزمنة الغابرة، قال مجيد، كان الناس قد تعوّدوا على استعمال محارتين كي يحلقوا بهما. كانوا يجرونهما على وجههم».

«أجل»، قال شازديپور.

«الرجال الذين ينخرطون في المعركة اعتادوا أن يحلقوا كي لا يُمسَكوا من لحاهم أثناء القتال».

أحس بسعادة غامرة لدى رؤية حماسة ابنه. إلا أنّ زوجته توسلت إليه نيابة عن جمشيد. في كلّ مرة ترى فيها زوجها يتخذ فيها خطوة بعيداً من ابنها الأكبر سناً متّجهاً صوب الأصغر سناً، كانت تخاطبه قائلة: «يلزمكَ أن تُريه عطفك. قاسيةٌ هي طريقتك في مداراة مجيد وتفضيله على شقيقه».

«مجيد يستحق عطفي».

«إن الشخص الذي تقول إنه يستحق عطفك أقل هو الشخص الذي يحتاج إليه أكثر».

هذه الكلمات لا تزال تلازمه حتّى الآن. ما بدا مستحيلاً في ذلك الحين أصبح الآن بسيطاً جداً.

حزم شازديپور عربته اليدوية وانطلق بعيداً من الساحة. توقف عند صيدلية صغيرة واشترى شفرة حلاقة بلاستيكية مفردة، ومن ثم توجه نحو شارع Rue Marcadet. كانت La Divette حانة صغيرة، قديمة خَرِبة، ذات مخزن تبغ في الواجهة. كانت واجهات العرض مكتظة بأجهزة المذياع القديمة. في الأمسيات، الموسيقيون، الراقصون والراقصات يحتشدون في الخلف، وبعد كؤوس قليلة من الخمر، يُؤدون فعالياتهم، كلّ واحد منهم للآخر.

كان شازديپور يتردد على الحانة من حين إلى آخر من أجل احتساء فنجان سريع من القهوة. كان صاحب الحانة يومىء له برأسه فيما هو يدخل مع عربة اليد العائدة له ويتجه إلى الخلف مباشرة، ماراً بمخزن التبغ، بالبار، كرة

القدم المنضدية، وألعاب الكرة والدبابيس[1] الكلاسيكية إلى المبولة العامة. يدخل الكشك كي يُريح نفسه، وبعدها يقف أمام السنك الصغير المحشور في الركن بجوار الباب. خلع جاكتته ووضعها على عربة اليد العائدة له. ورغم أنّ الماء في الحنفية ساخن، لم يكن لديه رغوة للطقس المألوف. تناول قطعة صابون قديمة على حافة السِنك وزَبّدها بين راحتيه.

وفيما هو يرفع بصره ناظراً إلى نفسه في القطعة المخدوشة من المرآة، جفل مؤقتاً من صورته المنعكسة. بدا وجهه غير مألوف، غريباً نوعاً ما. خفض بصره ناظراً إلى يده، مركزاً على الأوردة الزرق الرفيعة التي برزت من البشرة الشفافة.

بضربات سريعة عدّة من شفرة الحلاقة، حلق لحيته ورشّ الماء الساخن على وجهه، ومن ثم مرّر يديه الرطبتين عبر ما تبقى من شعره. ربت على نفسه إلى أن جفت يداه، ثنى كُميه إلى الأسفل وأعادهما إلى وضعهما الطبيعي، وزحلق سترته، مُقوّماً التجاعيد. رجع إلى الوراء وحدّق في نفسه. بدا ناضراً ونظيفاً، أنيقاً، أملس.

وفيما كان يغادر المقهى ضربت عجلة عربة اليد العائدة له بقوة أحد الكراسي مُحدِثة ضجة عالية. كان يكره سحب عربة اليد العائدة له جيئة وذهاباً من أستوديو شقته السكنية إلى ساحة Place du Tertre. كانت ثقيلة وغير مناسبة. قعقعةٌ تذكّره بما يتعين عليه أن يفعله كي يبقى على قيد الحياة في حياته الجديدة. إن فكرة مسيو تريانان بأن يجلس بجوارها حين يتناولان غداءهما كانت أكبر من أن تُطاق. ومثلما كان يفعل في كلّ يوم جمعة، تركها شازديبور خلف بار المقهى بوعدٍ أن يعود لاحقاً ويأخذها. وبعدها رفع عكازه وخرج من حانة La Divette بخطوات كبيرة وسريعة رجلاً نال حريته.

كانت عربات «الدليڤري» تملأ الشوارع في الخارج. راوغ شازديبور وترنح عبر حركة المرور على الأقـدام. في تقاطع شارع Rue de La

---

1- لعبة الكرة والدبابيس pinball machine: أداة تسلية تُتخذ للمقامرة أحياناً، تُدفع فيها كرة فوق سطح مائل وسط دبابيس وأهداف - م.

Fontaine du But وشارع Rue Caulaincourt انتظر الضوء ريثما يتبدل فيما هو يقصد محطة المترو. وما إن وطئت قدماه الشارع حتى أحس أنّ شيئاً ليناً وأملس تحت فردة حذائه. براز كلب. وقف هناك ثواني قليلة غير مُصدّق، وبعدها رجع إلى الخلف حيث الرصيف وبحذر جرّ قدمه كي يزيل اللطخة من نعله. الفضلات، الرائحة النتنة، الأضواء الوامضة، أبواق السيارات التي تعقبها الفرامل الزاعقة والنجاسة البشرية، الأجساد المهتزة إزاءه، المندفعة عليه، أكبر من أن يحتملها. «بربرية»، تمتم متذمّراً.

لَحِق بالضوء التالي وهبط إلى المترو، آخذا القطار 12، وبعد محطتين وصل إلى محطة پيغال[1] ومن ثم تحوّل إلى القطار 2 المتجه إلى مقبرة Père Lachaise[2].

ولمّا صعد الدرجات في مقبرةPère Lachaise، لم يكن يبعد سوى بلوكات قليلة عن مطعم وبار La Mère Lachaise. كان مسيو تريانان ينتظره عند منضدة الباب الخارجي. تريانان رجل فرنسي، فظ ومعقد في آن، وهو صديق كان يتحدث في أغلب الأحيان عن الأفكار ولم يكن يستطلع بتطفل تاريخ شازديپور ولا يشاركه أيّ شيء من تاريخه هو. في أيّ يوم آخر، هذا الأمر أراح شازديپور. ومثلما كانت الحقيقة القائلة بأن الرجال الفرنسيين في پاريس كانوا يدوسون دوماً على براز كلب، لم يكن تريانان يفكر في الرائحة

1- محطة پيغال Pigalle: محطة على الخطين 2 و12 من ميترو پاريس – م.

2- مقبرة Père Lachaise: أكبر مقبرة في باريس، فرنسا (مساحتها 44 هكتاراً)، يزورها سنوياً ثلاثة ملايين زائر، وهي أكبر مقبرة في العالم من حيث عدد الزوار. تقع هذه المقبرة في الدائرة العشرين من باريس، وهي أول «حديقة مقبرة» كذلك أول مقبرة تابعة للبلدية في باريس. كما أنها موقع النصب التذكارية لشهداء الحرب العالمية الأولى، وتقع فيBoulevard de Menilmont. كانت تُسمى سابقاً: «cimetière de l'Est» (أي: مقبرة الشرق). استقت مقبرة Père Lachaise اسمها من كائن الاعتراف لدى لويس الرابع عشر، الأب François d'Aix de La Chaise. ومن المشاهير المدفونين فيها من الرجال والنساء: أونوريه دِي بلزاك، غيوم أپوللينير، فريدريك شوپان، كوليت، جان – فرانسواز شامپوليون، جان دِي لافونتين، موليير، إيڤ مونتان، سيمون سينوريه، جيم موريسون، ألفريد دِي موسيه، إديث پياف، كاميلي پيسارو، أوسكار وايلد – م.

على الإطلاق. لم يكن شازديپور يحتمل مواجهة صاحبه. غير متسخ، وشبه حليق. ليس اليوم. شعر بأفواج البشر يتدافعون مارّين به، إنما يبدو كأنه غير مرئي، كما لو أنه قمامة نُسفت في وقت سابق.

ساحة المدينة

وقف مجيد أمام مرآة الحمّام، وراح يحلق ذقنه. كان يفعل هذا على مدى أربعة أعوام وقد أصبحت حلاقة الذقن هذه عادةً أكثر منها طقساً. كان قد استبدل عدّة الحلاقة المحفوظة في حقيبة من الجلد المدبوغ العائدة لأبيه بشفرة حلاقة بلاستيكية وعلبة من كريم الرغوة المضغوط. ما إن فرغ من الحلاقة حتى رش شيئاً من الماء الساخن على وجهه، ومسحه بمنشفة، واتجه صوب الباب.

كان والده في الصالون يستمع إلى إذاعة الـ BBC. مرّ نحو أسبوع منذ غداء الربيع الافتتاحي في البستان وتحذير المُلّا فيما يتصل بالمشروبات الروحية، المبادئ، إحجام الجماهير عن تحمّل النفاق والظلم. هرع إلى المدخل فيما كان مجيد يتأهب للمغادرة. «يلزمكَ أن تمكث في المنزل، يا بُني»، قال له.

«لا تقلق، أبي. أنا ذاهب إلى الساحة لا غير. سوف أعود في غضون ساعات قليلة».

«مجيد، كنتُ أستمع إلى الأنباء. الأمور تغدو حامية جداً. الوضع غير آمن».

«أبي، إنكِ تُصغي إلى [هيئة الإذاعة البريطانية] عما يجري في فناء منزلنا الخلفي».

«إنهم يُقدّمون تقارير دقيقة».

«لديهم جدول أعمالهم الخاص بهم».

«مجيد، من فضلك».

«أبي، سأكون على ما يُرام. أعدكَ بأنه إذا كانت هنالك أيّ إشارة تدل على مشكلة أنأى بنفسي على جناح السرعة».

إن دخول الميدان من شأنه أن يحفز الميت ويُعيده إلى الحياة. كانت مجموعة واجهات المتاجر مرتبطة بأربعة مداخل مقنطرة مفتوحة هي بمنزلة سوق، خلال ساعات النهار. محلات للجبن، اللحم، الشاي، الأنسجة، والدانتيلا، النراجيل والتبغ، تنور لصنع الخبز، إسكافي، سوق الذهب، خيّاط ملابس. هنا وهناك عبر الساحة وقف مزارعون سافروا وأتوا إلى المدينة كي يبيعوا فاكهتهم وخضارهم. في كلّ حدب وصوب باستطاعتك أن تسمع جلبة من الأصوات تشتري وتبيع وتساوم أو تصيح على اللص العَرَضي، بينما يتصاعد الدخان من أكشاك الوجبات الخفيفة التي تبيع البنجر المشوي والبندق المحمص لمتسوقي الوجبات الخفيفة.

كذلك فالساحة هي مكان لقاء المدينة. كان الرجال المسنون يجتمعون على سجادة أمام محل النراجيل وهناك ينفثون الدخان على نحو متقطع ويشربون الشاي، وفيما هم يتناقشون في السياسة، يلتزمون الصمت عند الإشارة إلى وفاة حديثة العهد لصديق أو جار. طلاب معهد لاهوتي[1] في مقتبل العمر كانوا يقفون حول مُدرّسهم، ينقرون خرزات مسبحاتهم بأصابعهم فيما هم يُصغون بجدّ إلى رجل الدين الذي يتكلّم عن حديث نبوي أو سورة من القرآن من دروسهم اليومية. معظمهم مُعجبون بلحية مُدرّسهم، آملين أن تنتج أذقانهم الناعمة، اليافعة، شَعراً غزيراً كهذا في يوم ما. فتيات شابات احتشدن أمام مخزن للثياب، يقهقهن بحياء على مجموعة من فتيان نشالين كانوا يتحرّكون هنا وهناك عبر الجموع مثل قطيع من الأسماك الغاضبة، منتزعين بالخداع حُليًّا رخيصة[2] يأخذونها إلى أجمل الفتيات في المجموعة.

في طريقه عبر الساحة، توقف مجيد كي يُلقي التحية على معارفه وابتسم وأومأ برأسه لأولئك الأشخاص الذي كانوا يعرفونه. كان يُحب الإثارة المُبهرجة للساحة، بقدر ما كان يُحب العزلة الخضراء للبستان.

في البستان، من السهل أن ينسى المرء سائر البشر الآخرين الموجودين

1- معهد لاهوتي seminary: المقصود هنا معهد لإعداد رجال الدين. توجد مثل هذه المعاهد اللاهوتية في مدينة قُم (إيران) ومدينة النجف (العراق)، على سبيل المثال لا الحصر - م.

2- حليّ رخيصة trinkets: هذه الكلمة قد تعني «إكسسوارات» - م.

هناك. كان يحلو له أن يقف عند عتبة البابين الخشبيين قبل الدخول. الهواء في الداخل أكثف، والضوء مُصفّى أكثر. وفيما تكون عيناه مغمضتين، يرهف السمع لنبض الحشرات، للنسيم الذي كان أشبه بأوركسترا تدوزن آلاتها الموسيقية قبل البدء بعزف حركة من حركات الموسيقى. ومثلما توشك السيمفونية على البدء، يأخذ أنفاساً قصيرة قليلة ويمرّ عبر أشجار الفاكهة. لم يكن الطريق الذي يسلكه مجيد طريقاً مستقيماً بما أنه ما من طريق طبيعي يُمكن أن يكون كذلك. يقطع الطريق مباشرة من دون أيّ إنذار مُسبق ويشق طريقه بنحو ملتوٍ عبر الأشجار باسطاً ذراعيه إلى الخارج، ضارباً إياها ضربات خفيفة فيما هو ينطلق مسرعاً. وعقب ذلك يشق طريقه شمالاً ويفعل الشيء عينه. إن التناسق هو معياره الوحيد. يباعد حزمة الشجر ويقفز فوق الجدول على الطريق ويسير بأسرع ما يستطيع صوب المنزل. رئتاه تشتعلان من جُرَع الهواء التي استنشقها.

لمّا يصبح المنزل مرئياً، يخفض سرعته إلى الهرولة[1]، يدس يديه في المسبح المنعكس مُخيفاً السمك وبعدها يدخل خُم الدجاج ويطارد الدجاجات هنا وهناك، ويرشقها بالماء. ثم يدخل حظيرة الماشية ويلقي سلامه على الماعز والخراف. هذه الدواب تتطلّع إليه بنظرات مُحدّقة مشدوهة. النظرات نفسها التي تظهر على وجوهها حين تُقاد إلى الذبح.

كانت أول عملية ذبح شهدها هي ذبح معزاة غائبة عن الوعي جُلبت إلى نيساپور من خارج إيران. لا أحدَ يعرف من أين أتت المعزاة ولا أحدَ كان يريدها بسبب هذه الحالة، غير أنّ بيبي-خانوم جلبتها للبستان. إن مَشهد البشر وهم يتحرّكون نحوها بسرعة جعل المعزاة تتصلّب وتقع مغشياً عليها. هذه الحالة وهبتها صفات إنسانية عميقة. حتى إن المعزاة تعلّمت أن تمد أطرافها أو تستند إلى أحد الأسوار في بداية نوبة الإغماء. لكن بعد مضي سنوات قليلة، أصبحت قلقة ولاح شيءٌ ما في عينيها، نظرة دراية غير مألوفة في عينيْ حيوان. الأشخاص الذين حرّضوها على الغيبوبة من أجل تسليتهم الخاصة كانوا قد أضعفوها بشكل من الأشكال.

1- الهرولة trot: جري بين المشي والعدو - م.

لمّا زارها مجيد، تحرّك ببطء ورقة. تكلّم معها بنبرات هامسة ولاطفها برفق. كان سكونه هو غريباً عليه ولم يفهم، في حينها، أنه الحزن. والحزن -أيّ حزن- ما إن يحسّه المرء حتى يظل يلازمه دوماً ولا يفارقه البتّة.

مَرَضت المعزاة في يوم ربيعي بعد مدة طويلة جداً من بداية عمل ميرزا هناك، وأخذها إلى مؤخرة حظيرة الماشية. تعقبه مجيد وراح يشاهد ميرزا وهو يطرحها أرضاً برفق ويضع قوائمها تحت رِجليه. أخبر مجيداً أن يُشيح بصره فيما هو يفتح الخرطوم ويسكب الماء على فمها. سأله مجيد لماذا يُعطيها الماء فأجابه قائلاً إنه تعبير عن عطفه عليها. استل سكينه من الغِمد في إبزيم حزامه، رد رأسها إلى الوراء، وحزّ حنجرتها. كان الصوت الوحيد المنبعث هو حفيف قَصَبتها الهوائية المقطوعة. حدّق مجيد في عينيْ المعزاة وشاهدها وهي تحرّك أهدابها مرات عدّة وبعدها غابت عن العالم.

ما علِق بذاكرته من ذلك اليوم ليس تلك النظرة في عينَي المعزاة بل تلك النظرة في عينَي ميرزا. لما رفع جسمها المُرتخي، تطلّع مجيد إلى الفتى لحظةً موجزة وشاهد في عينيه شيئاً ما سيتمكّن تالياً من معرفته باعتباره حزناً.

***

إذا كان البستان سيمفونية، فإن ساحة المدينة هي فرقة آلات نحاسية، في حركة سرمدية. مجموعة من الشبان تجمعوا في الوسط، جنباً إلى جنب مع قلّة من رفاق مجيد في المدرسة. مضى كي يرى ماذا يجري هناك. وما إن اقترب أكثر حتى رأى أنّ ثمة جدالاً. كان ثمة شابان يصيح أحدهما على الآخر، كان حزباهما يقفان وراءهما. أحدهما كان حليق الذقن بنحو أملس. أما وجه الآخر فكانت تكسوه لحية ثخينة. كان مجيد يعرف أن الشخص غير الحليق ينتمي إلى الجامع.

«ما موضوع الجدال الذي يستمران فيه؟» سأل غلاماً من صف الأدب الذي انتظم فيه.

«الموضوع المألوف»، أجاب صديقه.

«هل ثمة أنباء عن البروفيسور مُعيني؟».

«سمعتُ أنهم أخلوا سبيله».

«هل تعرف ماذا حدث؟».

«كلّ ما أعرفه هو أننا لن نقرأ أيّ رواية روسية من الآن فصاعداً».

كان مجيد حسن الاطلاع على سائر الأحزاب التي تعمل ضد الحكومة. كان قد استعرضها، في محاولة منه كي يجد ما هو الشيء الذي يؤمن به. جلس مع أعضاء الحزب الديني الذي كان يوجه ازدراءه للانحلال «الغربي» والاستسلام المَلَكي له. جلس مع الشيوعيين، وهم مجموعة من المثقفين كانوا يحتقرون التديّن والمعتقدات الخرافية. جلس مع القوميين، الذين أصبحوا الآن مجرد قشرة لقوتهم السابقة، إذ فارق قائدُهم الذي كان فعالاً في وقت من الأوقات الحياةَ منذ عشرة أعوام مضت. كانت هنالك مجموعات أخرى، بما فيها خليط غريب من الشيوعية والإسلام تتزعمه شخصيةٌ مُلهِمة. إن الشيء الذي يجعلهم جميعاً يشكّلون تهديداً هو أنهم، على الرغم من اختلافاتهم، كانوا متحدين ضد المؤسسة نفسها التي كانت مدعومة من الأشخاص الأثرياء، الأغنياء، الميسورين، كثيري السفر إلى بلدان أجنبية، ذوي الارتباطات الكثيرة، الأشخاص الذين ينالون رعاية واهتماماً كبيرَين، الذين تركتهم الحكومة وشأنهم. ورغم أنهم لا يجتازون أياً من الخطوط، لكن، كما رأى فيما يتصل بالبروفيسور مُعيني، بات صعباً بنحو متزايد أن يعرف المرء أين رُسم ذلك الخط.

هذه المجاميع كلّها لها آراؤها الخاصة في كيف ينبغي أن يكون العالم. وجد نوى العُقم في سائر هذه المجاميع، بعضها أكثر من بعضها الآخر. في اعتقاده، كلّهم لديهم الحق في أن يُدافعوا وأن يحكموا.

ضحك جمشيد على مثاليته وجولاته المتنوعة من أجل اللقاء بهذه المجاميع، حيث كان الخوف من مداهمة البوليس السري يغدو واقعياً أكثر مع كلّ يوم يمر. الاحتجاجات في الشوارع كانت تُسحَق بسرعة ويُعتقل المُحتجون. بدا كأن الأمكنة الوحيدة المحمية من وصول السلطات هي المساجد. «جِد شيئاً تؤمن به واسأل نفسك: هل ترغب بأن تموت من أجل هذا المُعتَقد؟» سأل جمشيد. «والشيء الأهم، هل ترغب بأن تقتل من أجله؟».

بدأ الحشد يندفع نحو الجدال الذي كان يتصاعد. توقف الشابان عن المشاجرة حول المعتقدات السياسية وراحا الآن يتراشقان بالصفات. وكانت تتدفق بينهما اتهاماتٌ بالتسمم بالأفكار «الغربية»، بالحماسة، بالانحياز إلى «العرب» ومبادئهم، اتهام بالشيوعية، والنخبوية. اقترب الشاب حليق الذقن من وجه الشاب الآخر، وغرس إصبعه في صدره فيما هو يصيح عليه. فقد الشاب ذو الوجه الملتحي توازنه، وترنّح. وبدأ كلّ واحد من الشابين يلكم الآخر، أما زمرتاهما فكانتا تقفزان وتنخرطان في الشجار.

كان مجيد وزميله من المدرسة قد سحبا نفسيهما من الاشتباك. ولمّا وقفا جانباً، نظر زميله من حوله بعصبية. «أنا مُغادر»، قال. «لا يسعني أن أحتمل الوقوع في مشكلة ما. نلتُ ما يكفي من المشاكل خلال هذا الشهر وإذا ما وقعت في مزيد منها سيكون ذلك أكثر مما يُطيقه أبواي».

ظلّ مجيد يراقب. «يقيناً»، قال له، «أراك تالياً في الصف».

اقتحم عددٌ من رجال الشرطة الساحة. تفرّق الحشد بسرعة شديدة مثلما يتفرق سرب من الطيور تتغذى لدى رؤية ثعلب. وحده الشاب ذو الوجه الحليق لم يهرب. وقف هناك، متجمداً، ناظراً إلى اللامكان. مرّ رجال البوليس بجانبه، كما لو أنه شبح. اقتحموا الساحة باحثين عن خصومه.

أدرك مجيد أن جميع أصدقائه قد انصرفوا. يمّم وجهه شطر النافورة وجلس على الحافة. كان الغلامان اللذان تجادلا في سنه، في الثامنة عشرة، وكانا مقتنعين أصلاً بمعتقداتهما وكانا مستعدين لأن يكره أحدهما الآخر. مهما كان نوع قسوة الطبيعة، الحيوانات، الأسماك والطيور لا تسعى للانتقام أو رد الاعتبار. إذاً لماذا يتعين علينا تفسير كلّ أنواع القسوة البشرية، والمظالم البشرية؟ هذه الأشياء تُنقل من جيل إلى جيل إلى أن يُستدعى شخصٌ ما كي يدفع الورقة النقدية، ويجعل الدورة تسير مرةً أخرى.

رفع بصره ورأى الشاب ذا الوجه الحليق يجلس الآن على الأرض ورِجلاه ممدودتان إلى الخارج من دون نظام، فيما هو يُمسك بجانبه الشمال بيده. كانت يده مُضرّجة بالدم. الأرض المحيطة به داكنة جرّاء الدم. خفض نظراته غير مُصدّق.

مشى مجيد تجاهه إلا أن الحشد دفعه جانباً. رجال متنوعون حاولوا جاهدين أن يساعدوه إلا أنه صرخ بألم شديد. كان عدم التصديق في عينيه قد أفسح المجال للخوف والعجز. أجال النظر في ما حوله إلى الوجوه الغريبة، فمه يتحرك، من دون أن يصدر منه الكلام. دُفع مجيد إلى الأمام. الشاب الآن ينظر وعيناه تطرفان لا غير.

في الوقت الذي جلب فيه رجال البوليس نقالة إلى مسرح الحَدَث، كان قد نزف الشابّ دماً غزيراً ورقد ميتاً على الأرض. رفعوه وأخذوه بعيداً فيما تفرّق الحشد. وقف مجيد عند بركة الدم التي بقيت هناك. حاول أن يتخيّل أُم الشاب حين يُخبرونها أن ابنها بات في عِداد الأموات. سمعها تصرخ وتولول: «ابني، ابني، ابني»، فيما هي تلطم رأسها.

تخيّل الشاب الذي اقترف جريمة القتل وهو الآن مختبئ في المسجد مُحاطاً برفاقه المؤمنين. الشاب الذي لن يُغمض له جفن تلك الليلة والذي سيُمدح، في صباح اليوم التالي، على جرأته واستعداده للدفاع عن العقيدة.

المُلّا والقاتل

استيقظ المُلّا من نومه قبل بزوغ الشمس ومضى إلى الحمّام كي يتوضأ. تأمل لحيته في المرآة، وفرح بكثرة الشعرات البيض فيها. وبعدها أدى صلاة الفجر قبل تناول الشاي والفطور. سكن المُلّا في المنزل الذي وُلد فيه، وهو لا يبعد سوى شوارع عدّة عن ساحة المدينة. إمعاناً في إذلاله، كان أبوه قد ترك المنزل لشقيقه الأصغر سناً، لكن بما أنّ القاضي انتقل للسكن في منزل زوجته بالبستان، فقد تم تمرير المنزل إليه.

المُلّا، الذي مُنح اسم «حبيب الله» -كانت أسرته تسميه «حبيب»- هو الابن الأكبر سناً في عائلته. أما القاضي، الذي مُنح اسم «أكبر»، فهو الابن الأصغر سناً. كانت لهما شقيقة واحدة بينهما، اسمها «زهراء»، وكان يتم تجاهلها، في أغلب الأحيان، بسبب كونها امرأة. كانت زهراء هي أُم شازديپور وكانت قد فارقت الحياة أثناء ولادته. وذات مرة سمع المُلّا قمر وهي تخبر خالتها بيبي-خانوم بأن الشيء الوحيد المتبقي من حياة زهراء القصيرة التعيسة هو الأفندي صاحب ربطة العنق. ومع أنّ هذه ملاحظة قاسية، إلا أنّ المُلّا تأثر في دقتها.

لمّا كان حبيب صبياً، لم يكن لديه حجرته الخاصة وكان ينام في غرفة مكتب أبيه. في كلّ ليلة كان يفرش البطانيات على السجادة أمام كرسي قراءة أبيه ويجمعها بعد نهوضه من النوم مباشرة كي لا يزعج أباه حين يشرب الشاي ويقرأ جريدته صباحاً. كان يحتفظ بحقيبة كتب صغيرة عند باب غرفة المكتب. كانت تضم كلّ مقتنياته، وكان يحملها معه إلى المدرسة يومياً.

ورغم أنّ المُلّا يمتلك عدداً من غرف النوم، إلا أنه لا يزال يختار النوم في غرفة المكتب. لم يكن يشعر بالراحة إلا هناك، وكان ينام نوماً عميقاً.

في سنوات شبابه أحب فتاة. كانت تمرّ من أمام منزله صباح كلّ يوم في طريقها إلى المدرسة، ولمّا كانت تفعل ذلك، كان يُمسك بحقيبة الكتب العائدة له ويندفع بسرعة خارجاً من الباب الأمامي من دون فطور كي يمشي بجانبها. في أول الأمر، لم تعترف بوجوده. وبعدها في يوم من الأيام، كان قد استغرق في النوم إلى ما بعد وقت الاستيقاظ المألوف. التفتت الفتاة وانتظرته أمام منزله. ركض مسرعاً، متغضن الملابس. ضحكت الفتاة حين حاول بطريقة غير مُتقنة أن يسوّي ثيابه. استمرت هذه الحال شهوراً عدة. لم يتبادلا الحديث معاً، ولا مرة واحدة. كانت الفتاة تنتمي إلى أسرة طيبة، وإن الانخراط في حوار مع غلام غير مُراقَب شيءٌ غيرُ لائق.

في أحد الأيّام بلّغه أبوه أن يغتسل ويرتدي أبهى ثيابه. كانت لدى الأسرة قضية مهمة من الواجب أن تحضرها. قيل له إنه يتعين عليه أن يحرص على ألا يتكلّم ما لم تتم مخاطبته مباشرة ويلزمه أن ينتبه إلى طبقة صوته إذا ما تكلّم، بما أن صوته هو صوت أنفي، حاد وغير مُحبب.

سار أفراد الأسرة سوية بصمت. شقيقه الأصغر سناً، أكبر، يمشي في الصدارة مع أبيه، وحبيب أُبعد كي يمشي وراءهما مع شقيقته، زهراء، على الرغم من موقعه في الأسرة باعتباره الابن الأكبر سناً. كانت وفاة أمهم قد حصلت قبل بضعة أعوام إلا أنّ الحادثة لا تزال تورث حبيباً قدراً كبيراً من الوحدة والحزن. لم يكن أبوه يسمح له بأن يتكلّم عن ذلك.

وبينما كانوا يقطعون الطريق متجهين صوب منزل ما، رأى فتاة في شباك غرفة المعيشة العائدة لها، تجلس بهدوء بفستانها الذي بلون الجواهر وثمة وشاح من الدانتيلا يكسو شعرها. كانت يداها تقبضان على ركبتيها. كانت تلك هي الفتاة التي كان يسير معها في طريقه إلى المدرسة. بدأ قلبه يخفق بقوة في صدره ونزّت حبات عرق على وجهه. دار في خلده أنّ الفتاة ربما ذكرت شيئاً ما عنه لوالديها ولا بد أنهما وافقا. شعر أن بسمة تعبر وجهه وكافح كي يسيطر عليها ويمنعها من أن تتحوّل إلى بسمة عريضة كاملة لمّا اقتربوا من المنزل.

كان جميع أعضاء أسرة الفتاة واقفين ورحبوا بهم فيما هم يدخلون المنزل. جلس لصق شقيقته في ركن الحجرة وشرع يُحدّق في الفتاة. لم تنظر إليه بل ظلت توجه أنظارها إلى حجرها. خطط ما يتعين عليه أن يقوله لها حالما يُقال لهما أن يذهبا إلى الغرفة الأخرى كي يجلسا ويتحدث كلّ واحد منهما مع الآخر على انفراد. ستكون تلك أول مرة يتحدثان فيها، وكان يود أن يحرص على أن يتحدث حديثاً جيداً. تساءل ما إذا كان شيئاً سابقاً لأوانه أن يقول لها إنه يعتقد أنها جميلة.

بدا أبوه، الذي كان من دأبه أن يتحدث بشكل مباشر وبثقة، كأنه يتصرف بنحو غريب. كانت السجاجيد الحرير السميكة، المُتَكآت المطرزة بالذهب ووسائد الأرض، الصواني الفضة ذات النقوش المعقدة التي تطفح بالحلوى، وآنية الشاي الضخمة قد حوّلته إلى طفل متجاوز سنه. تكلم بسرعة بأفكار متشظية، ملوّحاً بيديه هنا وهناك.

كان أفراد أسرة الفتاة جالسين بسكون كالأحجار مع أنهم سايروه. على الرغم من نَسبهم والتباهي بالثروة، لم يكن بحوزتهم مال. إلا أنه كان يملك المال. بعد لحظات قليلة من تقديم الشاي والحوار الخفيف، التفت أبوه إلى والد الفتاة وخاطبه قائلاً: «أتينا كي نطلب يد ابنتك للزواج من ابننا أكبر. هذا إذا توافق بيبي-خانوم عليه».

وفي تلك اللحظة تحديداً، أُغلق بابٌ في داخل حبيب وأُوصد بالرتاج من الداخل. ومنذ ذلك اليوم فصاعداً، لن يفتح ذلك الباب أبدًا وما من فرد سوف يجتاز عتبته مرة أخرى.

في صباح اليوم التالي جمع بطانياته ووسادته وانتظر في غرفة المكتب. دلف أبوه إلى الحجرة ومعه كوب الشاي والجريدة وجلس على كرسي القراءة العائد له. فتح الصحيفة، وحجب ابنه عن مجال رؤيته. خطا حبيب للأمام. تنحنح وقال له إنه يود الذهاب إلى «معهد نيساپور اللاهوتي».

كان متوتر الأعصاب وانبعث صوته حاداً. طوى والده أعلى الجريدة كي ينظر جيداً إلى ابنه. كان قد تأثر بطموح ابنه لأن يصبح رجل دين وانزعج من صوته. وافق على الفور وانطلق الفتى في رحلته. كان في الثامنة عشرة من عمره.

ولمّا أصبحت الحافلة أمام المعهد اللاهوتي، تلعثم حبيب ببزته الوحيدة. كانت بزته زرقاء داكنة، بالية جرّاء الاستعمال، والسروال مكسواً بالسخام، والقميص تهرّأ من الغسل المتكرر باليد. جميعهم يرتدون ملابس جديدة أنيقة ومعهم حقائب مناسبة. نفض الغبار عن نفسه وعلّق حقيبة الكتب العائدة له على كتفه واجتاز الشارع.

كان المعهد اللاهوتي بناية خرسانية ضخمة من طابقين. كانت بوابة المدخل من الحديد المطاوع مزخرفة بآجرات فيروزية تتذبذب بلون بارد إزاء الجدران الرمادية الكئيبة. كان الطلاب يمرون من خلال الفناء الوسطي، لابسين العباءات والعمائم. بيد واحدة كانوا يحملون كتبهم، وباليد الأخرى يُمسكون بالمسبحات. يتردد صدى أصواتهم عبر السياج.

بدأ الشبان من الحافلة يقهقهون. أجال النظر مِن حوله. لم يكن يُدرك أنه كان يمسك قضبان البوابة بيديه كلتيهما، وأنّ رأسه محشور بينهما. حث شاب في المعهد اللاهوتي خطاه نحوه ببسمة مُرحّبة: «أيها الأشقاء! أهلاً بكم! أهلاً بكم!».

فتح الطالب البوابات وأرشد الشبان في الناحية الثانية من الفناء إلى القاعة الرئيسة. رفع حبيب بصره ناظراً إلى منبسط سلّم الطابق الثاني الذي كان يطوّق الفناء. كانت رائحة ماء الورد وأحجار الصلاة تنجرف عبر الهواء. طلاب المعهد اللاهوتي الشبان ينطلقون بنحو ملتوٍ داخلين إلى الغرف وخارجين منها، بعضهم يستند إلى الدرابزين، ينقر بأصابعه حبات مسبحته، منخرطاً في مزاح خفيف، فيما كان بعضهم الآخر منخرطاً في جدال جاد. لمح رجلاً أكبر سناً منهم، رجل دين ذا مرتبة عالية، أغلب الظن أنّه مُدّرس، واقفاً في مدخل إحدى القاعات الدراسية. وعلى خلاف الشبان، كانت نظراته صارمة وكئيبة. كانت عيناه العميقتان الداكنتان تتعقبان حبيباً وهو يدخل إلى القاعة الرئيسة للمعهد.

رافق مُضيف الطلاب سيراً على قدميه الشبان عبر التسجيل وأخذهم في جولة حول المبنى، قاعة الطعام، غرف الصفوف، قاعة الصلاة، المكتبة وقاعة الدراسة، وفي الختام راح يرشدهم إلى الطابق العلوي ويُريهم

حجراتهم: طالبان في كلّ حجرة. كان حبيب هو الرجل الذي يختلف عن مجموعة الطلاب وقد مُنح غرفته الخاصة. دخلها وأغلق الباب. كانت الغرفة صغيرة ومن دون نافذة، وذات فتحة تهوية أعلى الباب. أنزل حقيبة الكتب العائدة له على الأرض ونظر إلى السريرين: سرير واحد في كلّ جهة مع بذلة طالب معهد لاهوتي مُلقاة على كلّ سرير. لم يسبق أن كانت له غرفته الخاصة، دعك من أن يكون هنالك سريران كي يختار أحدهما. هذا السخاء المفاجئ غمره بشعورٍ من الخجل العارم.

دخل إلى قاعته الدراسية الأولى مرتدياً بذلته الرسمية، بذلة المعهد اللاهوتي. كانت كبيرة عليه بعض الشيء. جلس الفتيان الآخرون على الأرض المفروشة بالسجاد، في مجموعات صغيرة مما يبدو أنها بدايات صداقات، وانخرطوا في الحوار فيما كانوا يطوون عمائمهم. لم يكن هنالك منفذٌ له كي يجلس، لذا وجد مقعداً في زاوية الغرفة له وحده وراح يُقلّدهم. رفع ركبته إلى الأعلى واستعملها باعتبارها رأساً كاذباً، وبعناية جعل يطوي النسيج حولها وحشر طرفه في الأسفل. رفع العمامة من على ركبته ووضعها على رأسه بالطريقة ذاتها التي فعلها الشبان الآخرون.

دخل رجل الدين ذو العينين الغائرتين الداكنتين الغرفة. تدافع الشبان بالمناكب وانتظموا في طوابير ووجوههم إلى الأمام. جلس رجل الدين على منصة مرتفعة قليلاً أمام الصف الدراسي ونظر إلى التجمع الجالس أمامه. فتح حاملَ كتبٍ مطوياً ووضع القرآن عليه. فتح الكتاب وراح يتصفحه، من دون أن يرفع بصره فيما هو يقول: «إن إحدى أهم المهارات التي يتعين عليكم أن تتقنوها هي الخطبة العلنية. إنها جزءٌ جوهري من ترويج عقيدتنا وتجديدها. وإذا ما باء مجهودكم هذا بالفشل، فإنكم بذلك تخذلون الله ورسوله الكريم، سلام الله عليه».

تمتم طلاب الصف بلازمة «سلام الله عليه». أحس حبيب بالخوف. لم يكن صوته يزيد على كونه مصدر إزعاج وخجل في نطاق أسرته. في المدرسة، كان يتحاشى دوماً اضطرار التكلّم أمام الصف من خلال الدراسة المتقنة والعلامات المدرسية العالية في الامتحان التحريري. إنما هنا، لا مَفرّ. نظر إلى الباب وعلى مدى لحظة قصيرة فكّر في الهَرَب. لكن إلى أين يلوذ

بالفرار؟ سمع رجل الدين يقول: «أنت»، والتفت كي يرى مَن هو الشخص الذي عناه. الصف كلّه التفت كي يواجهه لمّا رفع رجل الدين إصبعه وأشار إلى حبيب. «اقرأ السورة الأولى من القرآن».

تجمد حبيب من الرعب. كان قد تفرس تواً في رجل الدين بوجه يعلوه تعبيرٌ موجوع.

«ما الخطب، أيها الشاب؟ هل أنت أخرس؟».

هزّ حبيب رأسه نفياً.

«لماذا لا تقرأ إذاً؟».

نظر حبيب إلى الطلاب الآخرين. كانوا جميعاً يُحدّقون فيه. كان بعضهم قد أحسّ بالارتباك نيابة عنه، وبعضهم الآخر استمتع بالإذلال الذي تعرّض له. كان جاره قد سلّمه القرآن باليد. فتحه حبيب ونظر إلى السورة الأولى. كان يعرفها عن ظهر قلب. أخذ نَفَساً عميقاً، أغمض عينيه، ورتل الآية الأولى. دوّت صرخته ذات الطبقة الصوتية العالية عبر الغرفة. كان زملاؤه في الصف قد كبتوا ضحكاتهم إلا أنه كان قادراً على سماع التشنجات اللاهثة. توقف عن الترتيل وفتح عينيه. كان رجل الدين قد أسكت الصف وخاطب حبيباً قائلاً: «يمكنني أن أفهم لماذا كنتَ متردداً. استمرّ في تلاوتك».

أغلق حبيب الكتاب ودفع نفسه على قدميه. كانت رِجلاه لا تزالان مُخدّرتين قليلاً من الخوف. مشى بتؤدة إلى مقدمة الصف ووقف أسفل المنصة حيث جلس رجل الدين. هبّ الأخير واقفاً وقاد حبيباً إلى أعلى المنصة كي يقعد معه. واجه أحدهما الآخر أمام الصف. أدار حبيب رأسه كي ينظر إلى الفتيان المُحدّقين فيه.

« انظروا إليّ، أيها الشبان»، قال رجل الدين.

التفت حبيب ونظر إلى رجل الدين. وفي حيز قريب، لم تكن نظراته حازمة بقدر ما كانت ثابتة. إنه شيء مُريح أن ينظر إليك الملأ بقصد معين. ضغط رجل الدين بيده على حنجرة حبيب وقال له، «الآن رتل السطر الأول».

«بسم الله»، قال حبيب، بصراخ ذي طبقة عالية. صفع رجل الدين

حنجرته بقوة شديدة بحيث أنّ حبيباً ارتد إلى الوراء كي يستعيد توازنه. أرشده رجل الدين بأن يأتي إلى الأمام، وأعاد يده إلى الموضع، وخاطبه قائلاً: «من جديد».

استجمع حبيب قواه من أجل نجاح جديد فيما هو يلفظ «بسم الله» بطبقة صوت عالية. جاءت بقوة أكبر حين قال رجل الدين: «من جديد».

كانت حنجرة حبيب على نار. فتح فمه، وبينما كان يهمّ بأن ينطقها ثانية، ضغط رجل الدين بقوة على حنجرته مرة أخرى. كانت قوة يده قد جعلت صوت حبيب يهبط إلى أسفل حجابه الحاجز وانبعث صوتٌ عميق معسول ينبثق من حنجرته فيما هو يُعلن قائلاً: «بسم الله».

تطلّع حبيب إلى الفتيان. كانت الحجرة ساكنة، مذهولة. رجع رجل الدين إلى الوراء وانبرى قائلاً: «استمرّ».

ومنذ ذلك اليوم فصاعداً، ظلّ صوت حبيب كما دربه رجل الدين. كان الفتيان في الصف قد اصطخبوا كي يصادقوا الطالب الذي تحت رعاية رجل الدين، هذا الخطيب الجمرة. أمضى حبيب الأعوام الأربعة التالية منعزلاً في المعهد اللاهوتي يدرس كلّ شيء من الفلسفة الإسلامية إلى الفقه إلى اللاهوت، تفسير «الكتاب المقدّس»، التاريخ، والمنطق، وكان يتناقش خلال ليال كثيرة مع زملائه الطلاب ومُدرسيه، ويشحذ مهاراته الخطابية وميوله السياسية. أمسى جلياً أنه في نطاق المعهد اللاهوتي هنالك مدرستان من الفكر: الهادئون الذين يؤمنون أنه ليس بالإمكان خلق جنة على الأرض ومن هنا كانوا يرفضون الانخراط في السياسة، والناشطون الذين يؤمنون أنه من مسؤوليتهم أن يناضلوا في هذا العالم من أجل تحقيق العدالة الإلهية. كان مُدرّسه ينتمي إلى المدرسة الثانية وحبيب أطاع تعاليمه.

حبيب لم يفارق مُدرسه وظل يلازمه دوماً إلى أن وصله خبر وفاة والده. ارتدى ملابسه الكاملة، ملابس رجل الدين، وبلحيةٍ سوداءَ خصبة، عاد كي يشرف على مراسم دفن أبيه ويرجع إلى منزل صِباه.

فيما هو يطالع الجريدة كما تعوّد أبوه أن يفعل، جلس المُلّا الآن في غرفة المعيشة العائدة له وجعل يحدّق في الصورة الفوتوغرافية التي يظهر فيها ابن تاجر محلي ثري. الشاب الذي قُتل في الساحة. كان قد شاهده في أرجاء المدينة، يلبس على الدوام آخر الموضات الأوروبية، مستنداً إلى سيارته «الستروين»[1] الحمراء اللامعة، يغمز للفتيات المارات بجواره. كان الشاب نذلاً، وُلد ولديه امتياز خاص. بعد عام واحد، كان قد انقطع عن الانتظام في الجامعة وبات يسكن في المنزل. عمل في مهنة أبيه بعد أن بدد ثروة صغيرة على ملذاته، وتعيّن على والده- وكان المُلّا يعرف- أن يدفع المال للفتاة الصغيرة التي زرع ابنُه طفلاً في رحمها. كانت الفتاة تنتمي إلى أسرة مُتديّنة وكان قد أرسلها في منتصف الليل إلى مَشهد كي تقوم بإجهاض الطفل سراً. نظر المُلّا إلى وجه الشاب النظيف، الناضر في الجريدة. كان النعي يدلّ على مِحَك بالنسبة إلى الولي، أيّ ولي. وهذا ما جعل دمه يتجمد.

جُرّ من غليانه بقرع على الباب. ولمّا فتحه، كان الشاب الآخر، الشاب الذي نفذ عملية القتل، واقفاً عند عتبة داره. خلع حذاءه لدى الباب وانحنى كي يُقبّل يديْ المُلّا قبل دخول المنزل. تبع رجل الدين إلى حجرة المعيشة ووقف جانباً ويداه معقودتان أمامه، عيناه تنظران إلى الأرض إلى أن انتظره المُلّا أن يجلس بغرض تناول الشاي. صبّ له المُلّا الشايَ واعتدل في جلسته، وراح ينقر خرزات مسبحته بإصبعه، وانبرى قائلاً: «هل رجعت إلى منزلك منذ عهد قريب؟».

«نعم. كنتُ في جامعة مَشهد».

«ما الذي جعلك تأتي إلى منزلك؟».

«أسرتي بحاجة ماسة إليّ».

1- الستروين بالفرنسية (Citroën): هي شركة فرنسية لصناعة السيارات، أسسها أندريه سيتروين سنة 1919، وهي جزء من بيجو سيتروين، منذ العام 1976. اشتهرت ستروين بالتكنولوجيا المتقدمة وقامت بثورة في عالم صناعة السيارات - م.

«فهمت».

استأنفا شرب الشاي بصمت. لاح على وجه الشاب تعبير متألم. «حاج-آغا»، انبرى قائلاً. «لم أكن أقصد إيذاءه. أقسم لك. كنتُ أتجادل معه فيما يتصل بوضع الناس الفقراء في بلادنا والمسؤولية التي يتحملها هو وأولئك الذين يملكون امتيازه. لم أكن أعني أن ألحق الأذى به».

«لماذا آذيته إذاً؟».

خفض الشاب بصره ناظراً إلى يديه ولزم الصمت لحظاتٍ، ثم قال: «سوادٌ غطى عينيّ وأحسستُ بكراهية قوية جداً فأجبرت يدي. شاهدتُ الغضب يرفع يدي وتدفع السكين في جنبه. طعنته بالسكين كما لو أنني أطعن حيواناً. أردت أن أمزقه إرباً إرباً. كنتُ متأهباً لأن أقف هناك وأطعنه مراراً غير أن الآخرين جرّوني بعيداً حين جاء رجال البوليس».

«ماذا قال القتيل؟».

«الأمر لا يتعلّق بما قاله».

ظلّ الشاب يتمايل جيئة وذهاباً. نظر إلى الباب كما لو أنه يرسم طريقاً للهَرَب.

«ماذا قال؟».

«الأمر لا يتعلق بما قال، بل بما فعل».

«ماذا فعل؟».

نظر الشاب إلى الجدار الكائن وراء المُلّا وبدأ يتكلّم بصوت رتيب، كأنه يصف فيلماً سينمائياً كان يشاهده: «أتت إلى حجرتي في الجامعة. شقيقتي. لم أكن أتوقع رؤيتها. بدت خائفة جداً. حاولت أن تخبرني بما جرى، لكنها في اللحظة التي ذكرت فيها أنها كانت مع رجل، بدأتُ أضربها. صرختُ عليها لأنها ألحقت الخزي والعار بأسرتنا وظللتُ أضربها. كانت منكمشة من الخوف في زاوية الغرفة، معتذرة عن فعلتها الشنيعة. لاذت بالفرار وركضت وراءها إلا أنها توارت عن الأنظار في الشوارع. مضيتُ إلى الفراش وأيقظني أحد رفاقي في الغرفة. دخلتُ الرواق ورفعت سماعة

الهاتف. كان المتصل هو أبي. كان بوسعي أن أسمع أمي تبكي وتولول في الخلفية وعرفتُ أن شيئاً مروِّعاً قد حصل».

حوّل نظراته إلى المُلّا واستطرد قائلاً: «شنقت نفسها صباح ذلك اليوم في الفناء الخلفي. شنقت نفسها على شجرة تعوّدنا أن نلعب تحتها. كان الطفل لا يزال في رحمها. لم تخضع لعملية الإجهاض».

التوتر المشوب بالألم الشديد على وجه الشاب توارى ببطء وبدا تقريباً كما لو أنه تحوّل إلى حجر فيما هو يقول: «لقد أخذ حياة شقيقتي، لذا أخذتُ حياته. وسأواجه العواقب مهما كان نوعها».

«سأذهب معك إلى محطة البوليس».

«نعم».

«أنت تعرف أننا متى ذهبنا إلى هناك فليس من عودة».

«نعم».

«سوف يشنقونك».

«نعم».

«هل أنت مستعد لما يُمكن أن يُحدِث هذا لأمك؟».

«نعم».

«ربما ينبغي لك أن تذهب إلى المنزل وتقضي بعض الوقت مع أفراد أسرتك. سوف آتي لزيارتك في بحر أيام قليلة وسوف نمضي إلى مركز الشرطة معاً».

«نعم».

كان المُلّا قد سيطر عليه الحب والكبرياء. إن هذا الشاب الذي جلس أمامه دقائق قليلة لا غير كان أشبه بالابن بالنسبة إليه. وعلى الرغم من ذلك، فالمُلّا هو من أعطى تعليمات لأحد أتباعه كي يفتش عن هذا الشاب ويُخبره باسم المُتبطل الذي زرع جنيناً في أحشاء شقيقته.

إن استشهاد هذا الشاب سوف يضع أساساً لانتفاضة كبيرة. كان جندياً في حرب من أجل روح أُمة ما. كان المُلّا قد تعهد بأن يستعمل كلّ ذرة من

مهارته الخطابية كي يتأكد من أنّ هذه الميتة سوف تؤشر بداية نهاية المَلَكية وإنقاذ آلاف الشابات البريئات من النخبة المفترسة. وضع يده على كتف الشاب وقاده إلى الباب وخاطبه قائلاً: «سوف آتي لزيارتك في غضون أيام قليلة».

ابتسم الشاب للمُلّا فيما هو ينتعل فردتيْ حذائه وتوجه نحو الشارع. أحس بخفة تغمره لم يحس بها منذ أن أتت شقيقته لزيارته، طالبة منه العون.

سيمفونية في الخرائب

كان المهرجان السنوي للفنون في شيراز وپيرسيپوليس[1] قد جرى في العقد الأخير ونال إطراءً كبيراً. سنوياً، كانت نسرين تلصق نفسها بجهازي التليفزيون والراديو، تشاهد وتستمع إلى الفنانين في ميادين الموسيقى، المسرح، الرقص، السينما، من داخل الوطن وخارجه. كان المهرجان قد شكّل رغبتها في أن تمثل على خشبة المسرح وجعلها تستسلم لأخيلة جامحة تهرع فيها إلى التدريبات والمقاهي، وتمضي في جولات عالمية، متحررة من كلّ ضروب التقليد السائدة. هذا التصوّر الأخير راقها أكثر من التصوّرات الأخرى كلّها. كانت تُريد أن تكون هي نفسها. الموضع الوحيد في حياتها الذي وجدت فيه هذه الحرية كان في اللحظات التي تقاسمتها مع مجيد.

كان مجيد يعرف عمق طموحاتها. عيناها تتألقان في كلّ مرة تتحدث فيها عن الأداء المسرحي. أما أهواؤه فكانت حول العالم، كيف ينبغي أن يكون، إلا أنه لم يكن كما يتمنى هو. غالباً، يبدو تركيز نسرين الوحيد على

1- پيرسيپوليس Persepolis: هي مدينة تاريخية أقامها الإمبراطور دارا (داريوس) العام 518 ق. م بفارس لتكون عاصمة الإمبراطورية الأخمينية. دمرها الإسكندر الأكبر في العام 331 ق. م. وتوجد فيها القصور وإيوان الأعمدة. كانت مدينة حصينة عند سفح صخرة جنوبي شرقي إيران على بعد 70 كم إلى الشمال الشرقي من مدينة شيراز. في الفارسية الحديثة، يعرف هذا الموقع باسم (تخت جمشيد) أي (عرش جمشيد) أو (پارسه). أقدم بقايا هذا الموقع يعود تاريخها إلى العام 515 ق. م. يُدعى هذا الموقع عند الفرس القدامى باسم (پارسه)، أي «مدينة الفرس». أمّا ترجمة اسم (پيرسيپوليس) في اليونانية فتعني «المدينة الفارسية». - م.

الفنون شيئاً تافهاً في رأيه. «كيف يمكنكِ ألا تكوني مهتمة بالسياسة؟» قال لها أخيراً. «إن تجاهل الظلم جريمةٌ لا تُغتَفر».

فكرت في ردها قبل أن تتكلّم. كانت تريد أن تكون صادقة معه، وهو شيء لم يسبق لها أن أخذته بعين الاعتبار في علاقتها مع أمها وأبيها. كانت تريده أن يراها. «مجيد»، قالت له، «أريد أن تكون حياتي جديرة بالعيش. وإذا كان باستطاعتي أن أفعل شيئاً من شأنه أن يُثيرك، وربما يجعلك تشعر أنك وحيد بنحو أقل في العالم، كيف يمكن أن يكون هذا جريمة لا تُغتَفر؟».

في أول الأمر، لم يكترث مجيد باعترافها ولم يكن في رأيه أكثر من عاطفة صبيانية. كان قد أمضى وقتاً طويلاً جداً في صحبة شبان مثاليين كانوا يتكلّمون عن «نحن» و«هم» وكانت تواجههم شابة تكلّمت عن «أنا» و«أنتَ» بدت تافهة. إنما بعد مضي أيام قليلة، كان قد تسلّم باليد كُراساً في اجتماع سياسي. كان الكراس هو ترجمة فارسية لكتيب تولستوي المعنون «في الفوضوية».

كان السطر الأخير في الكراس يقول: «على الرغم من ذلك، في عالمنا يفكر كلّ إنسان في تغيير الجنس البشري ولا أحد يفكر في تغيير نفسه».

بعد اللقاء مباشرة، مضى مسرعاً إلى منزلها واعتذر لأنه لم يستمع إليها. خاطبها قائلاً إنه سوف يدعمها في سعيها لتحقيق طموحاتها. «إن الطريقة التي تختارينها كي تعيشي حياتكِ ذات أهمية كبيرة بالنسبة إلي»، قال لها. «سوف أتبعكِ إلى أيّ مكان».

عند غداء الأسرة الأسبوعي، أعلن الاثنان، بيبي-خانوم وأكبر-آغا أنهما سوف يحضران المهرجان. هل يُبالي أيّ شخص بالانضمام إليهما؟ شازديپور كاد يصرخ فرحاً. كان مولعاً بالأمر وخاصة بأوركسترا صغيرة بولندية كانت قد وضعت برنامجاً بأن تعزف الرباعية الوترية في B Minor العائدة لصموئيل باربر[1]. لكن لو لم يذهب هذا الخال وهذه الخالة، فما

1- صموئيل باربر Samuel Barber (1910-1981): مؤلف موسيقي أمريكي كتب الموسيقى الأوركسترالية والأوبرا والموسيقى الكورالية وموسيقى البيانو. يُعد أحد أشهر المؤلفين الموسيقيين في القرن العشرين. اعترافا بمكانته البارزة في الموسيقى

كان ليذهب بمفرده. في صالونه فقط يكون شازديپور رجل العالم[1]. كانت لديه كثير من الكُتيبات والكتب لِهداية السياح وأحلام كثيرة بالسفر إلى مدن أوروبا الكبرى كي يرى المتاحف ويحضر عزف السيمفونيات. إلا أنه وصل إلى مرحلة التخطيط بحماسة وخيال بالغين بحيث أنه لمّا حان وقت العمل، كانت حماسته قد ذوت أصلاً، واستحوذت عليه مخاوفه.

فيما يتصل بمهرجان هذا العام، كان يحرص على أن يُبقي أحاسيسه مكبوحة ولا يهتم إلا بالأشياء الضرورية. ألقى نظرة موجزة إلى كراس أوقات الفعاليات الفنية، اتصل بأحد الفنادق كي يقوم بالحجوزات السياحية، وتفحص جداول حركة القطار المتجه إلى طهران. لم يكن يُقيم حفلات موسيقية كبرى مُتخيّلة في صالونه أو يشتري حقيبة سفر جلدية أو سروال سفر من الكتان.

كانت قمر ضد فكرة الذهاب بكل معنى الكلمة. لم يكن بوسعها أن تفهم مسألة السفر طوال تلك المسافة عبر البلاد كي ترى فعاليات فنية يُقدّمها فنانون وفنانات أجانب. محمد ببساطة هزّ كتفيه موافقاً.

لاحظت بيبي-خانوم وحدها النظرة الكئيبة على محيّا نسرين، على الرغم من بسمتها.

***

في مساء ذلك اليوم كانت نسرين قد تسللت إلى محل الخياطة العائد لأبيها في مؤخرة المنزل. كان ثمة تلفون في المحل وبواسطته يُمكنها أن تتكلّم مع مجيد من دون أن ترفرف أمها عليها. جلست إلى طاولة عمل أبيها، مُنهارة وكابحةً عبراتها. «لن تدعني آتي».

الأمريكية، كلفت «أوبرا متروبوليتان» باربر بكتابة أوبرا «أنطونيو وكليوباترا» المأخوذة من مسرحية شكسبير، لافتتاحية منزله الجديد في مركز لنكولن عامَ 1966؛ بينما لم يلاقِ نجاحاً في إنتاجه الأصلي، الأوبرا التي لعبت فيها دور البطولة ليوتين برايس دور كليوباترا، حيث أظهرت مرة أخرى براعة باربر الفريدة في الخط واللون، وأسلوبه الفائق في تلحين النص. B minor تعني على درجة سي الصغير (مينور) - م.

1- رجل العالم man of the world: أي الشخص الذي لديه خبرة كبيرة وواسعة في الحياة بحيث أنه ليس من السهل أن يتعجب أو يُصدَم - م.

«قولي لها فقط إنكِ ستكونين مع أكبر-آغا وبيبي خانوم»، قال مجيد. «إنها الحقيقة على أية حال».

«هي لا تُبالي. إنها تعرف أنك ذاهب إلى هناك وتعتقد أننا سوف... كما تعرف».

«لا. أخبريني».

«توقّف، مجيد».

«قوليها».

«كفى!».

«سان فرانسيسكو».

«مجيد، كفى!».

سمع مجيد ضحكة نسرين المكبوتة عبر سماعة التلفون. «سان فرانسيسكو»، هما كلمتا شيفرة العلاقات الجنسية اللتان تستعملهما إحدى الشخصيات في المسلسل التلفزيوني «خالي نابليون». لا هي ولا هو تمكّنا من التغلّب على النكتة في أيّ وقت مضى.

«هل تكلّمت بيبي-خانوم مع أمكِ. يلزمكِ أن تأتي»، قال. «إنكِ تحبين هذا المهرجان أكثر من أيّ واحد منا».

مرّت الأيام. كانت نسرين تدور حول المنزل مكتئبة من دون هدف مثل امرأة في حالة حِداد، مُعذبة نفسها بالاستماع إلى البرامج الإذاعية المتعلقة بالمهرجان ومشاهدة مقتطفات من مَشاهد مُصوّرة في الأخبار عن التحضيرات الجارية في شيراز وپيرسيپوليس. حتى إنها شاهدت برنامجاً وثائقياً عن تاريخ القلعة المُوغِلة في القِدم، التي صُممت بطريقة ما بحيث يكون بمستطاع الخيول أن تصعد بسهولة السلالم الكثيرة المفضية إلى الداخل. كان فؤادها يُوجعها من فرط شوقها لأن تكون هناك، لأن تكون حرة، لأن تكون بعيدة من أمها.

في اليوم الذي سبق المغادرة نحو المهرجان، زارتهم بيبي-خانوم. لم تجرؤ نسرين على الخروج من حجرتها مخافة أن تُفسد فرصتها في الذهاب. حتى إنها كانت تخشى أن تُفصح عن آمالها بصوت مرتفع جداً. كان

بمستطاعها أن تسمع المرأتين تتناقشان في غرفة المعيشة. وبسرعة حزمت حقيبة من أجل الرحلة، عسى أن يميل القرار إلى صالحها.

ولمّا هدأت الأصوات، أبرزت رأسها ورأت أمها على الكنبة مُبدية إعجابها بطبق كبير من الفضة، وهو رشوة من بيبي-خانوم. ومن خلال تنهدات أمها، بمستطاع نسرين أن تجزم أنّ نقاشهما كان واهياً في أفضل الأحوال. قبضت على حقيبتها وشكرت أمها وقبّلتها مراراً، مُصرة على الذهاب مع بيبي-خانوم في ذلك الزمان والمكان. «سوف تمكثين بجوار بيبي-خانوم طوال الأوقات كلّها»، قالت قمر.

«نعم، أماه».

«ما من أشياء مُضحكة».

«نعم، أماه».

«تفعلين على وجه الدقة ما تُخبركِ به بيبي-خانوم».

«بالطبع، أماه».

باشرت بيبي-خانوم بالمضي صوب الباب. «لا تقلقي، عزيزتي»، قالت. «سوف أعتني بها. أكبر-آغا سوف يتقاسم شقةً مع شازديپور ومجيد، وسأكون في غرفة مع نسرين. كلّ شيء سوف يكون على ما يرام».

لم يكن بوسع نسرين أن تحتوي شعورها بالخفة والنشاط. لن يغمض لها جفن في تلك الليلة. سوف تستحم وترتب شعرها وتشذب أظافرها. سوف تختار العروض كلّها كي تشاهدها.

«بيبي-خانوم، هل بحوزتك كراس المهرجان؟».

«أجل، باستطاعتنا أن ننظر إليه. ثمة مطعم فاخر في المهرجان، في صالون الفندق تحديداً. سائر الفنانين والفنانات يرتادونه. سوف تحبين ذلك المطعم حباً جماً».

كانت نسرين في منتهى الفرح والبهجة بحيث أنها بدأت تثب طرباً لمّا اقتربتا من باب البستان. قرعت بيبي-خانوم الباب وانتظرت ميرزا كي يفتحه. التفتت نسرين إليها وقالت: «هل قايضتني أمي بطبق كبير من الفضة؟».

«حبيبتي»، قالت خالة أمها، «من دأبنا أن نقايض بأشياء أقل قيمة».

استغرقت الرحلة إلى شيراز ما يقارب الثلاثين ساعة، إلا أنها سرعان ما طارت. في المرحلة الأولى من الرحلة، تقاسمت بيبي-خانوم، أكبر-آغا، شازديبور، مجيد، ونسرين عربة قطار متجه إلى طهران وأمضوا الوقت كلّه يتحدثون، يضحكون، يأكلون، يمزحون، ويأخذون سِنةً من النوم. كانت نسرين نابضة بالحيوية بشكل خاص. بغياب قمر هناك، أنشدت الأغاني التي نالت شهرة بفضل مطربي ومطربات الملاهي، وسخرت من الطرائق القاسية لأمها، ومثلت مَشاهد من الأفلام السينمائية والبرامج التلفزيونية، بخاصة المسلسلات التلفزيونية المتنوعة: «برنامج كاف».

كان جمهورها مبتهجاً، إلا أنّ بهجته لم تكن أكبر من بهجة مجيد. وأثناء حقب الهدوء في الرحلة، حين ران السكون على العربة، كانت نسرين تتطلّع خارجاً إلى العالَم الذي يمر من هناك، التنهد الإيقاعي لعجلات القطار يغطسُها في الحالة الكئيبة التي تعقب دوماً حالة الخفة والنشاط التي يحسها المرء حين يقدّم أداءً مسرحياً لجمهور ما. تساءلت ما إذا بالإمكان أن يعيش المرء حياته كما لو أنها مسرحٌ، بالفرح نفسه والحرية نفسها. أحست أنّ يد مجيد تقبض على يدها. غطّ الجميع في النوم إلا هو. حدّقت في عينيه الوديتين، المتعجبتين، وفكرت أنها ربما كانت كذلك.

في الوقت الذي وصلوا فيه محطة القطار في طهران، كان قد حلّ الليل. ناموا في أحد الفنادق وفي صبيحة اليوم التالي استأجروا سيارة كي تأخذهم في رحلة أمدها خمس عشرة ساعة، وتوقفوا كي يتناولوا غداءهم في أصفهان. وصلوا إلى شيراز في منتصف الليل. دخلت نسرين الصالون المُترَف لـ «فندق كوروش»، وراحت تُحدّق في القاعة المقوّسة بمنحوتاتها المعقدة وثرياها الضخمة ذات التعبير المرعوب لطفل. وكان ثمة نزلاء يُعرّجون على بار صالون الفندق، نساء ورجال يختلطون، يدخنون السجائر، يقهقهون، ويقرعون كؤوسهم المترعة بالخمر. كان يصعب عليها أن تُميّز الأجانب من سكان المدينة. كانت ثمة امرأة مُحددة ترتدي آخر موضة مَدينية، مُصففة الشعر، ومُشذبة الأظافر، ربما كانت إيرانية مُقيمة في مكان ما بأوروبا أو ربما كانت سيدة أوروبية في رحلة مغامرة إلى إيران.

جلست بيبي-خانوم على كنبة الصالون بتنورة كوستم كستنائية اللون

ومعطف «مانتو» أسمر اللون مع شال حرير يُغطي رأسها ومشدود بارتخاء حول رقبتها، تنتظر زوجها كي يسجل وصولهم إلى الفندق الذي حجزوا فيه. في هذا الموقع، عباءاتها الملوّنة سوف تُفسر بأنها عباءات إقليمية بكل ما في الكلمة من معنى ولم تشأ أن تكون موضوع فضول لمُحنكي المدينة أو الأجانب.

في اليوم التالي انطلقوا جميعاً إلى «تكية مُشير» كي يشاهدوا أداءً لـ«مسرحية التعزية»[1]. في داخل قاعة التجمع التقليدية في الهواء الطلق كانت هنالك خشبة مسرح مرتفعة مُحاطة بالمُدرّجات. كانت النسوة اللائي يرتدين العباءات وأوشحة الرأس جالسات جنباً إلى جنب في جهة واحدة فيما يجلس في الجهة الثانية الرجال الذين يحملون المسبحات في أيديهم. يوجد قلّة من الأجانب، العلماء، وحفنات من الطلبة منتشرين فيما بينهم.

كان «مسرح التعزية» صعباً بالنسبة لشازديپور. كانت مسرحيات الآلام تمثل «معركة كربلاء» وموت الإمام الحسين وكانت تُؤدى دوماً في عاشوراء، في اليوم الذي قُتل فيه الإمام الحسين. كان قد تأثر بمهارات ركوب الخيل والقتال بالسيوف التي يمتلكها الممثلون، إنشادهم الجماعي وقدراتهم التمثيلية. كان مطلعاً على قرون من السفسطة التي يمارسها الممثلون الذين حفظوا الموسيقى الفارسية الكلاسيكية في مواجهة الحقب الكثيفة من الاضطهاد الديني حين كانت الموسيقى والتقمص البشري محظورين. إنها قصة سطور من المسرحيات التي يُعترَض عليها. إنها قصص عقيدة لم يكن مؤمناً بها.

جلس مجيد بين شازديپور وأكبر-آغا، وراح ينظر عبر الخشبة إلى نسرين، التي كانت تجلس مع بيبي-خانوم ونسوة أخريات. لفت انتباهها وتلاقت نظراتهما وغمز لها، متمتماً بكلمتيْ «سان فرانسيسكو».

«كفى!» ردت عليه مغمغمة وضحكت. ابتسم لها ومن ثم حوّل انتباهه

1- مسرحية التعزية Ta'zieh play: مسرحية آلام إسلامية شيعية تُحيي استشهاد الأئمة في كربلاء. إنها تخدم دوماً بوصفها مصدر إلهام لشتى طقوس الحِداد، وكان قد منعها محمد رضا شاه پهلوي بسبب الحماسة الدينية التي كانت قادرة على خلقها. تُسمى هذه المسرحية بالدارجة العراقية: «تشابيه» - م.

إلى البرنامج. كان مجيد يحب «التعزية» على الدوام. إبان طفولته، كان يسحره ركوب الخيل والقتال بالسيوف، ولمّا اشتد ساعده، وجد نفسه متأثراً بالموسيقى وبالطبيعة التراجيدية للقصص.

«الممثلون انتشلتهم الفرق المسرحية في جميع أنحاء البلاد»، قال حين قرأ البرنامج. «أساليب قتالية مختلفة كثيرة. إنهم يؤدون أدوار[تعزية] الإمام الحسين».

تنهد شازديپور. لم يسافر كلّ هذه المسافة كي يشاهد مسرحاً فولكلورياً دينياً. إنه شيء سيئ بما يكفي إذ يتعين عليه أن يتحمّله في مسقط رأسه. تذمر من معدته المضطربة وغادر القاعة. فرقته الموسيقية المحبوبة لم تكن تقدم فعاليتها حتى مساء ذلك اليوم في پيرسيپوليس، لذا لديه ساعات قليلة ينبغي له أن يقتلها. سار بروية على طول المساحة الضيقة من الأرض. كان الشارع يكتظ بالبشر من جميع أصقاع العالم، وهو مَشهد لم يره من قبل. امرأتان شقراوان طويلتان تسيران جنباً إلى جنب، ذراع كلّ واحدة منهما في ذراع الأخرى، تختفيان في البازار الذي انحرف في داخل الزقاق. ممثلو الشوارع شغلوا رصيف المشاة، لكلّ واحد منهم حفنة من المشاهدين. بائعو الأطعمة كانوا ينادون بجوار أكشاك وجباتهم الخفيفة. مجاميع من الطلبة كانوا يندفعون مسرعين هنا وهناك. رفع بصره إلى مبنى سكني وشاهد امرأة مُسنة تجلس في النافذة وعباءتها تغطي وجهها. كانت تنظر بجبين مليء بالغضون إلى شيء ما في الجانب الآخر من الشارع. لاحق شازديپور نظراتها. أجهزة مستقبلة عديدة لمراقبة الصور التلفزيونية كانت قد نُصبت في واجهة أحد المتاجر. في الشاشات كان هنالك رجلٌ عار وقد أدار ظهره. كان الرجل يلوّح مهدداً ببندقية في يده ويدفع فوهتها في ظهره. كان الناس القليلون الذين تجمعوا من حوله يلهثون رعباً. رفع شازديپور بصره حالاً إلى النافذة، إلا أن المرأة العجوز كانت قد أوصدتها بقوة. تابع مسيره عائداً إلى الفندق. تذكر بنحو غامض أنه قرأ عن هذه الفرقة التمثيلية الآتية من مكان ما في «أوروبا الشرقية». كانت نوعاً ما من المسرح الطليعي، وهو في اعتقاده مسرحٌ عديم المعنى.

قريباً من الفندق، استقل شازديپور حافلة إلى پيرسيپوليس. صعد مجموعتيْ السلالم نحو العليّة ذات الـ 125 ألف متر مربع، ماراً بالمنازل،

الحمامات، الأحياء العسكرية وقاعات الاستقبال العائدة لـ «الإمبراطورية الأخمينية»، ومرّر يديه على النقوش النافرة قليلاً لمواضيع مَلَكية، أشجار، أزهار اللوتس، وحيوانات. كانت هنالك أعمدة رخام باقية قليلة ممتدة عالياً إلى السماء الزرقاء، يعلو أحدها غريفين[1] ذو جانبين. في داخل «متحف پيرسيپوليس» تأمل ما كان في يوم ما «الحريم المَلَكي» وتمعن في المصنوعات بالداخل: شظايا من الأوعية، بقايا الخشب، وقطع محترقة من النسيج الذي نجا من النار التي أضرمها إسكندر في العام 330 ق. م. هذا الأمر جعله يغضب، غاضباً بقدر الغضب الذي شعر به إزاء الفتح الإسلامي لبلاده بعدها بتسعة قرون. كما لو أنّ كليهما كانا يسعيان إلى محوه هو شخصياً.

أخبره أكبر-آغا ذات مرة أنّ غضبه في غير محله. «كلّ بلد عاش بقدر ما عشنا سوف يقيس تاريخه بنحو محتوم بالخسارة»، قال. «الشيء الوحيد الذي يتعين علينا أن نُلقي عليه المسؤولية هو الزمن».

كان أداء أوركسترا الحجرة المسائي قد جرى أمام الجدار ذي السلّمين. كانت الأوركسترا قد اتخذت موقعها إزاء خلفية من نقش بارز قليلاً، ضخم، لأسد يصطاد ثوراً فيما هو يغرز أسنانه عميقاً في كفل الفريسة. صفوف من الكراسي صُفت أمام أعضاء الفرقة الموسيقية من أجل جمهور المتفرجين. كانت الشمس قد بدأت تغرب لمّا وصل الناس، وألقت على الخرائب وهجاً كهرمانياً.

بتصفيق حار من الجمهور، دخل الموسيقيون خشبة المسرح في رتل واحد وجلسوا بجوار آلاتهم الموسيقية وفي الحال راحوا يدوزنون. قائد فرقة موسيقية مميز يرتدي سترة ذات أذيال، مشى عبر الخشبة، الأمر الذي قوبل بمزيد من التصفيق واتخذ موقعه أمام موسيقييه. كانت أوراق الموسيقى قد نُقلت من مكان إلى مكان. قلّما تمكّن شازديپور من السيطرة على نفسه. كان قد سمع هذه القطعة الموسيقية على الراديو وشاهدها على شاشة التلفزيون، إنما أن يَخبرَها مباشرة فهذه تجربة مختلفة تماماً، بخاصة في مكان للكبرياء والزهو مثل هذا.

1- الغريفين griffin: حيوان خرافي نصفه نسر ونصفه أسد - م.

كان صوت الآلات الوترية الافتتاحية للحركة الموسيقية البطيئة قد بدأ بهدوء، ونسج اللحن عبر الخرائب، وكان الاشتياق في الموسيقى مُعبّراً جداً. وبعدها الاستسلام. الاشتياق من جديد. واستمر الحال جيئة وذهاباً، رواحاً ومجيئاً، إلى أن من دون إنذار وصلت الموسيقى إلى التصعيد. صوت مرتفع، بدائي، تردد صداه عبر الدمار الواسع للإمبراطورية الغابرة. أغمض شازديبور عينيه. سالت دمعةٌ على خده. ليته يستطيع أن يمكث إلى الأبد في هذه اللحظة من البهجة الموسيقية.

بعد «مسرحية التعزية»، أرادت نسرين أن تذهب لمشاهدة فرقة مسرحية أمريكية تعرض مسرحية «أليس في بلاد العجائب» على المسرح في مخزن للفاكهة. قرر الاثنان، بيبي-خانوم والقاضي الرجوع إلى الفندق كي يتناولا عشاءً مبكراً ويذهبا إلى الفراش. كانت بيبي-خانوم قد دست سراً المالَ في يد مجيد. «مجيد، لماذا لا تذهبان معاً؟» قالت له. «يمكنكما أن تأكلا شيئاً ما تالياً. بهذه الطريقة لن نقلق عليكما».

أن يكونا متحرّرين من السيطرة في قلب مدينة في مخاض احتفال، كان شيئاً عارماً تقريباً بالنسبة إلى العاشقَين الشابين. ومن دون كلمة ركضا معاً وراحا يجتازان الشارع كما لو أنهما يختبران مادياً حدود حريتهما الجديدة. ولمّا ازداد حجم الحشود أبطأ مجيد خطاه وأخذ يد نسرين. كانا يسيران جنباً إلى جنب. كانت أصوات الممثلين والمغنين من كلا الجنسين تشق طريقها عبر تمتمة الحوار ونداءات الباعة.

جلسا معاً على قفص في داخل مخزن فاكهة وهما يشاهدان أعضاء الفرقة المسرحية الأمريكية حفاة الأقدام وهم يخلقون عالماً سحرياً من الأرانب والفطر والقطط المختفية عن الأنظار. المشروبات التي جعلت أليس تنكمش والكعك الذي جعلها تنمو. لم تكن أليس تلبس سوى خرق من الكشكول، ومع ذلك كانت صعبة الإرضاء، مُدللة، ضائعة، أليس الحقيقية. كانوا مفتونين. هل كان سبب افتتانهما المسرحية وحدها؟ أم لأنهما كانا معاً علانية؟

ربما كلا الاثنين. كان كلّ واحد منهما يمسك بيد الآخر طوال دقائق العرض المسرحي.

بعد أن أُسدلت الستارة، هبّا واقفين كي يصفقا بحرارة إلى أن شعرا بالوخز في أيديهما. مجيد يصفّر أثناء التصفيق. كانت ليلة باردة وكانت رائحة الفحم والكباب تملأ هواء الشارع. جلسا إلى منضدة بلاستيكية خارج أحد الأكشاك وطلبا طبقاً كبيراً كي يتقاسماه، ومن ثم غسلا العشاء بقنينتيْ الكوكا كولا. كانت نسرين لا تزال مُكهرَبة بالمسرحية التي شاهداها. «هل سبق لك أن شاهدتَ شيئاً كهذا؟» قالت له. «كانوا جميعاً جيدين جداً بكلّ معنى الكلمة. كانت مضبوطة، إذاً، أوه، مجيد، ألم تكن سحراً؟ ألم ترَ المكان، الحيوانات، هل رأيتَها فعلاً؟».

«رأيتُها. رأيتُها فعلاً».

«كانوا يفعلون ذلك بأجسامهم وأصواتهم ولا شيءَ باستثناء ذلك. سحرٌ خالص».

«أحببتُ الطريقة التي كان يدخل فيها كلّ واحد منهم إلى دوره المسرحي ومن ثم يخرج منه».

«نعم! وكيف أنهم لم يكونوا يستعملون حيل الإنارة أو الأزياء كي يحوّلوا أنفسهم. هذا ما أتوق لأن أفعله، مجيد».

تأمل مجيد وجهها الطافح بالانفعال. فكر في رحلتهما بالقطار وكيف أنها كانت قادرة على أن تنشد أغنية، تروي قصة، أو تمثل مَشهداً من مسرحية أو مسلسل تلفزيوني، تتنقل بعفوية من شخصية إلى شخصية أخرى بكامل جسمها وصوتها. «سوف تفعلين ذلك. إنكِ تفعلين ذلك أصلاً».

فرغا من تناول وجبة طعامهما وانطلقا عائدين إلى الشارع الرئيس، وراحا الآن يمشيان ببطء، وذراع مجيد تطوّق كتفها. لم يكترث بهما أحدٌ. لا أحدَ اكترث بشاب وشابة غير متزوجين يقطعان الشوارع بوقاحة شديدة، جسماهما متلاصقان. كان الوقت يقترب من منتصف الليل لمّا وصلا، وشقا طريقهما إلى «الحافظية» كي يستمعا إلى الموسيقى الفارسية.

إنّ «الحافظية» هي ضريح الشاعر حافظ[1] الذي كان مُحاطاً بمقصورة

1- حافظ Hafez: المقصود هنا «حافظ الشيرازي»، وهو شمس الدين محمد حافظ الشيرازي (نحو 725 هـ - 792 هـ)، الملقب بـ«خواجه حافظ الشيرازي» والشهير

من الرخام في الهواء الطلق وبالمروج. نُصبت خشبة مسرح مُستعملة كبديل مؤقت أمام الضريح من أجل الأداء الفني الذي يقدّمه أربعة موسيقيين، عازف آلة السيتار، عازف الدّف، عازف الكمنجة، ومُطرب يعزف على الدف. كان الناس قد انتشروا على الحشائش يتحاورون بهدوء، وما إن بدأت الموسيقى حتى لزموا الصمت. رقد مجيد على جنبه وأراح رأسه على يده ورنا ببصره إلى القمر. «سوف يحصل كسوف شمس تام في الشهر المقبل»، قال لها. «سوف يعترض القمرُ سبيل الشمس تماماً». قرّبت نسرين وجهها من وجه مجيد، وحجبت عنه رؤيته للسماء، وانبرت قائلة: «هكذا؟». ضحكا وبعدها ظلا ساكنين لحظة، مُبديين حدسهما قبل القبلة.

استمرت الموسيقى من دون انقطاع. جاء الناس وغادروا. جلب أصحاب المخازن بضائعهم. طوى الحمّالون الكراسي وكنسوا السلالم. الممثلون، المخرجون، الراقصون، والمطربون من كلا الجنسين كانوا يرتدون ثياباً كي يقضوا ليلة في الخارج محتشدين عند المطاعم والحانات. كانت صالونات الفنادق تعج بالضيوف. كناسو الشوارع لملموا القمامة وممثلو الشارع شدوا مستلزمات عرضهم بالأربطة على ظهورهم. أخيراً، انتهى عرضهم المخصص لهذه الليلة.

ووراء ذلك مباشرة، خارج مَشهد أكشاكِ الصحف، وأكشاك الضيافة، خشباتِ المسارح المستعملة كبدائل مؤقتة، أكشاكِ الأطعمة والمشروبات في مواقع الأنشطة الفنية، المطاعمِ، البارات، والنوادي الليلية، الصحافيين، مصوّري المشاهير، المؤتمرات الصحافية، العلماء، المفكرين، الفرق المسرحية، الموسيقيين، الراقصين، صانعي الأفلام، السياح... وراء مصابيح الضوء الغامر ومصابيح الشوارع، في العتمة الشاسعة التي تنتشر عبر السهول، وقف بلدٌ على حافة ثورة.

بـ «لسان الغيب»، من أشهر الشعراء الفرس الغنائيين. مولده ووفاته في شيراز. لقب بـ «حافظ» لحفظه القرآن الكريم بقراءاته الأربع عشرة، وقد ذكر معظم المؤرخين والعلماء بأنه سني أشعري ذو ميول صوفية، وبعضهم يشك في أنه من الشيعة الاثني عشرية. له أشعار بالفارسية والعربية وتُرجمت أشعاره إلى كثير من اللغات العالمية – م.

حلم أفيوني

«ما من شيء أكثر رعباً من الفقر، ومع ذلك ما من شيء يُحرر المرء أكثر من عدم امتلاك شيء، عدم امتلاك متر من الأرض، ولا حتى ورقة نقدية واحدة، ولا محبة إنسان. حين تُزال كلّها من مقتنياتك، تكون طليقاً فعلاً». هذا ما قاله درويش متجوّل، فمه ممتلئ بالدخان. جلس جمشيد بجانبه في خرائب «نيساپور القديمة»، وهو يدخن الأفيون.

«فعلاً؟» قال.

«فعلاً»، قال الدرويش.

«إذاً الشخص الذي لا يملك شيئاً كي يفقده لا يمكنك أن تأخذ منه شيئاً».

«الشخص الذي لا يملك شيئاً هو لا شيء».

«الشخص الذي لا يملك شيئاً يملك الحياة. وهذه الحياة من الممكن أن تؤخذ منه».

«الشخص الذي لا يملك شيئاً، أو اللاشيء، هو الحقيقة. والحقيقة لا يُمكن أن تُنتزع».

«إذاً هو يمتلك شيئاً ما!».

«لا. إنها هو. إنها تُثبته بالأرض وتُحركه مع الظروف الجوية».

حدّق جمشيد في الدرويش الذي كان الآن يتمتم بهدوء مع نفسه. «مَن أنت؟» سأله.

«أنا صخرة. صخرة تشكلت من فتات وراسب، وهي صخرة لا تنكسر ولا تُخترَق، تكوّنت من قرون من الحياة. يتعذر فك رموزها، حتى بالنسبة إلي. أتحرك مع الظروف الجوية. أرقص عبر الزمان والمكان. وعلى الرغم من ذلك أنا ثابت دائماً».

«أنت مخمور، صديقي. إنه حوار الأفيون».

قهقه الدرويش وأمسك بآلته الموسيقية، السيتار.

سأله جمشيد قائلاً: «هل تعزف لحناً حزيناً أم لحناً سعيداً؟».

«لا يوجد [أم]، بل فقط [و]».

انطلق الدرويش ينشد أغنية قصيرة بأسلوب «شور» الموسيقي.

اتكأ جمشيد على إحدى الصخور ونظر إلى السماء الساطعة، وجعل الموسيقى تغمره. كان يحس على الدوام أنه ينسجم مع الموسيقى الفارسية الكلاسيكية: دقة الأساليب، الصراع بين العاطفة والتحكم. وظلا في موضعهما إلى أن انفجر الوضع بتعبير تام. كان التوتر والتحرر قد أدخلا الراحة إلى نفسه. كان الإدراك هو ما أوجعه.

وثب الدرويش على قدميه، ثبّت آلة السيتار الموسيقية بظهره بواسطة حبل قصير متهرئ. «تذكار للطريق؟».

نقر جمشيد قطعة نقد بإصبعه وأمسك بها الدرويش فيما هي لا تزال في الهواء. «إلى أين ستذهب؟».

نظر الدرويش عبر الأفق: «إلى أيّ مكان وإلى الأمكنة كلّها».

«يلزمك أن تحترس. الأشياء بدأت تصبح حامية في الشوارع».

«الأشياء تكون حامية على الدوام في الشوارع».

«وكيف ستتدبر أمرك في مثل هذا الظريف العصيب؟».

«سأحلق رأسي وأحلق لحيتي وأتظاهر بأني مُغفل. لا أحدَ يشك بالمغفل أبداً».

قهقه الدرويش وانطلق عبر الكثبان الرملية. ظل جمشيد يراقبه إلى أن توارى عن الأنظار.

***

كانت «نيساپور القديمة» مدينة أشباح في أطراف المدينة الأحدث. في القرن التاسع، كانت نيساپور عاصمة بلاد فارس التي تعج بالنشاط الصاخب، وتالياً دمرها جنكيز خان والجيش المغولي. كلّ ما بقي منها هو مجموعة من الهياكل الرملية التي كانت في يوم من الأيام منازل، جامعات، أنزالاً، أما الآن فقد بُليت وتحولت إلى روابي ما قبل التاريخ بفعل الزمن، الظروف الجوية،

والإهمال. تحت جنح الليل، نبش اللصوص الأشياء التي صُنعت أثناء العصر الذهبي وباعوها في السوق السوداء، تاركين وراءهم خنادق وحفراً مفتوحة. لم يبقَ شيءٌ آخر، باستثناء علب قناني الكوكا كولا الفارغة أو أغلفة الحلوى هنا وهناك. من مسافة معينة، في ضوء خاص، بوسعِ المرء أن يرى المدينة التي كانت قائمة ذات يوم.

إلى هنا جاء جمشيد كي يدخن أفيونه ويحلم أحلامه الأفيونية.

كان قد صحّاه وروّعه فجأةً نسيمٌ بارد اكتسح الكثبان الرملية بعد أفول الشمس. نظر من حوله. لم يكن هنالك أحد. كانت أنبوبة الأفيون العائدة له قد ضاعت ولم يكن باستطاعته، على الرغم من مساعيه كلّها، أن يتذكر أيّ يوم هو هذا، كم طول المدة الزمنية التي نام فيها، مَن كان هناك، أو كيف دهمه النعاس أصلاً. هكذا كانت تنتهي معظم أيامه، وهكذا كانت تبدأ.

كان الضوء يغطس بسرعة. طبقة خفيفة من الغبار غطت لسانه، لكن ليس بحوزته ماء. سَرَت قشعريرة في بدنه، ليس بسبب البرد، إنما بسبب الاعتدال في الطعام والشراب، هذا الاعتدال جعله يرتجف في نوبات صغيرة جداً فيما هو ينطلق مسرعاً إلى دراجته النارية.

هبّ الهواء البارد على وجهه، وجعل أنفه يجري. قطع مباشرة «طريق البستان» في الظلام. الشارع لا يُضيئه سوى القمر الذي كان يتلألأ على الصقيع الذائب فوق الأشجار. عقله أصابه الخَدَر. الحركة على الدراجة النارية والاضطجاع على الأرض في سديم أفيوني هما الحالتان الوحيدتان اللتان يشعر فيهما بالراحة.

حين اقترب من ساحة المدينة، شاهد مجموعة كبيرة احتشدت بالقرب من النافورة. ركن دراجته النارية عند أحد المداخل. كانت قد انتشر خبرٌ في المدينة مفاده أنّ الشاب الذي قتل ابن التاجر قد سلّم نفسه إلى الشرطة. كان الناس يتكلّمون بنبرات مُسكَتة، مُتكتمة، كلّ واحد منهم يصف للآخر كيف أنه ذهب إلى محطة البوليس بصحبة المُلّا وبعض أتباعه. كان رجل الدين قد تحدّث بالأصالة عن نفسه، قالوا، وشرح ما جرى. لم يطلب من الشرطة التساهل نيابة عن الشاب. طلب ببساطة أن يسمحوا له بأن يغتسل ويصلي

قبل شنقه، وأن يسمحوا له فيما بعد أن يستبدل ملابسه ويرتدي لباساً أبيض، والأهم، أن يكون الشنق علنياً. أما الشاب نفسه فقد طلب أن يؤخذ جثمانه إلى المشرحة كي يُغسَل ويُلف بالكتان كي يكون جاهزاً لدفن شيعي مناسب.

جلس جمشيد على المصطبة. يبدو أن لا أحدَ ذَكَر أن الشاب قد شارك بنحو فعال في التخطيط لموته هو. كان جمشيد قد صُدم بإيمان من هذا الطراز، إيمان عميق جداً بحيث أنّ المرء يرغب بأن يتخلى عن حياته. لماذا لم يعرف هدفاً من هذا النوع؟

***

في ما بعد ظهر ذلك اليوم، جمع المُلّا أغلب أتباعه الأتقياء ورافق الشاب إلى مكتب مدير الشرطة. كانوا قد دخلوا جميعاً بهيئة رتل إلى مكتب مدير الشرطة. كان مدير الشرطة جالساً إلى مكتبه بصمت. دوّن الشروط وأومأ برأسه موافقاً باستثناء الشنق العلني. لم يكن ليسمح بالإعدام العلني. سأل الشاب ما إذا يرغب بأن يكون هنالك ممثلٌ عنه من أجل ظهوره بالمحكمة غير أن الشاب رفض. كان قد اعترف وكلّ التدابير اتُّخذت. لم يطلب سوى أن يكون إعدامه جهاراً. نظر المدير إلى الفتى برهةً قبل أن يرد عليه قائلاً: «لماذا تريد أن يكون إعدامك جهاراً؟».

«لأنّي شهيد».

جلس مدير الشرطة منتصباً ببزته النظامية الأنيقة، المنطبقة تماماً على مقياس جسمه، مال إلى الأمام، وانبرى قائلاً: «لستَ شهيداً. إنك شاب متعصب وقاتل. وربما تدفع حياتك ثمناً لذلك. لا توجد إعدامات علنية لأننا مجتمع متحضر. سوف تظهر في المحكمة أمام أحد القضاة وهو من سيقرر عقوبتك».

تنحنح المُلّا وطلب أن يتحدث مع مدير الشرطة على انفراد. كان أتباعه والشاب قد خرجوا بهدوء في رتل. أبرز مسبحته وانحنى على المكتب وراح ينقر خرزاتها بإصبعه فيما هو يقول: «إنه موسم مزدحم بالنسبة إليك. إني أتخيّل كلّ ما يحدث في العاصمة. لا بد أنه قدرٌ كبير من الضغط».

«هذا جزء من المهنة. إني متيقن من أن الأشياء سوف تهدأ بعد وقت قصير جداً».

«بالطبع». إنما بالتأكيد يتعين عليك أن تحس أن هذا شيءٌ مختلف تماماً، لا؟

«حاج - آغا، لقد أمضينا زمناً طويلاً بما يكفي كي نرى الأشياء كلّها، الانتفاضات، الثورات، اغتصاب العروش، الانقلابات. نحن جاهزون لها كلّها».

«في بعض الأحيان يستطيع حجرٌ صغير أن يُعيق عملاقاً».

«لن يحصل ذلك إذا كنتَ تملك دبابة».

تأمل المُلّا صورة محمد رضا شاه پهلوي المعلّقة فوق رأس مدير الشرطة، بجانب علم في داخل إطار، الأسد في الوسط يحمل سيفاً، والشمس خلفه. نظر إلى الملك وإلى الأسد برهة، ولاحت بسمةٌ عريضة على ثغره فيما هو يقول: «دعني أروي لك قصة. قصة واقعية جرت قبل ولادتك وولادتي، في هذه المدينة بالذات، في مكان لا يبعد عن هنا رمية حجر».

***

«كانت [حديقة حيوان نيساپور] لها مستخدمان، حارس حديقة الحيوان، وهو رجل في السبعين، ومساعده، وهو رجل ثمانيني. الحيوان الوحيد ذو الصيت في الحديقة أسد آسيوي[1] عمره عشرة أعوام. أخرجته من جماعته ثلاث لبوات وقد لمحنه وهو يحاول أكل أحد أشبالها، كان قد كبر بوصفه قزماً جائعاً. وطوال سنوات عدّة حاول الرجوع إلى كنف جماعته إلا أن أباه، القائد، لم يكن ليصفح عن هذا السلوك الجبان. أصبح الأسد هائماً على وجهه يجوب كثبان نيساپور الرملية، وقد أدخل الرعب إلى أفئدة سكان المدينة. عند الغروب، كان من عادته أن يهجم على الماشية المحلية، يأخذ خروفاً هنا وهناك، إلا أنه يُرغم على العودة إلى الكثبان من قبل الفلاحين القابضين على المشاعل.

وفي أحد الأيام، دخل الأسد منزل راعٍ كان قد ترك الباب مفتوحاً بشكل

1- أسد آسيوي: ورد في النص الإنكليزي الأصل باسمه العلمي Panthea leo persica. تاريخياً، هذا النوع من الأسود يسكن في معظم مناطق غرب آسيا، الشرق الأوسط، صعوداً إلى شمال الهند - م.

غير متعمّد. أكل الأسد كتلة صغيرة من الأفيون موضوعة على طاولة المطبخ وفقد وعيه على الأرض. جاء الراعي إلى المنزل بعد ظهر ذلك اليوم ورأى أسداً فقد وعيه على أرض مطبخه واختفى الأفيون العائد له. نظر إلى السماء وقال: «الله أكبر».

بمساعدة عامل مزرعته، تمكن الراعي من دحرجة الأسد على سجادة وسحبه إلى حظيرة الماشية، وهناك باشر ببناء قفص. وما إن فرغ من عمله، حتى أصبحت حظيرة الماشية العائدة له حديقة الحيوان. أصبح الراعي حارس حديقة الحيوان، وعامل المزرعة أصبح مساعده المخلص.

كان ذلك زمناً نابضاً بالحيوية بالنسبة إلى حارس حديقة الحيوان. كثير من سكان المدينة وحتى بعض الناس من المدن الأخرى كانوا يحجون لرؤية الأسد الذي بعثه الله إلى نيساپور، وقد سُمّي راهناً «أسد الله». كان المشاهدون يجلسون ويراقبون الحيوان وهو يذرع المكان جيئة وذهاباً، وغالباً ما كان يزأر عليهم. وكان الأطفال يختبئون وراء عباءات أمهاتهم والرجال يحاولون التحديق فيه من خلال قضبان القفص. وبعد تجارب قليلة مُرعبة ودموية بعض الشيء، أدرك أن حفنةً صغيرة من الأفيون تكون مفيدة كلما يغدو الأسد عدوانياً.

وسرعان ما خفت الجعجعة. أصبح الأسد عجوزاً وهرماً بسبب التقدّم في السن، الإدمان والاحتجاز. وصار الآن يقضي معظم أيامه راقداً في زاوية قفصه وهو يرتعش طارداً البراغيث وضارباً إياها بذيله. وخلال عمليات إطعامه، كان يمضغ بنحو فاتر الهمة كتلاً من لحم الحمار ويتبرز.

كان حارس حديقة الحيوان يجلس بجوار القفص، يسند رأسه إلى أحد القضبان. ينظر إلى الحيوان ويُطلق تنهيدة، قائلاً: «نعم، أسد الله، يا للعمر الذي سلبنا عصرنا المجيد».

كان المساعد المخلص يجلس بقرب الحارس وينظر إلى الندوب في يديه فيما هو يستمع إلى مناجاته الحزينة مع الأسد.

«في أيام شبابنا وقوتنا، كنا نُدخل الرعب إلى أفئدة الرجال، والحياة إلى عورات النساء. كانت تُنفذ بالتفاتة رأس واحدة تعليماتُنا وتُفرَض مشيئتنا. أما

الآن فلسنا سوى قشرٍ من أنفسنا، ظلٍ من رغباتنا. نحن مُقيدون إلى جيفتنا. «أنتَ ملك الملوك»، كانوا يقولون. «أنتَ سيد مملكتك». ومع ذلك، كنتَ هناك في ذلك اليوم البارد المليء بالسُحب، مستلقياً في بركة من لعابك عند قدميّ. نعم، زمان!»[1].

إن تعبير الندب والفقدان هذا هو إشارة المساعد المخلص كي يذهب ويعد الشاي، فيما ينتحب حارس حديقة الحيوان ويتمتم بلحن ما. أما الأسد، من جانبه، فقد بدأ يشخر بصوت مسموع.

وفيما كانا يشربان شايهما، كان حارس حديقة الحيوان ينظر إلى اللامكان بعينين نصف مغمضتين. «يلزمنا أن نفعل شيئاً ما كي نُعيد بعضاً من الحياة إلى هذا المكان»، قال، وهو ينفخ على شايه.

«ربما بوسعنا أن نمسك ببعض البلابل والعصافير، سيدي؟» قال مساعده. «رأيتُ طيوراً ملوّنة كهذه في طريق البستان. يقيناً سوف تجتذب جمهوراً».

«طيوراً؟ تُريد أن تتحوّل من الأسد إلى الطيور؟ لا. لا. لا. نحن بحاجة إلى حَدَث. شيء مُثير يجذب انتباه سكان المدينة ثانية».

«لكن، سيدي، أتتذكر أننا في آخر مرة كان لدينا حدثٌ كهذا؟».

«آ، نعم، [حروب النحل]. كم كان ذاك نجاحاً باهراً».

«رقدتُ في المستشفى مدة أسبوعين».

«لكنك بطل طوال الحياة! لا تخف، صديقي الشجاع. سأفكر في شيء أفضل من النحلات القليلة المزعجة».

«ليكن الله في عوني»، غمغم المساعد هامساً.

مُسخّرين، مركوبين، محشورين، ومُجنَّدين، هكذا يقضي رجالٌ كثيرون حيواتهم، حالهم حال حيوانات كثيرة مثل الحمار. الحمار لا ينال الإعجاب أو يُحَب إلى درجة العبادة شأنه شأن ابن عمه الحصان. كما أنه لا يندفع بفخر في المعارك. إنه لا يركض عبر المروج المفتوحة ويمضي للنوم ليلاً وهو يُمَس مَساً رفيقاً من قبل السائسين. الحمار يُسخر منه،

1- زمان أو روزه گار roozeh gar: وردت بالفارسية اللفظية في النص الإنكليزي الأصل. هنا كلمة «زمان» تشي بالتحسر على ماضيات الأيام - م.

يُخصى، ويُجبَر على العمل ليلَ نهار. ولهذا هو لا يجفل بسهولة، لأنه رأى أسوأ الرجال سابقاً.

في المدينة، كان هنالك رجل مُسن يمتلك حماراً مُسناً بالقدر نفسه. كان الحيوان هَرِماً، وكان يؤدي غرضه. ولمّا عرض عليه حارس حديقة الحيوان أن يشتري الحيوان منه من أجل مَشهد لافت أسماه «حرب الأسد والحمار»، وافق الرجل العجوز. تطلّب الأمر يوماً كاملاً ومكعبات سكر كثيرة كي يجعل الحمار يدخل إلى حديقة الحيوان. وطوال أسبوع، كان المساعد المخلص يسقيه ماءً ويُغذيه كي يجهزه للمعركة. ويا لدهشته، أصبح مولعاً ولعاً شديداً بالحيوان. سمّاه «شاپور». إن تسمية حيوان ما يُشارف على الموت خطأٌ فادح، كان يعرف ذلك. ومع هذا، كان يقضي أمسياته في حظيرة الماشية يتحدّث مع الحمار، ويشاركه سائر حكاياته عن الجروح والمحن.

في كلّ ليلة، كان يُشير بإصبعه إلى ندبة في جسده، ومن ثم يُخبر شاپور بقصة كيف نشأت هذه الندبة. معظم الندوب في جسمه أُصيب بها جرّاء «أسد الله». يبدو أن شاپور لم يتأثر بالقصة. «شاپور-جان، طوال حياتي كلّها عشتُ في عبودية»، قال المساعد. «وعلى الرغم من ذلك لا يزال لديّ أمل. أليس هذا هو أسوأ الأشياء كلّها؟».

أشار إلى يده واستطرد قائلاً: «هل ترى هذه الندبة؟ كان قد أصابني بها [أسد الله] أول مرة أعطيته اللحم. صديقي، كلانا يحمل عبء عمل لا يُشكر عليه».

فك أزرار قميصه وكشف الندوب في صدره التي نجمت عن «حروب النحل»، المَشهد اللافت الأخير الذي نظّمه حارس حديقة الحيوان، ما إن ضعفت الحماسة على الأسد. كان حارس حديقة الحيوان قد أُقنع بأنه إذا شطر مساعده المخلص خلية نحل بواسطة سيف، سوف تكون النحلات مصعوقة جداً بحيث أنها لن تنتبه إليه وهو يقبض على قرص العسل. إن فعلاً كهذا سوف يترك انطباعاً قوياً على حشد من المشاهدين المرتقبين، كلّ واحد منهم اشترى تذكرة بثلاثة تومان.

أمر مساعده بأن يرتدي صُدرة مزوّدة بدرع مرن ذي زرد، وخوذة على غرار ممثلي «التعزية» المسرحيين أولئك.

«ينبغي أن تكون هذه أروع لحظاتك، يا صديقي. إني أحسدك على هذه المهمة الجريئة».

«لماذا إذاً لا تفعلها أنت، سيدي؟ أكره أن أسلبك هذا النصر».

«أوه، لا، لا، لا. يتعين عليّ أن أنظم المَشهد. إن لم يكن المَشهد هكذا، يتعين عليّ أن أتشرّف بالقيام به. لكن وا حسرتاه، ينبغي لي أن أُحيل هذا المجهود العظيم إليك وأضطلع أنا بالدور الثانوي للراوي».

كان المساعد المخلص ذرة من رجل. كانت خوذته تغطي عينيه، والصُدرة المُزوَّدة بالدرع المرن تسحبه إلى أسفل فأسفل، نحو الأرض. «من عش الشيطان يأتي أحلى رحيق عَرِفه الإنسان»، قال حارس حديقة الحيوان للحشد. «اليوم، أمام أعينكم، هذا الرجل الشجاع، بنعمة الله وبالسيف المحبوب للإمام علي، ذو الفقار، سوف ينتزع من الشيطان ما يعود للإنسان».

رفع حارس حديقة الحيوان دفه وراح يقرع عليه إيقاعاً. كانت هذه إشارة للمساعد المخلص كي يركض إلى خلية النحل، ويضرب بسيفه الجزء الأوسط منها، ويُمسك بقرص العسل.

تنفّس المساعد المخلص الصعداء، وتمتم «بسم الله» بصوت ضعيف، وبعينين نصف مُغمَضتين صوّب سيفه. انشطرت الخلية إلى نصفين وانهار قرص العسل إلى الأرض. انحنى عليه والتقطه وكان هذا آخر شيء تذكره.

بعد مضي أيام معدودة، صحا في المستشفى وكان صدره متورماً جداً بحيث لم يكن بوسعه رؤية قدميه. كان حارس حديقة الحيوان جالساً بجواره، يبكي، ويخاطبه قائلاً: «آه، يا صاحبي العزيز. كم ابتهلتُ إلى الله كي تفيق من غيبوبتك. لم يسبق لي أن وجدت في حياتي كلّها جرأةً كهذه. أنت رجلٌ بين الرجال».

المساعد المخلص لم يكن يتذكر ما حدث. إلا أنه لاحقاً سمع بعض الهمسات هنا وهناك في المدينة عن كيف أنّ النحلات أخطأت في الأشكال السداسية لدرعه المرن المزود بالزرد وحسبتها قرص خلية النحل وحاولت أن تدخل منزلها بضراوة، إلا أنها كانت تصطدم بجسمه دائماً.

حتى يومنا هذا، صدره مُغطى بالندوب. «ومع ذلك، لا يزال لديّ أمل»، همس لشاپور.

انتشرت أخبار «حرب الأسد والحمار» إلى أمكنة بعيدة حتى وصلت مَشهد. في الأقل يُتوقع حضور مئتي متفرج. في صباح يوم التمثيل، ركض حارس حديقة الحيوان من أحد طرفيْ حظيرة الماشية إلى الطرف الآخر، وهو يعبّر عن تعليماته بالصياح لمساعده المخلص، وهو المشغول بتجهيز الحمار ببطانية سرج محبوكة بوفرة.

«ما هذا الذي تفعله؟» قال حارس حديقة الحيوان. «لا أعتقد أنّ [أسد الله] يخطط لركوب حيوانك الثمين. أين هو لباسك؟ لماذا لم ترتدِ صُدرتك المزودة بالدرع المرن؟ أين طبلي؟ هل رأيته؟ أحرص على أن تكون هنالك وسائد كافية في الصف الأول مخصصة للأطفال».

وبينما كان حارس حديقة الحيوان يركض هنا وهناك بهيئة دوائر، هيأ المساعد المخلص ببطء حظيرة الماشية للحدث. ارتدى الصدرة المزوّدة بالدرع المرن ورفع بطانية السرج، وهمس في أذن الحمار: «أنتَ الآن بين يدي الله، يا صاحبي. عسى جلالته أن يُريك رحمةً أكثر من تلك التي أراني إياها».

ازدادت الحشود في الساحة. وكانت الهمسات تطفو من مجموعة إلى مجموعة أخرى. كان بعضهم يعتقد أنّ الحمار سوف يُقتل على الفور، بينما اعتقد بعضهم الآخر أنه سوف يؤجل القتال. وُضعت رهانات سرّية قليلة، جمع النقود فتى صغير كان يترنح عبر الحشد. مجموعة من الرجال المسنين في مؤخرة الحشد ناقشوا الناحية الأخلاقية في تقديم مَشهد كهذا، هازين رؤوسهم ونائحين على مصير الحمار.

استأجر حارس حديقة الحيوان عدداً قليلاً من الصبيان المحليين كي يقفوا في المدخل ويجمعوا الأجور من الجمهور، ومقابل ذلك يُسمح للناس بالدخول المجاني. جمعهم في حشد وحذّرهم قائلاً: «كونوا لطيفين مع كلّ زبائني الذين يدفعون الأجر».

وبعدها سحب الجفن السفلي لعينه الشمال بإصبعه، مُظهِراً باطن عينه الوردي لكلّ واحد منهم. «سوف أراقبكم»، استطرد قائلاً، «وسوف أعد الرؤوس كلّما دخل شخص، لذا سوف أعرف ما إذا كانت هنالك قطعة نقدية واحدة مفقودة».

كان الجمهور ينطلق نحو حديقة الحيوان قادماً من الساحة. وكانت العائلات تقطع الطريق بهيئة مجاميع، فيما كان الصبيان يترنحون بينهم، آخذين رهانات أخيرة. ثمة أصوات بشرية متنافرة، وجرّ أقدام يتثاقل، وضحكٌ يُمكن سماعه فيما هم يقتربون من حظيرة الماشية.

بِوصيّة من حارس حديقة الحيوان، غطى المساعد المخلص قفص «أسد الله» ببطانية كبيرة، وهي طريقة فضلى من أجل إضفاء صفة درامية على حسم النزاع بين الحيوانين في القفص ما إن تُرفع البطانية. وفي الوقت المناسب، وضع الحمار عند القفص واختار له رزمة طازجة من القش. وقف شاپور هناك وهو يحدّق فيه، رافضاً الأكل. تدفق الدمع من عيني الرجل العجوز. «أرجوك لا تنظر إليّ هكذا»، قال له. «أنا رجل حساس».

وفيما هو يمسح الدموع من على وجهه، اتخذ مكانه في الناحية الأخرى من القفص وانتظر بدء المَشهد المروِّع.

دخل سكان المدينة بتثاقل واتخذوا مواضعهم، فيما هرع الأطفال إلى وسائد المقاعد الأمامية. عددٌ قليل جرّتهم أمهاتهم إلى مؤخرة حظيرة الماشية. بعض الشبان تسلّقوا مخزن التبن وخفضوا أبصارهم ناظرين إلى المَشهد فيما كانت أرجلهم متدلية.

علا التصفيق لمّا سار حارس حديقة الحيوان أمام القفص، وطفق يضرب على دفه. تطلّع إلى الجمهور. وَقَف بصمت مطبق. توقف التصفيق، وعلى مدى لحظة، كلّ ما كان بالمستطاع سماعه هو شخير «أسد الله». سَرَت موجة من الضحك بين الجمهور. نظر حارس حديقة الحيوان إلى مساعده المخلص. نخس المساعدُ بسعادة الأسدَ بآلة لتقليب التربة أو تسويتها[1] عبر القضبان الخلفية للقفص. هدر الحيوان، وأسكت الجمهور مرة أخرى. «من سهول عبادان يأتي حيوان مُرعب جداً بحيث أن النساء يغبن عن الوعي لمّا يشاهدنه»، أعلن حارس حديقة الحيوان. «الرجال ترتعد أوصالهم من الخوف. والأطفال يبكون حين يزمجر».

1- آلة لتقليب التربة أو تسويتها rake: تُسمى باختصار بـ «المِدمّة»، وبالدارجة العراقية: «الخرماشة» - م.

كان الجمهور قد أصابه الشلل جرّاء صوت الرجل العجوز الشبيه بالرعد. «ملك الغابة. ملك الملوك».

أطلق الجمهور «آه» جماعية.

وفيما هو ينظر إلى الحمار الواقف أمام حزمته، حزمة القش التي لم تُمَس، استطرد حارس حديقة الحيوان قائلاً: «وهنا يوجد [جوب]. حيوان الحمولة العائد لله. إنه حيوان مُضطهَد، مُستهزأ به، تمّت التضحية به».

أطلق الجمهور «آه» جماعية ووضع المساعد يده على فمه كي يكبت بكاءه.

أنهى حارس حديقة الحيوان مونولوجه بـ «سيداتي وسادتي، هيّئوا أنفسكم لقبضة الظالم الحديدية فيما هو يفترس الضعيف. إنه قانون [الطبيعة]. الله وحده من يجازي الضعيف في الآخرة. أما في هذه الحياة، فكلّنا هالكون».

بدأ يضرب على دفه، ثمّ ابتعد عن القفص وأومأ برأسه للمساعد المخلص كي يقود الحمار إلى الداخل.

أحس المساعد أنّ قلبه يضرب عبر صدره المليء بالندوب فيما هو يسير نحو شاپور. أخذه من الحبل الذي يطوّق عنقه، وجعله يمشي إلى مؤخرة القفص. فك المزلاج. قبيل أن يخلع الحبل ويقود الحيوان إلى عرين «أسد الله»، داعب مؤخرة أذنيه، حدّق في عينيه وابتسم، وبادر قائلاً: «ورغم ذلك، لا يزال يحدوني الأمل».

وبعدها أغلق المزلاج وانتزع البطانية من على القفص.

ران سكونٌ غريب على حظيرة الماشية عند موقع الحدث: أسد يتحرك حركة طفيفة وهو يصحو في أحد جوانب القفص، وثمة حمار يقف من دون حراك وهو مرتبك قليلاً في الجانب الآخر. بدأ الأسد يخطو على شكل أرقام 8، غضبه يتصاعد، ويقيس الحيوان في أرضه. تصاعدت زمجرة من حجابه الحاجز. كشّر لمّا شمّ رائحة الفريسة. أدار الحمار ظهره ببطء للأسد ووقف من دون حراك. حبس الجمهور أنفاسه.

من دون تحذير اندفع الأسد بقوة على الحمار، مزمجراً، وتحديداً في

الوقت الذي كان فيه الحمار يستند إلى كفله الأمامي. راح الأخير يركل مستعملاً رِجليه الخلفيتين بكلّ قوته، حتّى جعل الأسد يطير عائداً إلى مؤخرة القفص. اصطدم الأسد بالقضبان، وقعقع الهيكلَ كلّه وحطّ على الأرض بصوت مكتوم. سقطت أفواه الجمهور بنحو جماعي. هرع حارس حديقة الحيوان إلى الأسد ودس يده بين قضبان القفص كي يمس رأسه. أطلق الحيوان دمدمة ضعيفة وبعدها أمست عيناه مشدوهتين. سقط رأسه. لم يعد هناك.

هتف أحد الأشخاص من الجمهور: «مات الأسد! يعيش الحمار!».

خارج حظيرة الماشية، كانت الريح قد دفعت الأوراق الساقطة في داخل هيجان دوامة. كان هذا هو الصوت الوحيد فضلاً عن هتافات الحشد. يعيش الحمار! يعيش الحمار! زينده - بود خار!

فُتحت أبواب القفص على وسعها. أتى الحمار يهرول خارجاً والحشد يلاحقه، يهتف ويصفق فيما كانوا يسيرون خارج حظيرة الحيوانات وهم ينشدون: «يعيش الحمار! يعيش الحمار! زينده - بود خار!»[1].

جلس حارس حديقة الحيوان على الأرض بجانب القفص، ممسكاً رأسه بيديه. لم يبقَ أحد في حظيرة الحيوانات باستثناء الحارس المخلص الذي وقف وراءه ويده على كتفه. كانت رزانة صوته قد أضعفتها البسمة العريضة البادية على وجهه، قال: «ربما كوب شاي، سيدي؟».

1- زينده-بود خار Zendeh - baud Khar: وردت بالفارسية اللفظية في النص الإنكليزي الأصل - م.

باريس

III

وقف شازديپور خلف كشك للصحف وراح يراقب صديقه تريانان عبر الشارع عند المقهى. كانت «حرب الأسد والحمار» هي أول قصة رواها شازديپور له في حياته كلّها، عند المنضدة نفسها بالضبط التي جلس إليها تريانان الآن. كانت القصة قد فتنت صاحبه، وكان يُريد أن يعرف ماذا جرى لحارس حديقة الحيوان والمساعد المخلص.

«حسناً»، قال شازديپور. «حصلا فعلاً على بعض الطيور، إلا أنّ المساعد المخلص فقد عينه في [حروب الصقر] بعد بضعة أعوام».

اليوم، تأخر شازديپور أكثر من ساعة على وجبة الغداء. كان تريانان قد تناول طعامه أصلاً ودفع فاتورة حسابه. فيما كان شازديپور يشاهد تريانان وهو يغادر، كاد أن يلّوح له. لم يشأ أن يُقلق صديقه، لكن ماذا يستطيع أن يقول كي يُبرر تأخره وظهوره. زيادة على ذلك، كان مُرهَقاً. لم تكن لديه الكلمات قط كي يفسر ذلك.

قبل ثلاثين عاماً مضى، كانا قد تقابلا لمّا وصل شازديپور أول مرة إلى باريس. كان تريانان نادله. كانت لغة شازديپور الفرنسية لا تزال متقطعة في ذلك الحين، وحاول، عبثاً، أن يطلب هامبورغر معمولاً بشكل جيد إلا أنه أُعطي شريحة من لحم البقر مع بطاطس على شكل أصابع، غير مطبوخة جيداً. وانطلاقاً من اللياقة، أكل اللحم الدموي حتى آخر قطعة، مسيطراً على حافز التقيؤ بقدر ما يستطيع. لم يسبق له أن تناول لحماً غير مطبوخ تماماً أو مُقطّعاً إلى أجزاء صغيرة جداً. حتى إنه طلب شريحة

من الليمون من أجل مائه الفوّار واستعملها على شريحة لحم البقر، آملاً أن يفتت الحامض شيئاً من اللحم. لم يفعل ذلك، بل جعله ذا نكهة مميزة ليس إلا.

بمرور الزمن، لجأ شازديپور إلى لغة الرومانس، وبسهولة تبنّى صوت حرف «الراء» الحلقي. إلا أنّ التلفّظ برهن على كونه شيئاً ضئيلاً من التحدّي، لأنه لا توجد اختلافات جندرية كهذه، مثل «هو» أو «هي» في اللغة الفارسية. استمتع وهو يُخبر تريانان كم عدد الكلمات من الفرنسية التي شقت طريقها إلى اللغة الفارسية، مثل «ميرسي»[1]، «تواليت»[2]، «أسانسير»[3]، «أناناس»[4]، «شوفاج»[5]، «كومبوت»[6]، «ديكولتيه»[7]، «فو كول»[8]، وكيف أن مقاطع لفظية كاملة مثل «كي يا؟»[9]، كانت متطابقة صوتياً.

تريانان، من جانبه، كان يحلو له أن يتحدّث عن الاتحادات، الجمعيات، الإضرابات، ولماذا كان الإعطاء الإجباري للبقاشيش هو الطريقة الوحيدة التي يستطيع فيها الإنسان الفرنسي أن يخدم الشعب. منذ إحالته على التقاعد، كان يدعو شازديپور إلى غداء أسبوعي، وهو طقس كان يتحمله شازديپور لمجرد أن يحصل على الفطائر، كل وسط رقيق فارغ منها مملوء

1- ميرسي merci: وردت بالفرنسية في النص الإنكليزي، وتعني: شكراً - م.

2- تويليتس toilettes: وردت بالفرنسية في النص الإنكليزي، مفردها يعني: التبرّج أو الثوب - م.

3- أسانسير ascenseur: وردت بالفرنسية في النص الإنكليزي، وتعني: المصعَد - م.

4- أناناس ananas: وردت بالفرنسية في النص الإنكليزي، وهو نبات ذو ثمار عنبية متراصة على شكل أكواز الصنوبر. بالإنكليزية pineapple- م.

5- شوفاج chauffage: وردت بالفرنسية في النص الإنكليزي، وتعني: التدفئة - م.

6- كومبوت compote: وردت بالفرنسية في النص الإنكليزي، وتعني: فاكهة مطبوخة بالسكر بطريقة تحافظ معها على شكلها - م.

7- ديكولتيه décolleté: وردت بالفرنسية في النص الإنكليزي، وتعني: مرتدية فستاناً ذا رقبة مقوّرة. بالعامية العراقية: مرتدية فستاناً ذا «دلعة» واسعة - م.

8- فو كل faux col: وردت بالفرنسية في النص الإنكليزي، وتعني: ياقة منفصلة، أو ياقة كاذبة - م.

9- كي يا؟ qui est?: وردت بالفرنسية في النص الإنكليزي، وتعني: من؟ - م.

بالكرِيم أو القَستر، ومبلل بقطرات من الشكولاتة أو مسحوق السكر. كانت عجينة فطائر[1] أعجوبة.

حبه لصديقه قد أعاده إلى المنضدة أيضاً. تريانان هو من يساعده حين يكون في أمس الحاجة إلى المساعدة. من دون أن يقول شيئاً، لاحظ تريانان كيف أن طلبات شازديپور قد تحولت من وجبة طعام كاملة إلى مجرد فنجان صغير من القهوة. وفي يوم من الأيام، لمّا شاهد شازديپور يتسلى بالكتابة بالفارسية على منديل مائدة، اقترح أن يحاول شازديپور بيع لوحات الخط الفارسي في إحدى ساحات المدينة.

خلال غدائهما الأسبوعي، كان تريانان يطلب دوماً طعاماً لهما، يمازح نادلهما الذي كان مبتدئاً فيما مضى. طلبه هو نفسه دوماً: طبقان من شريحة لحم البقر، وشرائح بطاطس على شكل أصابع غير مطبوخة جيداً. كان تريانان يعتقد أن شازديپور يحب هذا الطبق إلى حدّ كبير.

لم يكن شازديپور يقبل أن يصحح اعتقاد صاحبه. أكل حافات شريحة لحم البقر ونحت القطع المسمّرة بعناية، لكنه ما إن وصل إلى اللحم الدموي للحيوان حتى جعلته أمواج الغثيان غير قادر على القيام بأيّ شيء باستثناء أن يبتسم بسمة ضعيفة ويرتشف ماءه.

كان يختتم كلّ وجبة من وجبات غدائه بأن يضع يده على صدره، شاكياً من حرقة المعدة، ويُعطي طبقه إلى تريانان. كان يراقب بهلع الرجل الفرنسي وهو يقتطع اللحم، ويتناوله في ثلاث لُقم متعاقبة، شارباً العصير مع المايونيز والبطاطس المحمرة على شكل أصابع.

في مناسبة واحدة لم يكن قادراً على التحكم بنفسه وبدأ يتكلّم عن اختراع النار المُسيطر عليها التي بدأت تَحوّل الإنسان إلى كائن متحضر. هذه هي النار التي أنزلتنا من الأشجار. وفيما هو يحدّق في طبق تريانان الدموي، تكلّم بشغف عن النار والطهي. السهولة التي يستطيع المرء بواسطتها أن يمضغ اللحم المطبوخ، قال، هي التي قلّصت حجم الأسنان البشرية والوقت

1- عجينة فطائر أو chaux pastry: نوع من عجينة فطائر خفيفة بالزبد والبيض، تُستعمَل عادة في الكيك والحلوى مع حشوة الكرِيم - م.

الذي يُقضى في الهضم. كانت القبائل تتجمع حول النيران كي تطبخ وتروي القصص. من الجليّ، كان يتعين على صديقه أن يفهم ما عناه.

وفيما هو منهمك في التهام البطاطس المحمرة، ابتسم تريانان ببساطة وقال: «الأسبوع القادم، سوف آخذك إلى مقهى في مونتپارنيس[1] كي يكون بوسعك أن تتناول أفضل شريحة لحم بقر نِيء في حياتك. وبعدها، سنرى كيف سيكون شعورك فيما يتعلّق بنارك تلك!».

«يا له من شيء مُبهِج»، قال شازديپور، وهو يعي أنّ ذوقه هو سبب معاناته. كان مُعجباً بتريانان بسبب الطريقة التي كان يُفصح فيها عما يدور في خلده. إذا لم يكن يحب شيئاً ما، لم يكن يتردد في قول ذلك. وإذا ما أراد شيئاً ما، لم يكن يتردد في طلبه.

في المرات القليلة الأُولى، صُعِق شازديپور بوقاحته. سواء أكان ذلك إعادة وجبة طعام لم تنل رضاه، أو رفض كوب شاي أثناء زيارته لشقة شازديپور.

«شيئاً من الشاي؟».

«لا، جزيل الشكر»، قال الرجل الفرنسي.

«أنا أصر».

«لا».

«أرجوك، اشرب!».

«لا أرغب بشرب أيّ كمية من الشاي. لكنني سأشرب شيئاً من الخمر إن كان بحوزتك».

وبعد برهة، أخذ شازديپور يحسد صديقه. كان تريانان يأكل ما يحب، يمضي إلى الأمكنة التي يريد الذهاب إليها، يغادرها إذا شاء ذلك، ويفصح عما يجول في ذهنه، حتى إذا كان يعيش حياته من دون أن يُبالي بوقت الأشخاص الآخرين. كان شازديپور سجين لياقته. كان يجلس مدةً أطول

1- مونتپارنيس Montparnesse: منطقة في جنوب باريس، فرنسا، على الضفة اليسرى من نهر السين، تتمركز في تقاطع جادة Boulevard du Montparnasse وشارع Rue de Rennes. كانت مونتپارنيس جزءاً من باريس منذ العام 1669 - م.

مما يرغب، يُقيم حوارات كادت تجعله يخلد إلى النوم، ويتناول وجبات طعام تجعله يتقيأ، هذه كلّها تحت ذريعة عدم إزعاج الآخرين. إنها فجوةٌ ثقافية لا يُمكن طمرها. وهذا ليس كلّ شيء: أدرك أنّه يقول أشياء لم يكن يعنيها على الإطلاق، أشياء، إذا ما تعين عليه أن يقول من أين أتى بها، فسوف تُفهم بنحو واضح.

في أول مرة أتى فيها تريانان إلى منزله، أشاد كثيراً بسجادة شازديپور الحرير المحبوكة باليد، السجادة المحبوبة التي كانت مفروشة في وسط الغرفة. كان شازديپور قد قهره إلى حدّ كبير تثمين تريانان للسجادة بحيث أنه وهبها له بكَرَم بالقول: «إنها لا شيء. إنها ملكك!».

«حقاً؟».

«بالطبع! كلّ ما لديّ هو ملكك!».

تألقت عينا تريانان وهو يباشر بطيّ السجادة وشكر صاحبه على سخائه. كان شازديپور مصعوقاً جداً بحيث أنه لم يغمض له جفن طوال ليال عدّة. وفي كلّ مرة كان يزور فيها منزل تريانان ويرى السجادة، كان يحس بوخزة ألم شديد تصعد إلى حنجرته. هذه الوخزة مكثت هناك، لطخة سوداء تلوّث صداقتهما هو وحده الذي وعى بها. كان تريانان ينظر دوماً إلى السجادة التي أصبحت الآن في غرفة مكتب منزله ويشرب نخب سخاء صاحبه.

كانت وجبات طعامهما في المقهى تنتهي على الدوام بفنجانين صغيرين من القهوة، وكانا يشربانهما بكسل أمام أنظار الآخرين.

«أتعرف أن الفُرس كانوا شاربي قهوة قبل أن يكونوا شاربي شاي؟» كان شازديپور ينوّه بذلك أحياناً.

«حقاً؟ هذه المعلومة بمنزلة أعجوبة».

«أجل. الروس هم الذين أدخلوا الشاي إلى إيران. كما أنهم أعطونا السماور. ونحن لا نزال نُسمي محلات الشاي العمومية [مقاهي]».

«لماذا تهجرون القهوة وتلجؤون إلى الشاي؟».

«كان الشاي رائجاً لدى الطبقات العليا في الشمال، بخاصة في القرن

التاسع عشر. في اعتقادي مزيدٌ ومزيدٌ من الناس بدؤوا يشربون الشاي كي يرفعوا منزلتهم في المجتمع».

«إلا أنهم ما زالوا يشربونه في مقاهٍ حقيرة!».

***

راقب شازديپور، وهو لا يزال واقفاً عبر الشارع خلف الكشك، تبديل المناوبة في المقهى. لن يقابل صديقه، ولن يرجع إلى عربته اليدوية. أحس بأنه قانط وقلق. لم يحس هكذا في حقبة زمنية تزيد على ثلاثة عقود. هزّ رِجليه وبدأ يمشي في اتجاه منزله. سوف يتسوّق ما يحتاجه. سوف يشتري جبنته البيضاء الفرنسية والخبز البربري[1]. ربما سيشتري بعض المارتديلا[2] وكيساً من الكرز. سيكون وحيداً في حجرته. سيكون في مأمن.

1- الخبز البربري barbari bread: خبز فارسي شائع، مُسطح وذو قشرة هشة وقوام لين رقيق. هذا النوع من الخبز من الأفضل أن يؤكل وهو ساخن فورَ خروجه من الفرن، وهو أكثر أنواع الخبز المفضلة في وجبات الإفطار- م.

2- المارتديلا mortadella: نوع من أنواع النقانق الإيطالية كبيرة الحجم، أو لحم اللانشون مصنوع من اللحم المُصنّع والمطحون مخلوطاً بالتوابل والفلفل الأسود، مع قطع من الدهن، وفي دول أوروبا تكون مصنوعةً في الغالب من لحم الخنزير. المارتديلا ابتُكرت في مدينة بولونيا في إيطاليا. - م.

بيبي وأكبر

وقفت بيبي في حمامها الخاص فيما كان بخار الماء يملأ الحجرة المرصوفة بالآجر. خفضت بصرها وتطلّعت إلى بدنها، وهو لا يزال في شكل جميل بالنسبة إلى امرأة يبلغ عمرها تسعة وخمسين عاماً، ولمست ندبة كانت تمتد عمودياً من سرّتها إلى أعلى عظم عانتها. منجلٌ أبيض رفيع كان دوماً يُذكرها كيف أنها وقعت في غرام زوجها.

في ذلك الحين كانت في ربيعها التاسع عشر، ومضت ثلاثة أعوام على زواجها، وهي حامل منذ ستة أشهر بطفلها الأول. كانت الأخبار المتعلّقة بالطفل الصغير مصدر راحة بالنسبة إليها. كلتا الأسرتين كانت قلقة فيما يتصل بالمدة الزمنية التي استغرقتها كي تحمل بطفل. استيقظت صباح ذلك اليوم وهي تشعر بمغص في معدتها. دعكت بطنها وتكلّمت بهدوء مع الطفل، مثلما كانت تفعل منذ بداية حملها: «استقرّ. أمامنا مزيدٌ من الوقت».

تحرّك زوجها حركة طفيفة بجوارها، ولمست وجهه. كان أكبر رجلاً وسيماً ذا عينين خضراوين عسليتين. كانت رباطة جأشه ومنزلته في المجتمع قد جعلتاها تهابه. حتى ذلك الحين، كان زواجهما علاقة غرامية رسمية. حتى ممارساتهما الجنسية كانت لائقة ومعتدلة. لم يتشاجرا البتة وكان كلّ واحد منهما يخاطب الآخر بمصطلحات لائقة. وفي كلّ ليلة حين ينسحبان إلى غرفة نومهما، كان يستدير حين تخلع ملابسها وترتدي ثياب النوم، ثم يضطجع بجوارها ويطلب رخصتها في أن يكون معها.

نظرت إليه صباح ذلك اليوم، نظرة يملؤها الاحترام والحنان اللذان يمتلكهما المرء نحو شخص في منزلته الرفيعة، إنما من دون حب.

بدأ صباحه بالطريقة التي كان يبدأه بها يومياً، مضطجعاً على الأرض كي يؤدي تمارينه الرياضية. كانت بيبي تراقبه وهو يندفع بقوة ويدفع ويسحق بجلبة غير أنها لم تقل له شيئاً عن مغصها. ولمّا انتهى من تمارينه، طبع قبلة على جبينها وغادر الحجرة. استوت بيبي في سريرها وأحست بوجع حاد مباغت ينبثق عبر بطنها. هبّت واقفة. كانت الرطوبة قد تفجرت بين رِجليها. نظرت إلى الأسفل. شاهدت دماً. كان باستطاعتها أن تسمع الصوت البعيد لصوتها وهو ينادي باسم زوجها قبل أن تفقد وعيها ويمسي كلّ شيء أسود.

استفاقت وهي في فراش غريب، من دون أن تعرف ماذا حصل. وضعت يدها على بطنها. كان مُخدراً. كان هنالك دثار سميك بين رِجليها. جلست في سريرها كي تنادي على زوجها، إلا أنّ مغصها كان شديداً جداً بحيث لم يكن بوسعها سوى أن تتدحرج كالكرة وتنشج. خارج الباب، سمعت همسات. إنه صوت زوجها. صوت رجل. وبعدها وقع أقدام.

لمّا توجه أكبر إلى سريرها، تفجر مغصٌ آخر عبر بدنها. بدأت تبكي، من الإذلال والارتباك أكثر مما هو من الوجع. هرع إليها كي يجلس بجنبها، ووضع يده على جبهتها فيما هو يخاطبها قائلاً: «سمعتُك تنادين عليّ هذا الصباح وتركضين عائدة إلى داخل الحجرة. كنتِ تنزفين وغائبة عن الوعي. أحضرتكِ إلى هنا في المستشفى وفحصتك الطبيبة وقالت إن الطفل قد أحدث فتحةً في رحمك وينبغي إخراجه».

«هل مات طفلي؟».

«إنها طفلة»، أجابها هامساً. وضع شفتيه على جبينها وأبقاهما هناك فيما هي تبكي بصمت. كان هو أيضاً يبكي. كان بمستطاعها أن تحس ببكائه، إلا أنه استأنف حديثه بصوت هادئ ورزين: «كان يتعين على الطبيبة أن تُزيل رحمك».

تصاعد الرعب داخلَ صدر بيبي بقوة شديدة بحيث أنه حبس أنفاسها. كافحت كي تتنفس وكي تحتوي الهلع المتفاقم في داخلها. زوجة شابة عقيمة هو مصير أسوأ من أُم طفل ميت، لم يُولد. طوّقها أكبر بذراعيه واحتضنها بقوة. لم يجلب لها هذا الراحةَ والاطمئنان. لم تكن قادرة على الحركة، على التكلّم، أو الإحساس بأيّ شيء.

تماثلت للشفاء بسرعة بعد العملية الجراحية إلا أنّ الخوف من ورطتها لم يُتح لها أن تحزن على طفلها الذي لم يُولد. عادت إلى واجباتها المألوفة في أن تُبقي أمور منزلها قائمة على قدم وساق، تطبخ لزوجها ووالديها اللذين لا يزالان يُقيمان في البستان ولم يناقشا مرة واحدة ما حدث. كانت أمها تعرض للمناقشة إمكانية أن يختار زوجها زوجة ثانية باستطاعتها أن تنجب له الأطفال، وهي المرة الوحيدة التي شعرت فيها بيبي أن خوفها يرتفع إلى السطح. إلا أنها تنفست الصعداء وتجاهلت المرأة.

في ما بعد ظهيرة أحد الأيام، قبل وفاته غير المتوقعة بوقت غير طويل، والد أكبر الذي كان يُدعى على الدوام بلقبه التشريفي «حاج - آغا»، زار المنزل كي يحتسي الشاي. ومثلما فعل حين أحضر ابنه كي يطلب يد بيبي، أثنى كثيراً على الديكور الثمين. ومن ثم أغدق المديح على بيبي التي بوسعها أن تسمع نبرة صوته المُرائية طوال المسافة من المطبخ. ولمّا رجعت إلى غرفة المعيشة كي تقدّم الشاي، أصغت فيما كان حاج - آغا يتكلّم عن احتمالات اختيار زوجة ثانية لابنه. كان في باله عدد قليل من نساء شابات، ينتمين إلى عائلات طيبة سيكن ملائمات لتولّي هذا الدور. إنما بطبيعة الحال ما من واحدة منهن تُضاهي بيبي-خانوم في جمالها ولياقتها. كما تكلّم كذلك عن كيف سيكون مفيداً وجود زوجة جديدة في المنزل. كان رجلاً عملياً بامتياز.

أحست بيبي أنّ يديها ترتجفان وانحنت فيما كانت الصينية أمامه. أخذ قدحاً من الشاي ومكعباً من السكر وتابع حديثه. قدّمَت الشاي للأهل والزوج، من دون أن تنظر مباشرة في عينيْ أيّ واحد منهم، ورجعت إلى المطبخ، وراحت تلف وتدور كي تُبدد غضبها. لم تخرج من جديد إلى أن سمعت والد زوجها يغادر المنزل، حينئذ فقط راحت تومئ برأسها تحية الوداع من مسافة آمنة.

جلست الأسرة بصمت خلال العشاء في تلك الليلة. ولمّا فرغت بيبي من عملها في المطبخ، أطفأت المصابيح ودلفت إلى غرفتها كي تستعد للنوم. كان زوجها قد دخل الحجرة أصلاً، في انتظارها. أشاح بصره عنها فيما هي تنضو عنها ملابسها وتندس تحت الأغطية، تدير رأسها بعيداً وتتمنى له ليلة سعيدة. بعد لحظات من الصمت، قال لها: «نحن لسنا حيوانات كي نُرعى

كالماشية. لقد أعطيتكِ وعداً وسوف أُبجله. إنها ليست غلطتكِ أن يحدث هذا. وإذا تعين علينا أن نكون بلا أطفال، إذاً ليكن ما يكون. دعي الرجل العجوز يتقبّل هذا الوضع الصعب. لقد ساق أمي إلى قبرها في وقت مبكر، لن أدعه يسوق زوجتي إلى قبرها».

انهارت بيبي وراحت تنشج بين ذراعيه. «ماتت طفلتي»، همست فيما هي تمسك به. حتى تلك اللحظة بالذات لم يكن أكبر يُدرك أنّ زوجته منعت نفسها من أن تحس بالعبء التام لخسارتها. كانت رهينة خوفها ورهينة المجتمع الذي تسبّب بذلك الخوف. إنّ إعطاءَها الحرية لن يمنحه السلوان. ماذا لو أنه كان على غرار أبيه؟ ماذا سيحصل لها؟

طوال أربعة عقود من الزمن، عاشا متساويين. سافرا عبر البلاد. أمضيا ساعات طويلة وحدهما في أكثر أنواع الصمت أُلفة. أقاما زفاف شازدييور وصبا في البستان وسمحا لجمشيد ومجيد بأن يتصرفا على هواهما في البرّية. اعتنيا بالغلامين الصغيرين بعد وفاة أمهما ومنحا شازدييور العزاء فيما كان يحزن على زوجته في صمت. كانا يعتنيان بنسرين كلّما تُحطم نوباتُ غضب أمها الفتاةَ الصغيرة. استقبلا ميرزا وجعلاه يضطلع بمسؤولية الحدائق والأشجار. تحمّلا محاضرات المُلّا وكانا يحرصان على استقباله على الغداء كلّ جمعة. ولمّا حكت لهما القابلة عن طفل وُلد لامرأة لا تريده، أحضر الاثنان، بيبي وأكبر، الطفلَ إلى منزلهما.

كان بستانهما يمتلئ بكائنات حية مُنكسرة، متوقفة عن النمو، كائنات حية ضائعة تكوّنت إلى النصف. إلا أنها كانت تعيش على الرغم من ذلك. بين الأسوار الأربعة لأرضهما، شيّدا منزلاً وفّر مأوى للناس من دون حُكم أو خوف، وقد أتاح للاثنين معاً السكون والشدو.

***

بعد أن انتهت بيبي من استحمامها، دلفت إلى حجرة النوم واندست تحت الأغطية بجوار زوجها. كان يطالع صحيفة اليوم.

«ماذا تقرأ؟».

«ذلك الشاب الذي قتل ابن التاجر أُعدم هذا الصباح».

«عسى أن يشملهما الله برحمته الواسعة».

«ثمة أعمال شغب. شقيقي هو من نظّمها».

أحست بيبي بوخزة إثم. لم يسبق لها أن أخبرت زوجها عن ذهابها إلى المدرسة بصحبة حبيب لمّا كانت فتاةً في ميعة الصبا أو عن الخطوات الواسعة المفعمة بالأمل التي اتخذها بجانبها. «إنه يلعب دور الله بأرواح الناس»، قالت.

فكّر أكبر في شقيقه. طفولته المؤلمة، عدم اكتراث أبويهما، مصير والدتيهما، الاستخفافات والمهانات اليومية... كلّ تلك اللحظات كانت أشبه بألف جرح سطحي في الجلد استنزفت أخيراً قلب شقيقه. «إنّه إنسان مُحطَّم»، قال. «والبشر المُحطَّمون هم وحدهم من يعرفون معاناتهم».

وضعت بيبي رأسها على صدره وقالت: «لدينا حياة كريمة هنا، أكبر. إني أشكر الله على ذلك يومياً».

«نعم، بين هذه الأسوار الأربعة. إنما يوجد عالمٌ واسع في الخارج».

«أنا خائفة على أسرتنا. لا أريد لطريقتنا هذه في الحياة أن تنتهي».

خفّض أكبر جريدته ودعك عينيه. أطفأ الأضواء واندس تحت الأغطية. تحت جُنح الظلام، تحدّث بما يشبه الهمس: «كلّ شيء يجب أن ينتهي، حبيبتي».

الموعظة الدينية
ومناجاة النفس

تفرس مجيد في الصورة الفوتوغرافية بالجريدة، صورة الشاب الذي شُنق. كان قد قابله قبل بضعة أعوام خلت في الجامع. كان اسمه محمود رضا. مجيد، مثله مثل كثير من الشبان من مدرسته، تعوّد أن يقضي الوقت في الجامع، ليس لمجرد أداء الصلاة بل كذلك كي ينخرط في المناقشات. لم تكن تتصاعد توترات معينة إلا حين يتم التطرق إلى قضية السياسة. كانت دعوات محمود رضا للاستقلال الذاتي القومي هي التي ألهمت مجيداً بقوّة، إلا أنه وجد الأمر صعباً أن يجعل الحماسة الدينية تنسجم مع الحرية الفردية.

صام مجيد شهر رمضان إلا أنه كذلك استمتع بنبيذه مع ميرزا. كان يُخطط للزواج من المرأة التي وقع في غرامها، غير أنه أيضاً تمنى أن يكون معها بنحو حميم قبل حلول ذلك اليوم. في أيام الجُمع، كان يجلس للاستماع إلى مواعظ المُلّا الدينية، الأمر الذي كان يُسبّب لأبيه خيبة أمل. كان أبوه يخشى من احتمال أن يصبح مجيد متديناً، وهذا بالنسبة إليه أسوأ من أن يكون ابنه مُدمناً على المشروبات الروحية أو المخدرات. غير أنّ مجيداً استشف تحيز أبيه وتجاهُله. ومع أنه لم يقل ذلك بصوت مرتفع، هو، أيضاً، كان يفكر بأن أباه «رجلٌ كثير الأناقة». لم يكن يعوّل عليه قط فيما يتصل بقراره المتعلق بالقضايا الجادة.

في بعض أيام الجُمع، كان يُصاحب المُلّا إلى غداء الأسرة بعد الخدمة الدينية. كان يطرح على المُلّا أسئلة أثناء مسيراتهما من المسجد إلى البستان. الاثنان تقاربا كثيراً. كانت مواعظ المُلّا الدينية عادة عن كرامة الإنسان، عن

خدمته لله، وعن حنوه تجاه رفاقه البشر. لم يكن مجيد يؤمن خصوصاً بالله، إلا أنه كان يؤمن بالآراء التي تنبعث من هذه العبادة.

ثمة موعظة دينية واحدة بالأخص وجدها مجيد مؤثرة جداً. كانت تتمحور حول مؤذن النبي، بلال بن رباح، وهو عَبد أثيوبي كان قد أعتقه النبي وجعله صوت العقيدة من خلال دعوة أتباعه لأداء الصلاة.

في المسيرة الراجلة إلى البستان ذلك اليوم، كان مجيد متحمساً جداً لأن يتحدّث عن الموعظة الدينية. «هل تعتقد أن الرجال جميعاً سواسية؟» سأل مجيد المُلّا.

«يقول النبي إنّ الرجال، أمام الله، هم جميعاً سواسية».

«وماذا بشأن النساء؟».

بهت المُلّا: «ماذا بشأنهن؟».

«هل هنّ غير متساويات؟».

«لدينا أمكنة مختلفة في عالمنا هذا. إنها مسؤوليتنا أن نصون النساء».

«ممَّ نصونهن؟».

«من أشرار عالمنا هذا».

لزم مجيد الصمت، وهو ما عدَّه المُلّا قبولاً، ثمّ استطرد قائلاً: «للنساء القدرة على جلب الحياة إلى عالمنا هذا. لولاهن ما كان بوسعنا أن نوجد. أمهاتنا، شقيقاتنا، بناتنا. إنها مسؤوليتنا أن نحميهن. أن نحميهن من أنفسهن إذا اقتضت الحاجة. وكما ترى، هُنّ، بشكلٍ من الأشكال، أهم منا، نحن الرجال».

«إذاً لماذا يكون وزن كلمتهن هو نصف وزن كلمتنا؟ لماذا تكون حقوقهن نصف حقوقنا؟».

توقف المُلّا عن المشي. «ماذا تروم القول، يا فتى؟».

«لا شيء، حاج – آغا. أودّ أن أفهم لماذا لا تتساوى النساء مع الرجال».

«ما من شيء كي تفهمه. النساء جنس أضعف ومن واجبنا أن نحميهن».

كانت تلك أول مرة يبدأ فيها مجيد الشكّ في تفويضه. بعد ذلك اليوم، بدأ يلجأ إلى كتبه كي يجد الأجوبة، وفي النهاية كفّ عن الذهاب إلى صلاة الجمعة تماماً.

نظر مجيد إلى المقالة التي رافقت صورة محمود رضا. قرأ كلمات المُلّا عن «الشهادة»، و«عدم المساواة الاجتماعية»، و«العدل». ظاهرياً، بدت هذه الكلمات نبيلة ونزيهة إلا أنّ مجيداً كان يعرف محمود رضا. كان قد شاهد الشاب الآخر، أردشير، وهو يموت في الساحة. لم تكن الأفكار والرموز هي القضية بل حيوات بشرية حقيقية، انتهت قبل أن تُعاش.

توجه إلى خارج المنزل. الشوارع هادئة. مشى بنشاط في جانب الطريق المفضي إلى المسجد. كان سكان المدينة قد تجمعوا كي يحتفلوا باليوم الثالث بعد شنق محمود رضا. كانت أيام الحِداد تأتي في زيادات من ثلاثة أيام، سبعة أيام، وأربعين يوماً. هذا هو الشطر الأول من ذلك الثالوث.

دلف مجيد إلى الجامع، خلع فردتيْ حذائه، ودخل القاعة الرئيسة من دون أن يتوضأ. كان قد مضى زمنٌ طويل منذ أن كان هناك. كانت الرائحة اللاذعة لعبير الأجسام قد اختلطت بعبير ماء الورد. غطى فمه بكُمه فيما هو يسير إلى المؤخرة ويتخذ مجلساً. في جميع سنواته التي حضر فيها صلوات الجُمع، لم ينتبه إلى هذه الرائحة من قبل.

كانت القاعة الرئيسة مكتظة بالمُعزين. جلس الرجال في أحد الجانبين فيما جلست النسوة في الجانب الآخر، تفصل بينهما ملاءة سوداء. كانت أصوات التكلّم، البكاء، والصلاة ترتد من السقف العالي المُقبب للجامع. كانت أُم محمود رضا جالسة في الأمام، تقوّس جذعها وتغطي نفسها بعباءتها فيما هي تنتحب. كانت النسوة بجوارها يمسكن بها ويتأرجحن معها. كلّ بضع دقائق كانت ترنو ببصرها وتنتحب: «ولدي، ولدي، ولدي» فيما هي تضرب رأسها.

جلس المُلّا مع والد محمود رضا وأعضاء الأسرة الذكور. كان ينقر بإصبعه بنحو إيقاعي خرزات مسبحته ويتكلّم بهدوء في أذن والد الشاب المتوفى، إلى أن هبّ واقفاً واستدار باتّجاه جماعة المُعزين. سكت الجميع فيما هو يسير إلى المنصة ويصعد إليها. ارتقى الدرجات السبع إلى المنبر، جلس هناك، وخفض عينيه ناظراً إلى المُعزين.

ومن دون سابق إنذار، باشر يتكلّم بهدوء، بنبرةٍ مميزة تقريباً، من دون أن يرفع عينيه عن مسبحته.

«قبل ثلاثة أيام»، قال، وهو يدع كلماته تدوّي في الجامع. «قبل ثلاثة أيام جلستُ في داخل زنزانة أحد السجون مع شاب يواجه موته. أنا مؤمن حالي حالكم جميعاً، وأعرف، كما تعرفون أنتم، أنه في الجنة، حيث نأمل نحن كلّنا أن نكون في يوم ما. أنا أعرف هذا مثلما تعرفون أنتم. أنا أبتهج بهذا كما تبتهجون أنتم. إنما قبل ثلاثة أيام خلت، جلستُ أمام رجل واعٍ، يواجه أصعب مهمة في حياته القصيرة. لا يسعك أن تعرف حقاً من أيّ معدن صُنع الإنسان إلا حين يواجه البلاء الأعظم في حياته. مَن يكون هذا الإنسان؟ بماذا يؤمن؟ وهل لا يزال يملك الإرادة كي يُضحي بآخر أنفاسه من أجل ذلك المبدأ؟».

توقف عن مداعبة خرزات مسبحته بإصبعه ورفع بصره ناظراً إلى الحشد، عيناه تلمعان. «قبل ثلاثة أيام مضت جلستُ في زنزانة أحد السجون قبالة شاب وكان يرد على سائر الأسئلة التي أطرحها عليه. جلسنا هناك في صمت الصلاة. أتى الحراس إلى زنزانته وقرعوا على القضبان. فتح عينيه ونظر إلى خارج نافذته الصغيرة وشرع يتكلّم: [وهبنا الله عالماً جميلاً]، قال. [وهبنا الله شمساً كي يكون بوسعنا أن نرى، وقمراً كي يكون باستطاعتنا أن نتأمل، وأرضاً كي نقف عليها، وسماءً كي ننظر إليها، وناراً كي تُبقينا دافئين في البرد، وماءً كي يُبرّدنا في الحَرّ. الله عظيم حقاً]. وعقب ذلك وقف واستدار كي يواجهني. [إني أقف أمامك باعتباري رجلاً محكوماً عليه بالموت]، قال. [لم يبقَ لي شيء في هذا العالم. هناك أشخاص لا يؤمنون، هؤلاء الأشخاص هنا الذين يُدنّسون هِبة الحياة التي مُنحنا إياها، هؤلاء الأشخاص الذين يجبروننا على التخلّي عن كرامتنا وإيماننا. نحن نناضل ضدهم. نحن نهلك في القتال. وعلى الرغم من ذلك أقول إن النضال الأعظم بين سائر ضروب النضال هو نضال المرء ضد نفسه]. عانقني وقاده الحراس إلى الفناء. وقف على برميل وكانت هناك أحبولة حول رقبته، وكانت الكلمتان الأخيرتان اللتان رددهما قبل أن يُركل البرميل من تحت قدميه، هما: [الله أكبر]».

وضع رجل الدين طرف عباءته على وجهه وشرع يبكي.

مَدٌّ متصاعد ببطء من «الله أكبر» بدأ يتصاعد في أنحاء الجامع. كانت الترنيمة تتكرر، أعلى فأعلى، وشعر مجيد بنفسه وهو يغطس في المكان

الذي يجلس فيه. كانت القوة المطلقة للأصوات، وعاطفة التضامن قد حبستا أنفاسه. راح المُلّا ينظر إلى الحشد ويتفرس فيهم. كانت دموعه قد جفت وبدا وجهه منتصراً. حدّق مجيد في هذا الرجل الذي عرفه طوال سنوات حياته ولم يتعرّف إليه. وقف وهرع صوب الباب، وهو يتخبط فيما هو ينتعل فردتيْ حذائه.

في الخارج، سار مبتعداً عن الجامع، من دون أن يلتفت إلى الوراء. لم يكن يعرف إلى أين هو ذاهب، كان يعرف من أيّ مكان يريد الهَرَب فحسب. سار من دون راحة إلى أن وصل إلى الكثبان الرملية، وفي سكون الريح، أبطأ خطواته وأحس، أخيراً، بأنه أهدأ بالاً، وأكثر سكينة واطمئناناً. كانت أفكار محمود رضا الأخيرة تجول في عقله. الحرب الدائرة في داخلنا هي أصعب المعارك طراً.

الصوت البعيد لأجراس الماعز انتشر في الريح. كانت الغربان تنعب عالياً في السماء. شاهد الشمس وهي تبدأ بالأفول، جالبة معها برودة قليلة. اشتاق إلى نسرين. كان يحتاج إليها، حتى لو لم يكن يفهم السبب.

بدأ يعدو صوب منزلها. بتهور. كاد أن يضيّع طريقه.

وفيما هو لا يزال يلهث، تسلل إلى داخل الحديقة. كان الضوء مشتعلاً في مخزن الخياطة العائد لأبيها وكانت هي جالسة عند النافذة، تحيك الدانتيلا. إن حياكة الدانتيلا، قالت له، تشبه التأمل. ولمّا اقترب منها، كان باستطاعته أن يسمعها وهي تدندن.

راقبها برهة في الظلام، أفكاره تضمر فيما هو يركز على التوتر في أصابعها الرقيقة، بشرتها الناعمة بلون الحليب الصرف. ماذا يوجد هناك باستثناء هذا؟ ما نفعُ الأفكار السامية في عالم يُديره المنافقون والقتلة؟ إن لمسة يدها هي أصدق الأشياء التي يعرفها.

دق مجيد برقّة على الشباك، ومع ذلك روَّعها. قفزت من مقعدها وهرعت كي تفتح الباب. «أين كنت؟» سألته. «قلقَ والدُك جدّاً عليك حين لم تظهر على الغداء. الجميع قلقون جداً عليك».

لفت ذراعاً على ذراع. وبعدها أطلقت تنهيدة: «كنتُ قلقة».

حدّق فيها، وراح يبتسم على إظهارها القلق.
مالت عليه وهمست برقة: «ما الخطب؟ هل أنت على ما يرام؟».
«تزوجيني»، قال.
وضعَت أصابعَها على شفتيه.
«تزوجيني»، قال ثانيةً فيما هو ينقل يدها ويضعها على فؤاده.

صبا

أُم مجيد، صبا، توفيت قبل أربعة أعوام. كان مجيد في الرابعة عشرة في ذلك الحين وجمشيد في السادسة عشرة. غاب جمشيد عن الأنظار بعد دفن والدته مباشرة، تاركاً شازديپور ومجيداً وحدهما.

أثناء شعائر الحِداد التي أعقبت ذلك، كان الأب والابن يمشيان مثل شبحين في أنحاء المنزل. فضاءات المعيشة التي تقاسماها بدأت تكتنفها حالة من الفوضى. كانت الأطباق تتكدّس في السِنك والملابس غير المغسولة متروكة هنا وهناك تجمع الغبار. كلّ واحد منهما انسحب: شازديپور إلى مذياعه ومجيد إلى كتبه. شازديپور لم يكن بمستطاعه أن يطيق النوم في الغرفة التي كان يتقاسمها في ماضيات الأيام مع زوجته. عمد إلى النوم في صالونه، ولم يكن يظهر إلا كي يتناول وجبات طعامه مع ابنه في صمت، وجبات طعام كانت تجلبها نساء المدينة إلى المنزل.

بعد انتهاء الشعائر، بيبي-خانوم وقمر باغتتا أسرة شازديپور مثل كناسي الشوارع البولشفيك ومعهما نسرين وجعفر في عهدتهما. أرسلتا الأب والابن إلى البستان وباشرتا بالتنظيف.

تسلّمت بيبي-خانوم قيادة المطبخ، أفرغت الدواليب (ذات رفوف للكؤوس والأطباق) والثلاجة الكهربائية، مسحت الرفوف وأعادت ترتيب الحاجيات. أضافت الباذنجان المخلل، كومبوت الخوخ، ومربى الكرز الحامض إلى مخزنهم. وقف جعفر قريباً منها، ساكناً، ينظر إليها. وفي الختام أعطته كيساً من الكرز الحامض المخلل وأرسلته. تحت سِنك المطبخ شاهدت حوضاً بلاستيكياً ناتئاً. سحبته إلى الخارج. كانت في داخله قطع من الخبز اليابس المتعفن. أفرغت الحوض وغسلته.

كانت صبا تُبقي ذلك الحوض دوماً تحت السِنك. كانت تملؤه خلال أيام الأسبوع ببقايا الخبز من فطور العائلة. في أيام الجمع وقت الظهر، كانت تُفرغه في كيس وتضعه خارج باب الفناء الخلفي مع قنينة حليب. شخصٌ ما لم تكن تعرفه قط، شخصٌ محتاج، كان يأخذ العطية وينقع الخبز اليابس بالحليب من أجل وجبة مُشبعة، وكان من دأبه أن يُعيد قنينة الحليب المغسولة الفارغة إلى الباب. توفيت صبا ليلة الخميس. والحوض الذي لا يعرف أحدٌ عنه ما خلاها، ظلّ كما هو من دون أن يمسّه أحد، والخبز أمسى ثخيناً بفعل التعفن. الغريب الذي أتى إلى الباب في يوم الجمعة ذاك ولم يجد شيئاً عند عتبة الباب، وحده عرف ماذا جرى.

عملت قمر بسرعة في أرجاء المنزل، وراحت تمص أسنانها وتهمهم بصوت هادئ. كانت الثياب متناثرة في كلّ حدب وصوب، الأسرّة غير مرتبة، الأكواب تعلوها بقع الشاي وأغلفة الفستق في الزوايا كلّها. لمّا توقفت أخيراً عن الدوس ووقفت ساكنة، ألقت نظرة شاملة على حجرة المعيشة وتمتمت مع نفسها: «يا رجال. يتعين على المرء أن يدع كلباً يدخل منزلها على جناح السرعة».

طوت كُميها وتأهبت للعمل، وراحت تجمع القمامة في كيس وكدّست الملابس عند الغسالة الكهربائية في المجاز المؤدي إلى الفناء الخلفي. شاهدت أحد ثياب صبا المنزلية على الأرض. التقطته ووضعته على وجهها فيما هي تنتحب.

وقف جعفر في مَدخل غرفة المعيشة وراح ينظر إليها فيما كان يتناول حبات الكرز الحامض العائدة له، طعمها اللاذع جعل عينه الشمال ترتعش. بصق البذور في يده ووضعها في جيبه. توقفت لحظة وبادلته النظر، مكفكفة دموعها.

حمل كيسه الذي يحتوي على الكرز الحامض إليها وابتسم. خداه السمينان تظهر فيهما غمازتان. أخذت حفنة وقرصت خدّه.

سارت نسرين بهدوء نحو غرفة مجيد مباشرة. لم يسبق لها أن دخلتها. كانت بالية ومبعثرة، تتناثر فيها قصاصات الجرائد والملابس القذرة. تجوّلت

هنا وهناك متأملة كتبه، وهي الأشياء الوحيدة في الحجرة التي تمتلك شكلاً من أشكال النظام. لم تكن تعرف أياً من العناوين أو الأغلفة. مررت يدها على كدس من الثياب في زاوية الغرفة، التقطت قميصاً ورفعته إلى وجهها وراحت تشمه. كان يعبق برائحة الصابون والعرق ورائحته هو. رائحة ذكورية. رائحة عشبية.

ويا لدهشتها، أحبتها. شمت القميص من جديد وضمته إليها وجلست على سريره. مَن هو مجيد؟ عرفته طوال سنوات حياته، وعلى الرغم من ذلك لا يزال أحجية بالنسبة إليها. على طاولة مكتبه كان هنالك دفتر ملاحظات. فتحته. لم تقرأ كثيراً مما كتبه بقدر ما تأملت كتابة يده، وراحت تمرّر أصابعها على الحروف والكلمات. كانت بعض الفقرات تصعب قراءتها ومكتوبة بشراسة. وبعضها تحمل دقة مزدهرة بعناية، أقرب ما تكون إلى دقة كتابة باليد. لم تنتبه إلى التغير في وجهة النظر حين تتقدّم الصفحات. كان ضمير «هم» البعيد يفسح المجال لضمير «نحن» الجماعي، ويفسح تفجع ضمير «أنت» المجال لضمير «أنا» الداخلي.

في الخلف كانت ثمة رسوم. تخطيطات بالقلم الجاف لرجال يمارسون التمارين الرياضية في الزورخانات[1]، يرفعون قضباناً ثقيلة وسلاسل. التخطيطات ثنائية الأبعاد. ثمة مبتدئ يحاول أن يعطل الأجسام المتحركة. هنالك صفحات تتناول الكثبان الرملية، رُسمت بقلم الرصاص وقلم الفحم. وكانت هذه واثقة أكثر وبدت أنها تتوافق مع اليد التي صنعتها. في صفحة واحدة كانت هنالك رسوم بالأسلوب التكعيبي لأثداء نساء بحبر أسود ثخين. لا يوجد رأس أو جذع، بل مجرد أثداء ذات حلمات، أثداء بأشكال وأحجام مختلفة، مُعلّقة في فضاء أبيض، فضاء كارتوني ومتنافر. ضحكت بصوت عال وبسرعة غطت فمها كي لا تسمع أمها ضحكتها. وثمة رسمٌ آخر بحبر أسود ثخين غطى صفحة كاملة. كانت بسمتها قد تلاشت فيما هي تحدّق فيه، محاولة أن تكتشف ماذا كان. إنه أربعة خطوط سود مقوّسة

1- الزورخانات zoorkhanehs: وردت بالفارسية اللفظية في النص الإنكليزي الأصل. مفردها «الزورخانة» أي «الجمباز الإيراني التقليدي». معناها الحرفي «منزل القوة»، وتتضمن هذه التمارين الرياضية رفع الأثقال، كما هو واضح في المتن أعلاه - م.

مثل مجموعتين من الأقواس، حز أسود في الوسط، وفي الأسفل حيث تلتقي الخطوط المقوسة، ثمة خط متعرج يخترقها، مثل شق، أحمر وقاسٍ، بخطوطٍ سود أفقية قصيرة تمرُّ عبره كغرزات في جُرح. وحشية الرسم زرعت فيها الخوف. وبسرعة قلبت الصفحة وتجاوزتها إلى صفحة لاحقة.

كانت هنالك خربشات متشظية وتخطيطات عشوائية. وفي الختام، ثمة صورة فوتوغرافية لأم مجيد، محشورة في الخلف. لا بُد أنها أُخذت لمّا كان عمر صبا لا يتجاوز الخامسة عشرة. كانت الصورة الفوتوغرافية لؤلؤية، بالأبيض والأسود. شعرُ صبا مُصفف بنحو مثالي، ويداها مطويتان باحتشام. كانت تحدق تحت عين الكاميرا مباشرة، كما لو أنها تتحاشى النظر إليها. الشَبَه بين وجهها ووجه مجيد صدم نسرين. طوال سائر الأعوام التي عرفت فيها أسرته، لم تنتبه إليها. في الوفاة فقط شاهدتها فعلاً. وراء الصورة الفوتوغرافية، في الصفحة، شاهدت أنّ مجيداً كتب رسالة إلى أمه مؤرخة في اليوم الذي أعقب مواراتها الثرى. سارت نسرين نحو الباب، أغلقته، وبدأت تقرأ.

مامان–جان،

إنه يوم دافئ بنحو غير اعتيادي ومشمس جداً بالنسبة إلى هذا الوقت من العام. استيقظتُ قبل أبي وأعددتُ طعام الإفطار بأفضل صورة ممكنة. حاولت جهد الإمكان أن أتذكر كيف كنتِ تعدينه. يستغرق الأمر بعض الوقت كي أتعوّد على ذلك إلا أنني متيقن أنّ الأمر سوف ينجح.

إنه شيء مدهش كيف يمكن أن يكون الرجال واسعي الحيلة حين يكونون جائعين.

ابنك،

مجيد

قلبت الصفحة وكانت هنالك رسالة ثانية، ورسالة ثالثة ورابعة. يومياً

كان الفتى يكتب رسالة إلى أمه. كانت الرسائل كلّها ودية، موجزة، وواقعية، تصف الأيام فيما كانت تنصرم. روى لأمه عن جنازتها وشعائر الحِداد في اليوم الثالث، السابع، واليوم الأربعين. أخبرها مَن حضر مِن الرجال والنساء على السواء وأعطى لائحة بالأطعمة التي جُلبت إلى المنزل ومَن جلبها، مع مراجعة انتقادية للأطباق. علامات العاطفة الوحيدة فيها هي لطخات الحبر العَرَضية، ربما نجمت عن دموع الفتى. إنما لا توجد كلمة واحدة تشهد على حزنه. توقفت الرسائل في اليوم الأربعين بوداع قصير، مهذب، مُوقَّع بالاسم الكامل، مجيد شازديپور.

حتى هذه اللحظة، كانت قد عرفت مجيداً من مسافة معينة لا غير. كان قد أذهلها بوصفه فتىً جاداً، بارداً، ومتململاً. في واقع الأمر، كانت على الدوام تحمرّ خجلاً في حضور جمشيد. كان جمشيد هو الشخص الجذّاب الذي يغازلها، وفي بعض الأحيان يسبّب لها عدم الارتياح. في التجمعات العائلية، كان من دأبه أن يخرج عن طوره كي يطريها على فستانها أو حذائها، وكان يقترب كثيراً جداً من ذراعها أو جسدها. إلا أنّ مجيداً لا يفعل هذا. كان يتكتم ويخفض عينيه حين يتكلّم معها، وعندئذ لا يستحضر سوى موضوعات مثل التسلسل الهرمي للنمل أو النظرية الفلسفية للنظام الرياضي العائدة للخيّام. شمّت قميصه مرة أخرى.

من المجاز، كانت أمها تنادي باسمها. وثبت وأسقطت القميص. «ماذا تفعلين؟» سألتها قمر، وهي تقف في المَدخل ويداها على وركيها. «اذهبي واجلبي المكنسة من خزانة المجاز. ابدئي بحجرة المعيشة».

سارت نسرين في المجاز.

«بينما أنتِ تكنسين حجرة مجيد»، قالت الأم، «احرصي على إبقاء الباب مفتوحاً».

رمت قمر القميص فوق كدس الملابس الوسخة التي تحتاج إلى الغسل، ثم انطلقت إلى غرفة النوم الرئيسة. كانت بيبي-خانوم هناك أصلاً، جالسة على الأرض مُحاطة بكوم من ثياب صبا وعباءاتها التي سحبتها خارج خزانة ثيابها. بوسع قمر أن ترى أنها كانت تبكي. جلست لصقها وراحت

تطوي الثياب وترتّب أكداساً من القمصان، التنورات، والعباءات. تكلّمت بنبرة حادة، سعيدة تقريباً فيما هي تخاطبها قائلة: «ماذا يتعين علينا أن نفعل مع هذه الملابس كلّها؟ باستطاعتي أن أخبرك بشيء واحد. بحوزتي قائمة طويلة من النساء اللائي لن يضعن أيديهن على حرائر صبا الحلوة، وخاصة سكينة. تلك المرأة دابة. سوف أحرق هذه الملابس كلّها على جناح السرعة على أن أدعها تضع تلك الأصابع السمينة المُشَحَّمة عليها. ويمكن أن تبيعها، على أية حال. أوه، وتلك البسمة الغبية التي ترتسم على ثغرها. أيّ نوع من البسمات هذه، حين تفقد امرأة ثلاثة من أسنانها؟ في اعتقادي أنها غجرية. تقول إنها من مَشهد لكن لا أحدَ من مَشهد يبتسم بأسنان مفقودة، حتى أطفال الأعمام أو الأخوال».

هجاء قمر الوقح أراح بيبي-خانوم. كانت قمر تعرف على الدوام كيف تسحبها من أكثر الأعماق ظلمة، وتُرجعها إلى السطح حيث يكون الأمان.

«وبيبي-جان، ابنك الصغير ذاك غريب الأطوار، هل تعرفين أنه يضع نوى الكرز في جيوبه؟».

«نعم، لكن يبدو أنّ هذا يُريحه».

قهقهت المرأتان فيما هما تواصلان إبعاد حياة صبا وترتيب منزل شازديپور.

الرجال

في البستان، كان مجيد جاثياً عند إحدى الأشجار يراقب مستعمرة نمل. كان يطالع كتاباً عن المنظومات الاجتماعية للحيوانات. قلّب صفحات الكتاب إلى الفصل المتعلّق بالنمل، وبعدها شاهد الجنود يزحفون خارجين من الثقب في تشكيل مثالي. كلّ واحد من الجنود يحمل جزءاً صغيراً جداً من التراب في فكيه، وفيما بعد يُودعه بجوار المدخل، لمجرد أن يستدير من دون راحة ويعود إلى الثقب كي يجلب مزيداً من التراب. كان قد قرأ هذا الكتاب مراراً وعرف أنّ النملة الملكة تسكن في ذلك الثقب. كانت قد تزوجت من ذكر مات حالما خَصّبها، انتزع أجنحتها، وأنشأ هذه المستعمَرة الكاملة. لم تكن رئيسة المستعمَرة، بل كانت عضواً آخر من أعضاء الجمعية. كلّ حشرة تؤدي دورها في خدمة الكلّ. سحرته الطبيعة القائمة على المساواة لمنظومة النمل. كلّما نظر مجيد إلى الطبيعة، يفرح أكثر لأن يكون حاضراً في هذا العالم. كان باستطاعته أن يسمع أباه وهو ينادي باسمه. أغلق الكتاب على مضض ومضى للالتحاق بالرجال.

كان شازديپور جالساً مع أكبر-آغا ومحمد تحت شجرته، يشربون الشاي في صمت. ولأن محمداً يعرف أن قمر سوف تكون مشغولة طوال النهار مع بيبي-خانوم والأطفال في منزل شازديپور، أغلق مخزنه باكراً، وراح يتمتم. نادراً ما كان قادراً على احتواء غبطته عند هذه النافذة القصيرة من الحرية.

ابتسم أكبر-آغا فيما هو يرتشف شايه ويومئ برأسه لمحمد إيماءة دراية، قائلاً: «إذاً، شازديپور، زوجتانا رمتاكَ خارج منزلك».

«نعم، سيدي. ليس لدينا خيارات كثيرة فيما يتصل بهذه القضية».

أطلق محمد تنهيدة وقال، «هل لديك الانطباع بأننا نملك خياراً واحداً؟».

قهقه الرجال الثلاثة. لم يأبه بهم مجيد ما دام أنه منكب على قراءة كتابه.

عصفت الريح بالبستان، هزت الأشجار، جنباً إلى جنب مع شذى الخوخ والأجاص. صرّت الصراصير. النحل طنّ. العصافير نادت والزرازير شرعت تنطلق من شجرة إلى شجرة، هاربة من النعيب المُخيف للغربان. كانت منتظمة جداً هذه الدراما اللحنية في البستان، إلا أنها تضاءلت في الخلفية، وباتت غير مسموعة.

الرجال الثلاثة نظر كلّ واحد منهم إلى الآخر. بدوا كأنهم طلاب في صف مدرسي خرج منه المعلم تواً. بسمة عريضة شيطانية بانت على وجه أكبر-آغا فيما هو يثب من مقعده ويمضي مباشرة إلى المطبخ، حيث كان ميرزا مشغولاً بغسل الخضروات. «ميرزا-جان»، قال له. «نحتاج إلى بعض اللبن الرائب والخيار».

أشرق وجه ميرزا فيما هو ينضم إلى المؤامرة: «أجل، سيدي!».

نقّب أكبر-آغا في الخزانات، وأخرج جرة من الفستق وراح يتفحصه. كان محمصاً. استدار إلى ميرزا وخاطبه قائلاً: «هل لدينا فستق نِيء؟».

«أجل، سيدي!».

انتزع ميرزا كيس الفستق النِّيء من الخزانة الكائنة تحت السِنك وأغطسه في طاس. استمر في تقشير الخيار، وتقطيعه قطعاً مكعبة وإضافته إلى اللبن الرائب، وبعدها رش عليها الملح، والبهار، وغطاها بالنعناع المجفف، وخلطها كلّها سوية. وفيما كان الطاسان بيده، خرج متوجهاً إلى الأرضية.

وقف أكبر-آغا عند الكاونتر، طاوياً كُميه. أخرج طاساً من لحم الضأن المفروم من الثلاجة الكهربائية. قشر البصل النِّيء في داخل الطاس، عيناه محمرتان، وأضاف الكركم والملح. بيده، خضّ الخليط، وبعدها أغطس يده في ماء دافئ قبل أن يأخذ حفنة، يكتله بهيئة كرة، وبرفق يضربه على سيخ فيما هو ينحته حول الرمح المعدني، صانعاً أوتاداً في اللحم بإبهامه.

لمّا صنع دزينات عدّة من الأسياخ، حملها خارجاً إلى الأرضية، حيث كان ميرزا يهوّي أصلاً قطع الفحم في حفرة النار بقطعة متموجة من الورق المقوّى. «أيها السادة المحترمون»، قال أكبر-آغا، «اتبعوني».

مجيد، محمد، وشازديپور تبعوا أكبر-آغا إلى حجرة نومه، حيث أعطى لكلٍّ منهم بنطلوناً.

تجمع الرجال حول سُفرة صغيرة على المنصة، وهم أحرار في التحرك بارتياح في السراويل القطنية الفضفاضة. استلقى محمد على جنبه، وبوهنٍ راح ينقر خرزات مسبحته بإصبعه. استند شازديپور إلى الوراء على كوعيه وأمال رأسه عالياً نحو الشمس. مدّ رِجليه المغزليتين واستمتع بحرية البنطلون. جلس مجيد بجوار أكبر -آغا وقلّد وضع جلوسه: إحدى ركبتيه إلى الأعلى، ومِرفقه يستريح عليها.

انتبه أكبر-آغا وقال ببسمة: «ماذا كنتَ تفعل هناك عند شجرة الكمثرى؟».

تخضب مجيد بحمرة الخجل: «كنتُ فقط أراقب مستعمرة من مستعمرات النمل. يبدو أن لديها وجوداً متناغماً جداً».

«إنها تنخرط في حرب، كما تعرف».

«حقاً؟».

«تكتيكاتها شديدة الشبه بتكتيكات أنواعنا». بحوزتي كتاب من تأليف مترلينك[1] عن حياة نملة سوف أعطيك إياه.

كانت حوارات مجيد مع أكبر-آغا مختلفة تماماً عن تلك الحوارات التي كان يخوضها مع المُلّا. كان أكبر-آغا يجيب دوماً عن أسئلته المتعلّقة بموضوعات جديدة كي يستكشفها أو يدرسها.

أحضر ميرزا الكباب الذي يتصاعد منه البخار، موضوعاً على طبق كبير مبطن برغيف خبز، ومُحاطاً بطماطم وبصل مُفحّم. وبعدها رجع بطبق كبير من الخضار الطازجة: البقدونس، الطرخون، الفجل، والبصل الأخضر، وكتلة من الجبن الأبيض، وطاس من السُمَّاق، وأرغفة خبز إضافية.

1- موريس مترلينك Maurice Maeterlinck (1862-1949): كاتب وشاعر وكاتب مسرحي بلجيكي. يكتب باللغة الفرنسية. حصل سنة 1911 على جائزة نوبل في الأدب، بفضل أعمال كان الاهتمام الأساس فيها منصباً على مسألة الموت ومعنى الحياة، في لغة جددت في التيار الرمزي، كما جددت في اللغة نفسها. من أبرز أعمال مترلينك، إلى ما ذكرنا، مسرحيات مثل: «الأعمى»، «الداخل»، «الأخت بياتريس»، «الطائر الأزرق»، و«ماري ماجدالينا»، إضافة إلى مجموعات شعرية ودراسات ونصوص أدبية متنوعة جعلته من أشهر أدباء بلجيكا في زمنه - م.

من السقيفة في مؤخرة المنزل، رجع أكبر-آغا مع حوض وقدّمه للمجموعة. الرجال كلّهم نظروا في رعب. في داخل الحوض كانت هنالك زجاجة فودكا، نصف غاطسة في الثلج. وضع زجاجة الفودكا المُثلّجة على السُفرة. جلب ميرزا كؤوس شراب وسكب أكبر-آغا. البخار الأبيض يتصاعد من الكؤوس كالدخان.

تناول كلّ واحد من الرجال كأساً، رفعها عالياً، باستثناء مجيد. حدّق بعينيه المفتوحتين على وسعهما. التفت إليه أبوه. «هيا»، قال له.

رفع مجيد كأسه وشرب أكبر-آغا نخب صحتهم: «بالسلامة»، فيما دلق كلّ واحد منهم جرعته من الشراب في جوفه وأتبعها بملعقة صغيرة من لبن الخيار. انهالوا على وجبة الطعام، حيث كان أكبر-آغا يمرّر قطعاً من الخبز المُسطّح من تحت الكباب ويملأ مجدداً كؤوس الشراب في فواصل زمنية متواترة.

بدأ الكحول يؤثر فيهم، وبدأ يُرخي عقولهم. أحضر ميرزا دفه ومال عليه. نشر أكبر-آغا حامل كتب خشبيّاً، مطويّاً، منقوشاً بنحو معقد، وفتح «ديوان حافظ». مرّر أصابعه على طرف الكتاب فيما كانت عيناه مغمضتين وفتحه في صفحة عشوائية، وراح يقلبها بأصابعه عائداً إلى بداية إحدى القصائد، ثمّ وضعها على الحامل. بعدها شرع يقرأ، موجها كلّ قصيدة إلى كلّ رجل كما لو أنه عرّاف. مجيد، لأنه يافع جداً، كان يتأثر عادة بموسيقى اللغة، من دون أن يفهم فهماً كاملاً مواضيع القصائد. إنما اليوم الكلمات قيلت له مباشرة. «الحزن لا في الوجود ولا في غير الوجود»، قرأ له أكبر-آغا من حافظ. «ليكن بالك سعيداً. لأن نهاية كلّ كمال هي... هي اللاوجود».

أنهى أكبر-آغا قراءته بأن أنشد البيت الأول من أغنية شعبية بذيئة. على طبله، أضاف ميرزا إيقاعاً شديد الابتهاج وانضمّ الرجال بوصفهم مجموعة من المنشدين، تقديراً لجمال جغرافيا المرأة.

بعد الفاصل الموسيقي، أحضر ميرزا آنية الشاي. أخذ أكبر-آغا مكعب سكر وأغطسه في شايه وراقب السائل وهو يشرب المكعب الأبيض الصلب.

أمسك بالمكعب بين أسنانه وراح يرتشف الشاي، ضائعاً في أفكاره. «هل ثمة سبب يدعوك لأن تغطس مكعبك في الشاي؟» سأل مجيد.

«ثمة سبب لكلّ شيء، أيها الشابّ».

«ما هو؟».

«هي قصة واقعية. جرت في هذه المدينة بالذات، على بُعد رمية حجر من هنا. قبل أن نولد أنا وأنت».

***

كانت «شركة السكر المَلَكية في بلاد فارس» تقع في ضواحي نيساپور. هناك، اشترى ثلاثة أشقاء أوربيين الأرض بأجر زهيد من فلاح محلّي أمضى الشطر الأكبر من حياته وأنفق مدخراته محاولاً، من دون طائل، أن يُبقي بنجر السكر العائد له مُزهراً. استحوذ الأشقاء على الحقل بوعد أن يتقاسموا الربح، ما إن يُشيّد المعمل ويكون جاهزاً للعمل. استعمل الفلاح المال الذي حصل عليه من بيع الحقل كي يشتري منزلاً متواضعاً في المدينة لزوجته وأولاده. إلا أنه في بحر عام واحد أحس بأنه مُعدم لمّا أخبره الأشقاء بأنه لا يوجد ربح حتى الآن كي يتقاسموه.

وفي نهاية المطاف، جاء ليفتش عن عمل في معمل السكر الذي كان قد انتصب على الأرض التي اعتاد أن يملكها، حيث يوجد الآن حقل بنجر سكر مزدهر تمّمه الري.

أُعطيت له وظيفة في خط الإنتاج. كانت واجباته تتكوّن من الوقوف عند حزام ناقل، إلا أنها ليست مُحددة بذلك. يدمغ علب مكعبات السكر التي تمر أمامه في تتابعٍ لا نهاية له بعلامة حبر أحمر تقول «صُنع في نيساپور». كان يقف هناك من الساعة السابعة صباحاً حتى الثانية عشرة ظهراً، يأخذ ثلاثين دقيقة كاستراحة غداء، وهذا الغداء يتناوله خارج المعمل مع عمال فرس آخرين، لم يكن يُسمح لأيّ واحد منهم بالدخول إلى قاعة الطعام[1]. عند

1- قاعة الطعام mess hall: غرفة كبيرة تتناول فيها الطعام سوية وبانتظام مجموعةٌ خاصة من الناس، بخاصة أعضاء القوات المسلّحة، وما إلى ذلك - م.

مدخلها كانت هنالك لافتة تقول: «لا يُسمح بدخول الكلاب أو الفُرس».

كان يعود إلى خط الإنتاج في الساعة الثانية عشرة وثلاثين دقيقة، وكان ممنوعًا عليه أن ينام القيلولة. يقف عند الخط مُرهَقاً حتى الساعة السابعة مساءً، وحينئذ يغادر المعمل متجهاً صوب المنزل. كان الطريق الذي يسلكه طويلاً، غير أن الحافلات في نيساپور الآن منفصلة إلى «فارسية» و«أوروبية». وخلال الصيف الحار بنحو ثقيل الوطأة، كان ينتظر غالباً أكثر من ساعة حيث كانت تتوقف حافلات عديدة للأوروبيين وتواصل مسيرها، تحمل أحياناً شخصاً واحداً أو اثنين. الحافلات الفارسية لم تكن تظهر قط. بعد مضي بضعة شهور، انتقل إلى العمل في مستعمرة أكواخ كان قد شيّدها الأشقاء الثلاثة في مكان قريب من المعمل يمكن الوصول إليها سيراً على الأقدام، وكان هذا المعمل يُسمى ببساطة «معمل السكر».

أقبل الأشقاء من والونيا، وهي منطقة في بلجيكا حيث اللغة المنطوق بها، والون، تنتمي إلى اللهجات الفرنسية[1]، الفرنسية هي أبرزها. كانت والونيا في طليعة «الثورة الصناعية» وهي غنية بمناجم الفحم، أفران صهر المعادن، ومصانع الفولاذ، الزجاج، الحديد، الزنك، الصوف، والأسلحة. كان الأشقاء يملكون ويشغلون معملاً للنسيج إنما تعين عليهم أن يوقفوا عملياتهم بعد أن اندلع تمرد اللوديت[2] -الذي كان قد بدأ في إنكلترا- في والونيا. قرر الأشقاء الانتقال إلى منطقة لم تشهد التصنيع وأن يبدؤوا مسيرتهم من جديد. اختاروا بلاد فارس على أمل أن «الشرقيين» ذوي الأمزجة الأكثر تصوفاً سيكونون أقلَّ ميلاً لمحاربة الماكينة، وزيادة على ذلك، كان السكر موجوداً هناك أصلاً وكانت الحكومة قد دعتهم للمجيء وزراعته.

1- اللهجات الفرنسية langue d'oïl: مجموعة من اللهجات الفرنسية القروسطية المحكية في فرنسا شمال لو وار Loire، وهي الأساس القروسطي للفرنسية الحديثة. لو وار، أطول الأنهار في فرنسا، يشتهر واديه بالخمور والقصور الفرنسية الريفية. لو وار تعني: الحرب، بالفرنسية - م.

2- تمرد اللوديت Luddite rebellion: تمرد مجموعة من العمال الإنكليز في مطلع القرن التاسع عشر حطموا خلاله الماكينات التي تؤدي إلى اقتصاد في العمل كنوع من الاحتجاج. وقد تعني كلمة Luddite كلّ فرد يعارض التغيير التكنولوجي- م.

اشتروا ثلاثة بساتين لعائلاتهم واستأجروا بضعة أشخاص من أبناء البلد كي يطبخوا، ينظفوا، ويعتنوا بالحدائق. كانوا قد درسوا النباتات والحيوانات المحلية وكيّفوها بحسب أسلوب البستنة الأوروبي المُشذب. إحدى الزوجات اشترت بضعة حملان من مُزارع محلي وطلبت أن تُصبغ أصوافها بألوان فاتحة: الأخضر، الوردي، الأزرق، وسمحت لها أن تجوب الأراضي خلال أسبوع «عيد الفصح». وأثناء احتفالات إجازتها، حين كانت تُمرر آنية الشاي الفارسية التقليدية هنا وهناك من قبل يدي المُساعِدة الشبحية ذات القفازات، كانت النسوة يصفقن ويضحكن ببهجة ضحكات نصف مكبوتة حين تمر الخِراف الملوّنة عبر المروج.

كانت الزوجة التي اشترت الخِراف تُعد الأكثر مغامرة بين أفراد المجموعة، وكانت تقوم برحلات قصيرة كثيرة إلى المدينة. كانت تجوب المخازن المحلية بحثاً عن أسرار المهنة، وكانت تحمل معها على الدوام قطع الحلوى الصغيرة الصلبة كي تُعطيها للأطفال المحليين الذين تعلّموا أن يتجمعوا حولها. من خلال أصحاب المخازن اكتشفت أنّ وضع قشور الخيار على الوجه من شأنه أن يُبرّد البشرة ويُهدئها. ويومياً أثناء تحضير الغداء، كانت تعطي التعليمات للمُساعِدة أن تجهز سَلَطة لوجهها فيما هي تضطجع خارجاً في المرج.

الزوجات الأُخريات حذون حذوها، مندهشات من براعة صديقتهن بينما هي تشبك يديها وتردد بضحكة عسلية عالية: «حين تكنَّ في روما، سيدات. حين تكنَّ في روما»[1].

كان من دأبهن أن يسافرن عائدات إلى المنزل بحقائب مليئة بالأنسجة المحلية التي كنّ خيّطنها بحسب آخر الموضات. كان أولادهن يتلقون التعليم على أيدي معلمين خصوصيين من بلدانهن الأصلية إلى أن يبلغوا عمراً مناسباً ليُرسلوا بعدها إلى مدارس داخلية في أوروبا. والدخول إلى

1- حين تكنَّ في روما when in Rome: هنا إشارة إلى المثل الشهير: «حين تكون في روما، تصرّف كالرومان». بالإنكليزية: When in Rome, do as the Romans do. أي بمعنى أنّ عليكن أن تحذون حذو الإيرانيات وتضعن قشور الخيار على وجوهكن - م.

أرفعها مقاماً وهيبة يمكن أن يكون سبباً للاحتفال من قبل أبوي الطفل المَعني، وللحسد والقلق من قبل آباء الأولاد الآخرين.

السكر الذي كان المعمل ينقيه، يجففه، ويجعله بهيئة مكعبات لا يشبه أياً من أنواع السكر التي رآها أبناء البلد طوال حياتهم كلّها. كان بياض كلّ بلورة أبيض جداً، وتكاد تلمع بلون أزرق. كان قطع المكعب حاداً ودقيقاً جداً، إنه ينافس شفرة سكين. هذان التحسينان باتا ممكنين بفضل الآلات التي شحنها الأشقاء بالسفن من أوروبا: دفعة أحواض خوائية تقف بارتفاع ثلاثين قدماً وأجهزة طرد مركزي متواصلة للسكر تدمدم في أنحاء المعمل. كانت هنالك انفجارات غبار سكر مشؤومة قليلة أخذت أرواح عدد من العمال المحليين، وحرقت بنحو كئيب قلة من الآخرين، إلا أنّ عائلات الراحلين عُوِّضت بسخاء. أما الجرحى فقد أُسعفوا طبياً.

بسبب جمالها، أنتج المعمل المكعبات المرغوبة أكثر في نيساپور. كانت أُسر محلية كثيرة تختزنها بغرض استعمالها عند تقديم الشاي، ولا تستعملها إلا للضيوف الخصوصيين بسبب ثمنها المرتفع. وسراً، كانوا يستعملون المكعبات حائلة اللون، المُسننة، التي يصنعها الحرفيون المحليون الذين جعلهم الأوروبيون عاطلين عن العمل كلّهم تقريباً.

الأصول الغريبة البعيدة لمكعبات السكر جعلتها شيئاً مبتكراً في أوروبا. كانت عائلات المجتمع الراقي تشتريها من أجل التسلية. عادة تشتري سيدة المنزل العلبة، وبعد أن تُريها للضيوف، تعرض كيف يشرب الفرس شايهم وهم يقبضون على مكعبات السكر بين أسنانهم، بينما الضيوف يلهثون ابتهاجاً ويُعجبون بالسحر العفوي العابر للقارات لمُضيفتهم.

كان الأشقاء الثلاثة يحققون أرباحاً، كسبوا المال بسرعة بالغة، حيث كان معملهم الصغير في وسط اللامكان بوسط «الشرق». في مبادرات من المودة والكياسة كرّموا معظم العطلات المحلية. كانوا يُرسلون إلى أُسر العمال علباً عدّة من مكعبات السكر المجانية لمناسبات أعياد الميلاد الشخصية، الذكريات السنوية، وفي حالة الترقيات الوظيفية.

الرجل الذي كان يمتلك أرض المعمل أُبلغ بأنّ، لسوء الحظ، ليس

ثمّة ربح كي يتقاسمه معهم ما دام لا بد من شراء آلات جديدة من أجل مُسايرة الطلب المرتفع. بعد مرور عام يستحق الخدمة الجيدة، تمت ترقيته إلى وظيفة مشرف على الحزام الذي كان يُحصّنه. واجباته الآن تتكوّن من الوقوف في نهاية الحزام الناقل، ينظر إلى الرجال الذين يقفون ناظرين إلى العلب التي كانوا يدمغونها. كانت وظيفة ذات أجر مدفوع أفضل، وهي وظيفة تأتي مع معطف مختبر أبيض أنيق ونظيف كي يلبسه. لكن يبدو أنّ الزمن يتحرك ببطء أكثر. يومياً، تلك الساعة بعد الغداء حين يشتاق إلى قيلولة -كان محظوراً عليه أن يأخذ واحدة- كان يحس أنها أصعب من أن يحتملها. كان يمّص مكعبات السكر كي يُبقي عينيه مفتوحتين. كانت طلباته حتى يفهم طريقة عمل الآلات تُقابَل دوماً بالرفض الصارم لكن الرقيق، من لدن رئيس العمال، مُلمّحاً إلى أمانه ومصلحته.

في كلّ جمعة كان العمال يتسلّمون أجورهم ويأخذون عطلتهم. كانوا يتجمعون أمام معمل السكر، بسراويلهم وأحذيتهم المُحاكة حيث تكون مؤخراتها مُسطحة بفعل كعوب أقدامهم. كلّ رجل يحمل مسبحته. كانوا يتوجهون جميعاً إلى المدينة كي يحضروا صلاة الجمعة، يدخنون النراجيل في ساحة المدينة، ويقضون بعض الوقت مع أسرة ما، ويتكلّمون مع أفرادها من دون كلفة، وغالباً ما يناقشون الالتزامات المالية التي يبدو أنه لا يمكن تلبيتها. يعقب أنشطة الصباح غداءٌ مناسب وقيلولة مناسبة، وهو الوقت الوحيد الذي لا تقطع فيه الدمدمة الصناعية المستمرة للمعمل نومَهم.

بعد انفجار غبار السكر الثالث، عددٌ من العمال، بمَن فيهم مالك الأرض الأصلي، علي-آغا، شكّلوا طابوراً عند دائرة حكومية محلية كي يرفعوا شكوى. بعد مضي ساعات عدّة وجدوا أنفسهم يقفون أمام مكتب أحد الموظفين الكَتَبة. كان علي-آغا يمثل المجموعة، متحدثاً بفصاحة عن الممارسات غير الآمنة في المعمل، الأحياء غير الصحية في مدينة الأكواخ، والرواتب التي لا تكفي للعيش. وفيما هو يُغلّف كلامه، طلب أن تحمّل الحكومة مالكي المعمل مسؤولياتهم القانونية تجاه عمالهم. دوّن الموظف الكاتب الطلبات الموضوعة أمامه، وجعل علي-آغا يوقع على الوثيقة، ودمغها بالشارة المَلَكية الرسمية.

في الأسبوع التالي، أُعفي علي-آغا من واجباته في المعمل. ومُنح رجلٌ آخر معطف المختبر الأبيض النظيف ووُضع عند رأس الحزام. حزم علي-آغا أمتعته القليلة وانطلق مبتعداً عن معمل السكر. صوت الدمدمة الصناعية يتضاءل فيما كان يدخل الكثبان الرملية.

باع أرضه للأوروبيين من أجل أرباح لم تتحقق أبداً. وسجّل مظالمه لدى حكومة محلية أعلنت أنها تأتمر بأوامر نظام مَلَكي له علاقة تجارية مع الأوروبيين. نظر إلى الأرض الكائنة تحت قدميه. شاهد الريح تنفخ دوائر الرمل حول صندليه المُحاكين. كان قد وُلد على أديم هذه الأرض، كذلك وُلد أبوه وأبو أبيه وهلمّ جرّا وهلمّ جرّا. المعمل، معمل السكر، المدينة القديمة، الساحة الناشطة حيث تنتظر زوجته وكذلك أولادُه راتبه، هذه كلّها تركها على بُعد أميال وراءه. في هذا اليوم من شباط / فبراير من العام 1890، الذي يُسمى أيضاً شهر إسفند[1] في العام 1268 الهجري، أدرك علي-آغا أنه، بسبب كلّ النوايا والأهداف، بفعل سلطات «الشرق» و«الغرب»، نُفي من مسقط رأسه. لم يبقَ له سوى مكان واحد كي يمضي إليه.

دفع علي-آغا بقوة أبواب الجامع الخشبية المقوّسة وفتحها ودخل، خلع حذاءه وجوربيه وتوقف عند نافورة الوضوء كي يغتسل قبل الولوج إلى القاعة. كانت أشعة الشمس تتلألأ عبر النقوش الهندسية في القبة. يتردد صدى وقع الأقدام وراء صفوف الأعمدة الضخمة. ما من مخلوق بشري في المَشهد. دخل إلى قاعة الصلاة وركع، أخذ نَفَساً عميقاً وأغمض عينيه قبل أن يضع جبهته على الأرض كي يصلي. نطق الكلمات عن ظهر قلب واستراح. كان قد دخل هذا الجامع في جُمع كثيرة لكن لم يسبق له أن كان وحيداً ولم يسبق له أن أحسّ بأنه صغير جداً بجوار الصفوف المتجانسة للأعمدة وتحت الثريا الكبرى.

رنا علي-آغا ببصره إلى السقف المقوّس المصنوع من بلاطات من

1- إسفند Esfand: هو الشهر الثاني عشر والأخير في التقويم الشمسي الهجري، التقويم الرسمي في إيران وأفغانستان. عادة ما يكون عدد أيامه 29 يوماً، و30 يوماً في السنة الكبيسة. يبدأ في شهر شباط / فبراير وينتهي في آذار / مارس التقويم الجيورجي (الميلادي) - م.

الرواسب الكلسية، كل بلاطة مقوّسة مرسومة بنحو معقد بالسطح الداخلي لجامع مُصغر. تخيّل مئات الأيدي التي صبغت الكتابة باليد والتصاميم الهندسية على الامتدادات الواسعة للكوبالت باللونين الأزرق والفيروزي. اشتاقَ إلى تلك الوحدة، إلى تلك الأخوة، إلى ذلك الملاذ. اشتاق إلى سمو الانتماء.

«إنه شيء يشي بالجمال»، قال صوتٌ وراءه.

التفت علي-آغا، فشاهد عجوزاً يقف أمامه، مُبدياً إعجابه بالجدار. كان العجوز يرتدي عباءة ومعه كتاب ومسبحة يقبض عليها بين يديه. كان إمام الجامع قد سمعه مراراً في صلوات الجُمع. ولأنه قريب جداً منه، لم يتعرّف فوراً إلى وجهه أو صوته. «نعم»، قال، «هو حقاً كذلك».

نظر العجوز إلى علي-آغا، الذي كان قد أطرق برأسه فيما كانت عيناه مغمضتين. «ما الذي يُثقلُ كاهلك إلى هذا الحدّ؟» سأله.

«فقدتُ أرضي. فقدتُ مورد رزقي. وسأفقد أسرتي. تركتُ كرامتي في مكان ما. لا أعرف أين تركتُها. لا أملك شيئاً. ليس لديّ مكانٌ أمضي إليه».

نقر رجل الدين خرزات مسبحته بإصبعه وغرق في التفكير. تطلّع علي-آغا إليه، متمنياً أن يسمع منه كلمات تواسيه. «حسناً»، قال الرجل العجوز. «يلزمنا أن نجد كرامتك. ما إن تحصل عليها، كلّ ما عداها سوف يتم تعويضه».

في اليوم التالي، جلس علي-آغا في الصدارة من أجل صلاة الجمعة، وراح يشاهد رجل الدين وهو يصعد على المنبر. لزم المحتشدون الصمت. وجد رجل الدين علي-آغا في الحشد وتحدّث ببطء وبقوة، مالئاً الجامع بصوته الرنان. «المال؟» قال. «السلطة؟ الثروة؟ المنزلة الاجتماعية؟ الأسرة؟ ماذا تنفع كلّ واحدة من هذه الأشياء الإنسان الذي فقد كرامته؟».

تنحنح، ثم استطرد في كلامه: «يستطيع الإنسان أن يفقد ثروته. يستطيع أن يتنحى عن السلطة. منزله من الممكن أن يُدمر، منزلته الاجتماعية يُمكن أن تُحطم، أُسرته تؤخذ منه. لكنه إذا كان يمتلك كرامته فهو لم يفقد شيئاً. إن كان يمتلك كرامته، فهو في حالة من النعمة الإلهية، لأن الكرامة يهبنا إياها الله. الكرامة لا يُمكن أن تؤخذ منا إلا إذا منحناها بملء إرادتنا».

مدّ يده في جيب ردائه الطويل الشبيه بالجلباب وأخرج مكعب سكر: «كلّ واحد منكم يتناول هذا [القند] مع شايه يومياً. كلّ واحد منكم ينطلق إلى السوق ويشتريه بهيئة علب تقول [صُنع في نيساپور]. لكن من يربح من هذه المبيعات؟ الأجانب، غير المسلمين، الذين يبصقون على عاداتكم ومعتقداتكم. إنهم يسرقون مواردنا ويستعبدون شعبنا، ويُجبرونهم على العمل في ظروف خطرة. كم عدد أُسر الموتى التي واسيتُها بين هذه الحيطان؟ هؤلاء الأوربيون يضعوننا في صحبة الكلاب! إنهم يستأجرون شقيقاتنا، أمهاتنا، بناتنا كي ينظفن وراء بغاياهم! وماذا نفعل حيال ذلك؟ نحن نعمل لصالحهم! نحن ندفع الثمن لهم!».

كان رجل الدين يرتجف غضباً، حاله حال أفراد الحشد كلّهم. سكت لحظة واسترجع هدوءه. «يوجد أكثر من مئة شخص يعملون في [شركة السكر المَلَكية]»، قال. «ثمانون من هؤلاء العاملين هم من شعبنا وعشرون منهم أجانب. لا أحدَ من الفُرس يعرف كيف تعمل الآلات. لا أحد! مدينتنا لا تُعوَّض بأرباح الشركة. زعماؤنا لا يُسمح لهم برؤية سجلاتهم. وصدّقوني، إنهم يحققون الأرباح على حسابنا. إنهم على حساب كرامتنا يجنون الأرباح. السُكّر هو ربح الشيطان!». فتّتَ المكعب إلى تراب وجعله يسقط على الأرض كالرمل.

وبهذه الطريقة بدأ رجل الدين حملته الصليبية ضد «شركة السكر المَلَكية في بلاد فارس»، وبالوكالة، ضد النظام المَلَكي. مُرّر المرسوم وانتشر في المدينة كانتشار النار في الهشيم. كانت موعظته الدينية موضوع حوار في كلّ بيت، محل تجاري، وزاوية شارع. وعلى الفور رفعت كلّ محلات الشاي العمومية طاسات السكر العائدة لها واستبدلتها بالتمر والعسل. حذت المنازل حذو محلات الشاي العمومية، ورَمَت الزوجات مكعبات السكر المَلَكي في براميل القمامة، وبفخر عرضن القطع الغليظة المُلطخة والمُثلّمة التي صنعها أبناء البلد.

صباح كلّ يوم كان رجل الدين يحشد الناس في ساحة المدينة ويسيرون في اتجاه المعمل. وهناك يُلقي موعظة أمام الأبواب الثنائية العالية جداً، مطالباً برؤية سجلات الشركة. ويوماً بعد يوم، كان الحشد يغدو أكبر فأكبر. بعض

الأشخاص كانوا ينزعجون من القضايا الأخلاقية، وكان آخرون يغضبون من المَظالم التي تحمّلها العمال، بينما هنالك آخرون كانوا فضوليين فقط ويُريدون أن يفعلوا شيئاً ما.

في يوم ما نظر أحد العمال إلى الحشد الذي تجمع خلف رجل الدين. وبدلاً من أن يدخل بوابات المعمل، سار ووقف مع شعبه. واحداً إثر الآخر، زملاؤه العمال فعلوا الشيء ذاته. وقفوا مع رجل الدين. استأجر المصنع عمالاً أفغانيين يعملون بأجور زهيدة لكن حتى هؤلاء الرجال سرعان ما وقفوا خلف الرجل العجوز ذي اللحية البيضاء.

أوصى الأشقاء بأن يُرسَل بالباخرة عمالٌ إلى المصنع من بلدهم الأصلي. إلا أنّ أهل البلد طردوهم. فرضوا حصاراً أمام «معمل السكر» كي لا يتمكن عمال والون من الدخول، وبدؤوا يهجمون على المصنع نفسه. ولم يستغرق الأمر جهداً كبيراً حتى شبت النار في تراب السكر. الشرطة المحلية رفضت الهجوم على أبناء شعبهم، حتى الكتيبة العسكرية التي أرسلها النظام المَلَكي تنازلت عن مَطلبها.

وفي غضون شهر باتت «شركة السكر المَلَكية في بلاد فارس» على حافة الانهيار. دعا الأشقاء الثلاثة رجل الدين إلى لقاء سري. جلس في مكاتبهم، يواجههم مباشرة، وعلى وجهه بسمة. تُرجمان من والون، ذو نظارة أنفية مُثبتة بمشبك على أنفه المنتفخ، جلس بينهما وراح يُترجم محضر الجلسة.

«نحن نريد أن نعرض هُدنة»، قال أكبر الأشقاء سناً. «سوف نقسم أرباحنا ستين / أربعين مع مجلس المدينة[1]».

«سوف تقسم الأرباح خمسين / خمسين مع المدينة، لا مع المجلس»، قال رجل الدين، «وسوف تُعيد أرض بنجر السكر إلى علي-آغا وسوف تشترون بنجر السكر العائد لكم منه مباشرة. سوف تستأجرون العمال المحليين مقابل أجور عادلة وسوف تُعيدون بناء وسائل راحتهم بحسب

1- مجلس المدينة town council: مجموعة أشخاص منتخبين يكونون مسؤولين عن المناطق العمومية والخدمات مثل الطرقات، المتنزهات، إلخ، في مدينة معينة. هذا المجلس يُسمى في بعض البلدان العربية، ومنها العراق «المجلس البلدي» - م.

المواصفات التي سوف يبعثونها إليكم. إن لم تفعلوا هذه الأشياء كلّها، يتعين عليكم أن تغادروا فوراً. لا يُمكنني أن أضمن لكم أمان عائلاتكم».

ظلّ الأشقاء الثلاثة جالسين فاغرين أفواههم، الشقيق الأكبر سناً يدعك حنكه. «وكيف سترفع المنع على مكعبات السكر؟» سأله.

كان رجل الدين قد باشر بالمسير نحو الباب فيما هو يردّ عليه قائلاً: «اترك هذا الشأن لي».

***

كان مجيد مسحوراً، مذهولاً تقريباً. قال: «كيف نقض مرسومه؟».

أمسك أكبر-آغا بمكعب سكر وأغطسه في شايه وانبرى قائلاً: «ببساطة وقف رجل الدين أمام الحشد ومعه قدح شاي، أغطس المكعب من [شركة السكر المَلَكية في بلاد فارس] فيه، وأعلن أنه طاهر».

هزّ شازديپور رأسه في فزع.

«إنه والد جد أمك، مجيد»، قال أكبر-آغا. «أنت ابن ابن حفيد رجل الدين».

جلس مجيد منتصباً باستقامة أكثر تعبيراً عن شعوره بالفخر. في تلك الآونة انتبه إلى بيبي-خانوم وقمر وهما تهبطان درب البستان. جمع ميرزا بسرعة كؤوس الفودكا والزجاجة وهرع إلى المطبخ. وقفت قمر ويداها على وركيها وقالت: «أتمنى ألا تكونوا قد أتعبتم أنفسكم كثيراً جداً».

تحرك محمد قليلاً وصحا من غفوته. انحنت وقرّبت وجهها من وجهه، مستنشقة رائحته، «أستغفر الله! عارٌ عليك! اذهب واغسل فمك».

تحرّك بتثاقل كي يقف على قدميه، وراح يلف ويدور قليلاً قبل أن يتمكن من الوقوف على قدميه بثبات.

كانت نسرين تقف خلف شجرة أكبر-آغا، غير منزعجة من إذلال أبيها. راقبت مجيداً، بسمته، لمعان عينيه الداكنتين، ذراعيه الطويلتين والهزيلتين وهما تستريحان على فخذيه. التفت مجيد كي يبادلها النظرة. لم ينتبه إلى ميلان رأسها أو النظرة الجديدة في عينيها، ولم يدرك أنّ هذا جعله يرغب

بأن يكون قريباً منها. التقط مكعب سكر ومشى كي يروي لها القصة، من دون أن يعي أنّه بعد أربعة أعوام من هذه اللحظة تحديداً، فيما هو واقف عند عتبة محل الخياطة العائد لأبيها، ببريق الأمل نفسه في عينيه، سوف يطلب يد هذه الفتاة للزواج.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

حفلة طلب اليد للزواج

جلست نسرين إلى منضدة الزينة العائدة لها وراحت تعاين وجهها من الزوايا كلّها. كانت قد أمضت ساعة وهي تضع مساحيق التجميل، أمضت نصفها في وضع المسكرة وحدها. كانت إحدى صديقاتها في المدرسة قد أعطتها الأنبوب[1] الثمين، بعد أن سرقته من أمها. كان ذلك الأنبوب هو «ماري كيّ»، وهو مادة أمريكية مستوردة غالية. كانت نسرين تستعمله فقط في المناسبات الخاصة. رمشت في المرآة، مبتهجة.

في البُعد، كانت أمها تناديها. دوّرت عينيها وسوّت فستانها الجديد. كان أبوها هو من صنع لها هذا الفستان، من الحرير المتقزح كرِيمي اللون. كانت الأزرار مغطاة بالدانتيلا الذهبية والأحذية المضاهية ذات كعبيْ هريرة. كانت جاهزة مثلما لم تكن عليه من قبل. فتحت باب غرفة النوم وخرجت إلى غرفة المعيشة وولجتها.

قمر، وهي جاثمة على الكنبة بعباءة زرقاء داكنة، نظرت إليها مبهورة.

ابتسمت نسرين، وقد صُعقت بسكوتها.

«تبدين جميلة»، قال أبوها.

أومأت أمها برأسها علامة الإيجاب. وبعدها من دون تحذير، قوّمت كتفيها وخاطبتها بسرعة وحدّة. «وضعتِ مقداراً كبيراً جداً من المسكرة. إنها غير ملائمة».

«الفستان منطبق بشكل جيد جداً على قياس جسمك»، قال أبوها.

1- الأنبوب tube: يُسمى بالدارجة العراقية «عصّارة» - م.

«إنه يجعل وركيك يبدوان كبيرين»، قالت أمها. «وهو ضيّق حول الصدر».

«النسيج يتدلى بنحو لطيف».

«لم تلبسي حزامك. سيطري على نفسك حين تجلبين الشاي إلى الخارج».

انسحب أبوها إلى داخل المطبخ. ابتسمت أمها، إلا أن نسرين مالت إلى الأمام وهمست قائلة: «إذا دمرتِ طلبه يدي للزواج، لن أغفر لك ذلك أبداً».

قمر لم تشاهد هذا الجانب من نسرين قبلاً. أخافها قليلاً: «أنا فقط أحاول أن أساعدك».

«أنتِ لا تجرئين»، قالت نسرين وهي تتوجه إلى المطبخ. كان السماور ممتلئاً وينبعث منه البخار. صواني الحلويات مع ماء الورد وحلوى «الباميا»[1] المطعمة بالزعفران، البقلاوة المنقوعة بالعسل، «ساهون»[2] الزعفران الهش وُضعت مرتبة على الكاونتر. ملأ أبوها طاس السكر بالمكعبات ورتب كؤوس الشاي على صينية. كلّ شيء جاهز. ابتسم وقال: «لا تنزعجي. أمك قلقة عليك، ليس إلا. إنك تعرفين كيف يستولي عليها القلق».

كانت هنالك دقة على الباب الأمامي. من المطبخ، استمعت نسرين عن قصد إلى أبويها فيما هما يرحبان بمجيد وشازديبور. تكلّم مجيد بجمل قصيرة، مهذبة. بوسعها أن تجزم أنه متوتر الأعصاب. كان قد مشّط شعره بالماء، وهو الآن يقطر على عنقه وصدغيه. تذكرت كيف أنه قال لها مرةً إنه يعشق كلّ جزء من أجزاء جسدها، وبخاصة الكيس الصغير لشحم بطنها. تذكرت كيف أنه سوف يتحمل الاستماع إلى ديمس روسسوس[3] من أجلها،

1- حلوى الباميا bamieh: هي حلوى «العوّامات»، وتكون إما مدوّرة أو أسطوانية، تشبه إلى حدّ كبير حلوى «الداطلي» الشائعة في العراق – م.

2- الساهون (بالدارجة العراقية)، السوهان sohan (بالفارسية): هي حلوى توفي فارسية تقليدية هشة بالزعفران، تُصنع في إيران – م.

3- ديمس روسوس Demis Roussos (1946–2015): اسمه الحقيقي بالكامل هو أرتيميوس فنتوريوس روسوس، هو مُغنٍّ عالمي مصري المولد، يوناني الجنسية. وُلد في مدينةِ الإسكندرية في الخامس عشر من حزيران / يونيو العام 1946 لأبوين، الأم إيطالية الأصل والأب يوناني الأصل، كانا أيضاً قد وُلدا بمصر وتربيا بمدينة

ما دام أنها ترقص من أجله. بدأت تتمايل حول منضدة المطبخ فيما كانت تنشد بهدوء «سيدة النعيم المحبوبة»[1] بطبقة صوت مثالية، بإنكليزية منطوقة بطريقة خالية من العيوب، على الرغم من أنها لا تعرف معنى كلمة واحدة من كلمات الأغنية.

جلس مجيد على الكنبة بجوار أبيه، شعره ملتصق برأسه كما توقعت نسرين، رطب وينضح بالعَرَق. انحنى على ركبتيه، وكانت نظراته تتنقل من وجه إلى وجه فيما كان البالغون يناقشون الجو الحار بنحو غير معقول.

كانت هنالك دقةٌ أخرى على الباب. أكبر-آغا، بيبي-خانوم، جعفر، والقابلة، كلّهم دخلوا المنزل بهيئة رتل وسلّموا محمداً باليد علب حلويات مُغلّفة بنحو معقد. أرشدهم إلى داخل غرفة المعيشة ومضى إلى المطبخ وبيده الحلوى، مُباغتاً نسرين أثناء رقصتها. لمحت مجيداً وهو جالس على الكنبة. ولمّا التقت نظراتهما، اهتز الباب وانغلق، ومن ثم اهتز إلى الأمام والخلف، أبطأ فأبطأ إلى أن توقف. «جهّزي الشاي»، قال أبوها. «سأعود حين يكون الوقت مناسباً».

أضاف محمد الحلوى إلى الصواني المناسبة وهز الباب وفتحه من جديد.

الإسكندرية. خسر والداه جميع ممتلكاتهم إثر أزمة قناة السويس مما اضطرهما إلى مغادرة مصر والعودة إلى اليونان، وكان ديميس قد بدأ مشواره الفني في اليونان مع مجموعة «ذي أيدولز»، وعمره آنذاك سبعة عشر عاماً. اشتهر عالمياً عندما التحق بمجموعة الروك التقدمي «أفرودايت شايلد»، وبعد تلك المحطة واصل ديميس روسوس ذو الصوت الجهير مساره الفني بنجاح مع مجموعة «فانجليس» وأخيراً كمغنٍّ منفرد. من أشهر أغانيه: Far away - م.

1- سيدة النعيم المحبوبة Lovely lady of Arcadia: أغنية شهيرة للمطرب ديمس روسوس. توجد نسخ من هذه الأغنية بلغات أخرى، مثل الإسبانية والألمانية. أركاديا هي منطقة جبلية في بلاد اليونان اشتهرت بأنها موئل الرعاة البسطاء القانعين بما قُسم لهم. يقول مطلع الأغنية:

We met one magic summer day
A dream came true and blew a way
For us our love began to grow
The time had come for me to go.

كان مجيد قد انخرط أصلاً في حوار مع أكبر-آغا، كما رأت نسرين، حالما تسلل جعفر إلى المطبخ. وقف هناك يتفرس في صفوف حلوى «الباميا»، سطح العسل الصقيل يلمع على الكرات المستديرة بنحو مثالي. تناولت قطعة منها وسلّمتها له. أكلها بعضّة واحدة وعاود النظر إلى الصواني، مثبتاً نظراته على البقلاوة. سلّمته باليد قطعة وأكلها هذه في عَضّة واحدة أيضاً، لاحساً العسل اللزج وفتات الفستق على أصابعه. أعطته نسرين قطعاً صغيرة من حلوى «الساهون»، وضعها في جيبه، وبعدها تسلل عبر باب المطبخ. كانت مندهشة من أن يتحرك شخص بدين جداً بخفة رشيقة كهذه، كما لو أنه لم يكن موجوداً هناك.

في حجرة المعيشة، مال مجيد على أكبر-آغا وتحدّث برقّة: «هل رأيت جريدة اليوم؟».

«نعم، بالطبع».

«مليون شخص تجمعوا في الشوارع».

«لستُ مندهشاً. هذا شيءٌ لا مناص منه».

«هل تعتقد أنّ هذه هي حقيقة الشيء؟».

«لستُ متيقناً من هذا الـ[شيء] حتى الآن، لكن نعم».

تذكر أكبر-آغا التاسع عشر من آب / أغسطس، 1953. كان يومئذ شاباً، يعمل قاضياً، إلا أنه لم يكن يعرف بعد حدود القانون في ظل حكم استبدادي، وقد ابتهج بشدّة لدى صعود رئيس الوزراء المنتخب ديمقراطياً، الدكتور محمد مصدّق، إلى السلطة، حتى بعد المحاولة الانقلابية التي قامت بها القوى الأجنبية المدعومة من محمد رضا شاه پهلوي.

في ذلك اليوم، سار أكبر-آغا في شوارع مسقط رأسه وشعر بكهرباء الشعب الذي أيقظته قوة مؤسسته. مئات من البشر كانوا يجوبون الشوارع ويهتفون لرئيس الوزراء: «يعيش مُصدّق! يعيش مُصدّق! يعيش مُصدّق!».

بعد انقضاء بضع ساعات اقتحم حشدٌ آخر الشوارع ذاتها هاتفاً: «الموت لمُصدّق! الموت لمُصدّق! الموت لمُصدّق!».

وهكذا، أُسكت رئيس الوزراء ووُضع تحت الإقامة الجبرية. الانقلاب الأجنبي الذي حَسِب أنه أُثبط، في حقيقة الأمر نجح.

حدّق أكبر-آغا في عيني مجيد وخاطبه قائلاً: «مجيد، احترس».

«أنا مُحترس. إلا أننا قريبون جداً من جمهورية شعب حقيقي».

«مجيد، لا تسمح لنفسك بأن تنجرف. انظر بعينين صافيتين. القَدَر يتغيّر في نزوة».

دُهش مجيد من سُخرية أكبر-آغا. في رأيه. كانت أخبار الانتفاضة في العاصمة هي إلهام. كان يريد أن يكون جزءاً منها. كان يريد أن تكون نسرين جزءاً منها.

«إنه ربيع دافئ بنحو غير معقول»، قالت القابلة. «عادةً ما يكون الربيع أكثر برودة حين ندخل إلى [السنة الجديدة][1]».

أيّدتها قمر: «السنة المنصرمة في هذا الوقت، كان الجو أكثر برودة بكثير. كان يلزمني أن أتصارع مع آلام المعدة الرهيبة، وذلك الطبيب الأرمني ظلّ يعطيني أقراص الفحم دواءً ويتقاضى عنها مبالغ طائلة. وظللتُ أسأله: [لماذا تعطيني أقراص الفحم؟ لديّ وجع المعدة من الجو الدافئ]. كما لو أنني يُمكن أن أثق بطبيب أرمني».

أشاح الجميع أبصارهم، محاولين أن يكبتوا ضحكهم. وفي الختام قالت القابلة بلطف: «قمر-جان، أقراص الفحم ليست لألم المعدة، إنها لامتلاء البطن بـ...»[2]

«لماذا لا نبدأ؟» قالت بيبي-خانوم. «باستطاعتي حقاً أن أستعمل كوب شاي».

تنحنح محمد وبدأ حديثه قائلاً: «أود أن أرحب بكم جميعاً في منزلنا. نحن كلّنا عائلة وأنا أعتقد أنه من الأفضل أن نتكلم بشكل صريح عن هذا الوصال. نسرين شابة ذكية ولطيفة جداً. لديها موهبة كبيرة فيما يتصل بصنع

1- السنة الجديدة New Year: المقصودة هنا السنة الجديدة الفارسية التي تبدأ في 21 آذار / مارس من كلّ عام؛ وهذا اليوم يُسمى «عيد الربيع» أو «نوروز» - م.

2- امتلاء البطن: المقصود هنا: «امتلاء البطن بالغازات»، بالإنكليزية flatulence. وردت في النص بشكل مبتسر - flatu - م.

الدانتيلا ولها مستقبل في الخياطة. أنا أخطط لترك المهنة إليها ولا أشك في أنها سوف تحقق نجاحاً باهراً. إنها طاهية ممتازة ومن دواعي السرور أن يتحاور معها المرء. إنها مُنصفة، عميقة التفكير، وحساسة. إلا أنها ابنتنا الوحيدة وليس لدينا ابن آخر سواها وسعادتها شيءٌ مهمّ جدّاً بالنسبة إلينا. أنا شخصياً أؤمن أنها لا تزال يافعة جداً كي تتزوج غير أنها تلح على الزواج ولهذا أنا أدعم قرارها».

حوّل انتباهه إلى شازديپور. «أود أن أناقش بنحو جاد إلى حدّ كبير ما هي خطط ابنك في ما يتعلق بتزويد نسرين بمنزل. أنا أرحب بأن يمكث الاثنان معنا قدر ما يشاءان، إنما في لحظة معينة سوف يتعين على مجيد أن يزود زوجته بمنزل. إني أفهم أنه سوف يلتحق بالجامعة في الخريف المقبل، لكنّي أتساءل كيف سيكون باستطاعته التعاطي مع دراسته جنباً إلى جنب مع المسؤوليات الناجمة عن الزواج».

تنحنح شازديپور الآن. «في البداية دعني أقول لك إنه من دواعي سرورنا أن نكون هنا وأنا أشكرك وأشكر قمر-خانوم على ضيافتكما. نسرين هي بمنزلة ابنتي وسيكون لي الشرف أن تكون كنتنا. أنا، كذلك، أحس أنه ربما الوقت مبكر جداً للزواج إلا أن مجيداً يلّح أيضاً. هو فعلاً سوف ينتظم في الجامعة الخريف القادم. لديّ راتب تقاعدي متواضع من الحكومة ورأسمال صغير من نيشان زوجتي تبقّى من حياتها القصيرة جداً ادخرتُه لمناسبة من هذا النوع تحديداً. إنه لا يكفي لأشتري لهما منزلاً لكنّه سوف يوفر عائداً مالياً بينما يُكمل ابني دراسته الجامعية ويحصل على مهنة. أنا وهو ناقشنا اهتماماته، وبينما هو يميل للفنون الجميلة، غير أنه أظهر أيضاً انجذاباً بكلّ معنى الكلمة للهندسة المدنية، وهي حقل مفيد ومُربح».

أخرجت بيبي-خانوم ورقة من جزدانها ووضعتها على المنضدة. «أكبر-آغا وأنا نود نقل قطعة أرض صغيرة في بستاننا كملكية عقارية بصك إلى العروس والعريس. باستطاعتهما أن يشيدا عليها منزلاً هناك. إنها هديتنا، هدية الزفاف».

أضحى العرق على جبين مجيد بارداً. فك الزر الأعلى من أزرار قميصه

وحاول أن يتنفس. لم يتعرّف إلى نفسه أو إلى نسرين في أيّ شيء قالته أسرته.

ولج محمد إلى المطبخ كي يُلمح لنسرين بأنه يتعين عليها الدخول. كانت واقفة عند الكاونتر تحمل الصينية ذات الأقداح وطاس مكعبات السكر. يبدو وجهها أشبه بأرنب مذعور، أنفها وحده الذي يرتجف. طمأنها والدها: «الأمور تسير سيراً حسناً. أحضري الشاي».

أمسك الباب لها. بتؤدة، مرت من الباب، الأقداح تجلجل. «إنه رجل محظوظ جداً»، همس والدها.

الحجرة كلّها التفتت كي تنظر إليها. توقفت نسرين لحظة، ووقعت عيناها على مجيد. بدا شاحباً. كان جبينه يلمع. طافت حول الكنبة وانحنت كي تقدّم الشاي للقابلة أولاً، وبعدها لكلّ شخص. ولمّا وصلت إلى مجيد، خفض بصره ناظراً إلى فستانها، وألقى نظرة خاطفة على حمّالة صدرها. وحين مدّ يده كي يأخذ شايه، ضرب القدح بعنف، وسفح بقية الأقداح على فستانها كلّه. ندّت عنها صرخة. هبّ واقفاً، وجعلها تُسقط الصينية. تدافع الجميع كي ينظفوا الفوضى، واستعمل محمد ممسحة الأطباق ببراعة.

مالت القابلة نحو بيبي–خانوم وهمست قائلة: «هذه هي الأشياء التي يُمكن أن يفعلهما ثديا امرأة بالرجل، أيّ رجل».

ضحكتا تحت عباءتيهما، إلى أن قال محمد مخاطباً مجيداً: «أعتقد أنه آن الأوان لك ولنسرين كي تذهبا إلى المُختلى كي تبقيا معاً».

كانت نسرين واقفة عند السِنك، تمسح فستانها بمنشفة أطباق.

«أنا متأسف جداً»، قال لها.

ابتسمت. «لا بأس. أنا لا أبالي».

«إنهم يريدون أن يعرف أحدنا الآخر».

انفجر كلاهما ضاحكاً إلا أنهما تمكنا من أن يومئا للجميع فيما هما يجتازان غرفة المعيشة ويدلفان إلى المختلى. فتحت نسرين الأبواب الانزلاقية، ومن ثم ترددت. كانت تتفادى هذه الحجرة على الدوام. ففيها كان أبواها يتشاجران.

***

كلّما يحصل الشجار، كانت تحاول أن تختبئ في محل الخياطة العائد لأبيها. كانت الكاونترات مغطاة بلفات الأقمشة الملونة، بالألبسة التي خيطت إلى النصف، ورق المخطط، وسائد الإبر، ملفات الخيوط، وماكينات الخياطة. كانت أسعد حجرات المنزل ومغمورة بالشمس أكثر من جميع الغرف، بمدخلها في مؤخرة المنزل. كانت أمها تتحاشى تلك الحجرة، إلا إذا حين يريد زوجها أن يأخذ مقاييس ملابسها. عاماً بعد عام، كانت نسرين تراقب أمها وهي تقف على «ستول» تكييف الثياب على مقاييس الجسم فيما ينحني أبوها بالمقص المُسنَّن[1] وشريط القياس.

اشمأزت منه قمر بسبب مكانته المتدنية في الحياة. إلا أنها اشمأزت منه أكثر بسبب خموله. يبدو أنه لم ينتبه إلى أيّ منهما. «هذه الأقمشة القطنية هي لغز»، كان يقول لها مراراً وتكراراً. «تغسلينها مرات قليلة فتنكمش».

كلّما أصبح ألطف معها فيما يتعلّق بمحيط الجسم عند الخصر، تغدو أكثر غلياناً إلى أن تنفجر واقعياً وتجريدياً على الدرزات، مُطلقة خطبةً طويلة تتضمن نقداً لاذعاً: «خالتي تزوجت قاضياً. شقيقاتي تزوجن أطباء ومهندسين انطلقوا بهن سريعاً إلى العاصمة، أما أنا فقد تُركتُ مثبتة هنا بدبوس إلى خيّاط ملابس».

«أنا أعرف أنكِ منزعجة فيما يتعلّق بالفستان»، قال لها، من دون أن يُبدي ردة فعل. «سأرتبه الآن حصراً».

هذا الكلام يجعلها أكثر غضباً. «الفستان لا ينكمش، أيها المغفل. أنا بدينة وأغدو أكثر بدانة والمسألة كلّها غلطتك. إنك تحشوني مثل وسادة الأرض». خرجت من المخزن ضاربة الأرض بقدميها ودلفت إلى المختلى، زوجها يتبعها.

من وراء جدران المنزل، كان بوسع نسرين أن تسمع أمها تصرخ وتضرب أباها. كانت تجلس على الأرض، تتأرجح جيئة وذهاباً، خائفةً تنتظر أمَّها لتنفجر أخيراً باكية وتصفعه على وجهه. حينها فقط ترتمي بين ذراعيه، نادمة.

1- المقص المُسنَّن pinking shears: مقص شفرتاه أشبه بأسنان المنشار بدلاً من أن تكون مستقيمة. يُستعمل لقص القماش وما إلى ذلك - م.

لم يكن محمد يرد على ضربها. كان فقط يُمسك بقمر حتى تهدأ وترقد بين ذراعيه فيما تتنفس بصعوبة. بعد الخصام هو الوقت الوحيد الذي يكونان فيه حنونين.

***

هل من الجائز أن ينتهي زواجها إلى هذا المصير نفسه؟ وقفت نسرين في مدخل المختلى. كان هنالك كرسيان رُتبا في وسط الغرفة. أغلق مجيد الأبواب الانزلاقية وراءه. أتى مباشرة. طوّقها بذراعيه، حنكه على رأسها. وقفا هناك صامتين بعض الوقت قبل أن تبادر نسرين قائلة: «عِدني أننا سنتكلّم دوماً بصراحة أحدُنا للآخر عن مشاكلنا. عِدني بذلك وسوف أتحمّل أيّ صعوبة معك».

«أعدكِ»، همس لها.

أطلقت تنهيدة ارتياح. «تبدو شاحباً جداً»، قالت وجلست على كرسيها.

«أشعر بالمرض. إنّ هذا الشيء كلّه مروّع بكل ما في الكلمة من معنى».

«إنه التقليد».

«إنه تقليد بربري».

مال مجيد إلى الأمام وقطّب حاجبيه مثل محمد، قائلاً بصوت عميق: «ابنتنا طاهية ممتازة ومُحاوِرة بارعة. كما أنّ لديها ثديين غضّين، ووركين مناسبين للحمل والولادة، مجموعة كاملة من الأسنان، وترافق الماشية».

بدأت نسرين تقهقه. «لم يقل أبي إن لها ثديين غضين!».

«أنا أضفتُ ذلك».

«ومجموعة كاملة من الأسنان؟».

«لديكِ أسنان جيدة جداً».

«أنتَ إذاً تتزوجني من أجل أسناني».

«أوه لا. أنا أتزوجكِ من أجل ثدييك».

«أنتَ مزعج جداً».

«سان فرانسيسكو».

«كفى!».

«أتعرفين أنكِ ستكونين صانعة دانتيلا وتستولين على محل أبيك؟ وأنا سوف أصبح مهندساً مدنياً. وكذلك، سوف نشيّد منزلاً في البستان».

«ماذا؟».

«يبدو كما لو أننا غير مرئيين».

«أنا متعوّدة على ذلك»، قالت نسرين. تكوّنت دمعة في زاوية عينها.

اقترب منها مجيد وقبض على يدها. «الأشياء تتغير. بوسعي أن أحس بذلك. كلّ الأشياء التي تحدث في العاصمة سوف تحدث لنا، أيضاً. مليون نسمة في الشوارع. ثورة حقيقية. هذا زمننا».

كانت الأسرة قد فترت همّتها في غرفة المعيشة وهي تنتظر الخاطب وعروسته المُرتقبة. ملأ محمد طبقاً بالحلوى ووضعها أمام قمر. مصت أسنانها وأشاحت وجهها. شازديپور قضم قطعة من البقلاوة. «كنتُ أعرف أنّ بينهما شيئاً بعد أول غداء ربيعي قبل بضعة أسابيع خلت».

التفت إليه محمد مندهشاً: «هل أخبراك؟».

«لا. باستطاعتي أن أتحسس ذلك».

هزّ محمد رأسه. «أخشى أنهما لا يزالان يافعين جداً».

«كنا في سنّهما حين تزوجنا»، قالت قمر.

«بالضبط»، قال محمد، وحينها فقط أدرك قسوة هذه الكلمة.

انتظر أحد أجوبة زوجته اللاذعة والفظيعة غير أنها لم تقل شيئاً. ببساطة أطرقت خجلاً. خيانات زوجها التي لا حصر لها، تلك الخيانات كانت تعيها، قد أضنتها أخيراً.

الغرق

استيقظ جمشيد مشوَّش الذهن، فاقداً إحساسه بالزمان والمكان، رؤيته ضبابية. كان يجلس على الأرض. شعر بأنّ ثمة خللاً في رأسه. مرّر أصابعه عبر شعره، وأحس أن شريطاً طويلاً حُلِق منه من الخلف إلى الأمام. كان مستلقياً في فناء السجن، ليس بعيداً عن ساحة المدينة.

كان ثمة رجل يجلس القرفصاء قبالته، ذراعاه متقاطعتان على ركبتيه. كان رجلاً مُسناً أشعث ذا لحية بيضاء، صعلوكاً، وليس مُدمناً على المخدرات. كان لا يزال يمتلك شعره، غير أنّ رائحته الكريهة قوية جداً بحيث أنها صحّت جمشيد تماماً. «أنت في مشكلة، يا أخ»، قال الصعلوك. لهجته أفغانية.

ثمة فتى لا يزيد عمره على ستة عشر عاماً، معه بندقية كلاشينكوف، كان يمشي هناك ومن دون سابق إنذار ضرب الصعلوك في مؤخرة رأسه بعُقب البندقية. هوى الصعلوك إلى الأسفل معفراً في التراب، الدم يسيل على أذنه ويتغلغل في ثنايا لحيته. كان يرقد هناك، يضحك بهمجية فيما كان الفتى يدوس عليه وينتقل إلى المجموعة الأخرى من السجناء.

حينها فقط ساعد جمشيد الصعلوك فعلاً على النهوض. ناوله منديلاً من جيبه. رفع الرجل المنديل إلى رأسه. «شاهدتُهم يُحضرونك إلى هنا البارحة. كنتَ ثملاً جداً. أسقطوك هنا كما لو أنهم يُسقطون كيساً من الرز. قال أحدهم إنه وجدك عند جانب الطريق. كنتَ هويتَ من دراجتك النارية».

هزّ جمشيد رأسه غير مُصدّق. إنه لا يتذكر كيف وصل إلى هنا.

«أنتَ في مشكلة كبيرة، أخي»، قال الصعلوك. «وجدوا كتلة من الأفيون

عليك. مدير الشرطة يُضيّق الخناق. إنه يحسب أنّ هذا من شأنه أن ينقذ رأسه من الأشخاص المتدينين».

نظر الفتى ذو البندقية في اتجاههم. بصق على الأرض وأومأ إلى جمشيد بأن يقف. أبقى جمشيد رأسه مطأطأً فيما هو ينهض على قدميه. نخسه الغلام في ظهره ببندقيته. تخبط جمشيد. نخسه الغلام من جديد. هذه المرة تأرجح هنا وهناك وحاول أن يُمسك بفوهة البندقية، غير أن يديه ارتعشتا، وكانتا صقيلتين من جراء العَرَق. كان مريضاً أصلاً.

ضحك الغلام عليه. ثم رفع بندقيته إلى الأعلى ووضع فوهتها على جبين جمشيد. أغمض الأخير عينيه. سمعَ أصواتاً ووقع أقدام في البُعد. ومزلاج الأمان تم تحويله إلى وضع التعطيل.

كانت هنالك يد على كتف جمشيد.

«اتبعني»، قال صوتٌ ما. كان صوتاً يعرفه، لكنه لم يجرؤ على رفع بصره إلا حين دخلا المبنى. كان ذلك هو المُلّا الذي أنقذه. كانت الدموع تترقرق في عينيه وبدأ جسمه الآن يرتعش بعنف شديد بحيث أن ركبتيه التوتا. حطّ عند قدمي خال أمه وحاول أن يضع حداً لارتعاشه إلا أنه لم يتمكن من ذلك. كان يرقد هناك، ذراعاه تطوّقان جسمه.

في اليوم التالي، أفاق جمشيد من نومه وكانت الشمس تشرق على وجهه عبر ستائر الدانتيلا. لم يتعرف إلى حجرة النوم ولا إلى النافذة القريبة من سريره. كانت ثيابه ندية، كما لو أنه بال على نفسه، إلا أنّ الرائحة مخالفة للمألوف وشعره رطب أيضاً. كان ثمة عرق يغطي كلّ أنحاء جسمه، عرق يشتعل في عينيه. ولمّا جلس في سريره، آلام حادة اجتاحت جسمه، وتغلغلت عميقاً حتى بلغت عظامه. ومن ثم أتت القشعريرة ومزيد من التعرّق. كان خائفاً ولا يستطيع أن يجزم ما سبب ما يعاني منه وكيف يمكنه أن يضع حداً له. بدأ يبكي وينادي على أيّ شخص، أيّ شخص كي يهب لمساعدته.

فتح رجل الدين الباب ببطء وأتى ماشياً إليه ومعه صينية صغيرة من الشاي ومكعبات السكر. لم يقل شيئاً للشاب، بيد أنه جلس على جانب سريره، ووضع الصينية على المنضدة الصغيرة بجوار السرير. ملأ كأس

الشاي إلى الأعلى تقريباً بمكعبات السكر وحرّكها ببطء إلى أن ذابت وحوّلت الشاي إلى قوام عصير. كان جمشيد يرقد هناك، يحاول جاهداً أن يضع حداً للنوبات اللاإرادية التي تملّكت جسمه. قرّب المُلّا كأس الشاي من وجهه وأومأ برأسه كي يشجع الشاب على شربه.

كان السكر والحرارة قد دفعتا حنجرة جمشيد إلى الأسفل، وغطّتا معدته، وأشاعتا الدفء في بدنه. كان خال أمه قد ملأ الكأس ثانية من غلاية الشاي الموضوعة على الصينية وأضاف مزيداً من المكعبات. حمله من جديد إلى شفتيْ جمشيد. وفيما كان الشاب يحتسي الشاي، بدأ المُلّا يتحدّث بنبرة صوت هادئة، غير متأثرة: «عليك أن تعي أنّ الألم سوف يستمر بضعة أيام. قلبك سوف يخفق بسرعة والتعرّق سوف يصبح أسوأ. سوف تواجه مشكلة أثناء النوم ومشكلة أثناء الصحو. هذا هو الثمن الذي يتعين عليك أن تدفعه لقاء المذلات التي أخضعتَ جسمكَ وروحك لها. لكن ليكن في علمك، هذه المكابدات سوف تنصرم. سوف تنصرم».

شرب جمشيد شايه وأنصت إلى كلمات خال أمه وشعر بالعبرات تسيل على وجنتيه. ظلّ يكرر مع نفسه: «سوف تنصرم، سوف تنصرم». وقف رجل الدين استعداداً للمغادرة، غير أن جمشيد أمسك بيده. «أرجوك لا تتركني»، قال له.

«سأعود حالاً».

ترك المُلّا الباب مفتوحاً على وسعه ورجع ومعه مسبحة وقرآن. جلس على وسائد الأرض بجوار السرير، وفتح القرآن على حامل الكتب. بدأ يتأرجح إلى الأمام والخلف، حاملاً مسبحته بيده الشمال ويقلّب الصفحات بيده اليمنى. شرع يقرأ بهمس مسموع تقريباً. شعر جمشيد أن أجفانه تغدو ثقيلة وراحت ترفرف منغلقة.

جلس منتصباً على حين غرة وهو يلهث. كانت الحجرة تغرق في ظلام دامس. قلبه يقفز في صدره وكان مبللاً بالعرق. «هل أنت موجود؟» سأله. صوته قاسٍ وخائف.

«أجل»، أجاب رجل الدين، بهدوء كالسابق.

«كم مضى عليّ وأنا نائم؟».

«ليس بالوقت الطويل، ساعات قليلة».

عينا جمشيد بدأتا تعوّدان نفسيهما. اكتشف شكل خال أمه وهو يتكئ على الحائط فيما كانت إحدى ركبتيه ناتئة للأعلى، مسبحته تتدلى من يده. كان لا يزال يقرأ القرآن إنما الآن عن ظهر قلب.

«حلمتُ»، قال جمشيد. «أنا لا أحلم».

«يحلم المرء على الدوام. المسألة فقط أنه لا يتذكر حلمه على الدوام».

«لا أتذكر أين كنت. كان الجو مشمساً، مشمساً إلى درجة لا تُطاق. كانت هنالك أشجار وصخور في كلّ حدب وصوب وكنتُ عطشان، عطشان جداً. بدا لساني كما لو أنه مكسو بالرمل وكان بوسعي سماع صوت شلال، في موقع قريب جداً. بدأتُ أمشي في اتجاه الصوت. أصبح الصوت أعلى فأعلى إلا أنني لم أستطع أن أجده. انطلقت عبر أوراق الشجر، صوت الشلال يندفع بعنف في مكان أقرب فأقرب، إنما في نهاية الدرب حاولتُ، لم يكن هناك سوى الأشجار. كانت حنجرتي على نار بسبب الظمأ. استأنفت المسير، غير أنّ الشلال لم يكن هناك البتة. بدأت الأرض تهتز، كان لا يزال باستطاعتي أن أسمع الماء لكنه الآن يدمدم ويندفع ناحيتي، يكسر الأشجار ويبتلعني. حينئذ استيقظتُ من النوم، ألتقط أنفاسي بينما كنتُ أغرق».

أُمّان

كانت العتمة الجزئية تُخيّم على الشارع الهادئ، الضيّق، حيث توقف أكبر-آغا كي يدق على أحد الأبواب. كان باستطاعته أن يسمع قعقعة أواني المائدة الفضية والأطباق في داخل المنازل المجاورة. ما هو واضح وقتذاك كان أصوات النساء التي سكتت فجأة. هؤلاء النسوة كن يخرجن من المطابخ ويدخلن إليها حاملات الأطباق الكبيرة من الطعام، صرخات الأطفال الذين يقفزون من مقاعدهم ويركضون حول السُفرات، أمهاتهم يلاحقنهم ويأمرنهم بالجلوس من جديد. سمع ضحكاً من أحد المنازل، وجدالاً من منزل آخر، ووليمة طعام صامتة من منزل ثالث.

فتح أخوه الباب، وهو لا يزال يرتدي عباءته ويحمل مسبحته. أومأ كلّ واحد منهما برأسه للآخر. خلع أكبر-آغا حذاءه على ممسحة الأرجل وانحنى قليلاً كي يُقبّل شقيقه في كلا خديه. كان الفارق الجسدي بينهما مُذهلاً. لو لم يعرف المرء أنهما أَخَوان، لن يخمن أنهما كذلك. لم يكونا من أُم واحدة. أُم أكبر هي زوجة أبيه الثانية، التي كان قد تزوجها لمّا كان حبيب في عامه الثاني.

كان أبوهما، المعروف لهما فقط بلقبه التشريفي «حاج - آغا»، شاباً طموحاً ذا موارد مالية قليلة، شق طريقه بنجاح وجمع ثروة بأن اتخذ أُم حبيب بوصفها زوجته الأولى. كانت أكبر بنات أسرة أرستقراطية وأكثر واحدة منهن تعوزها الأناقة[1]، وكانت أسرتها مسرورة في التخلّص منها،

1- أكثر واحدة منهن تعوزها الأناقة dowdiest: كلمة dowdy تعني أنها كانت ترتدي ثياباً غير جذابة أو غير مُسايرة للموضة - م.

على الرغم من المكانة الاجتماعية المتدنية لحاج - آغا. ويا لدهشته، كانت طاهية وربة بيت ممتازة. وبسبب هذه الصفة، تحمّل حاج آغا وجودها خلال السنوات الثلاث الأولى من زواجهما، حتى بعد أن أنجبت صبياً وبنتاً تشبهها بنحو فاضح. في السنة الرابعة، بعد التذمر من أنها لن تكون قادرة على إنجاب مزيد من الأطفال، وهذا شيء صحيح بسبب عدم وجود اتصال جسدي بينهما، طالب بزوجة ثانية. كانت أسرتها قد خجلت من الفضيحة وكان قادراً على أن يرغمها على توقيع كتاب رسمي قانوني مُلزِم بالموافقة على زواجه من امرأة ثانية.

كانت الزوجة الثانية امرأة أصغر سناً من أسرة ريفية متواضعة. كانت امرأة هيفاء، رشيقة وذات عينين خضراوين براقتين وشعر بُني فاتح. كان حاج - آغا مفتوناً بجمالها. وبالموارد المالية من أسرة زوجته الأولى كان باستطاعته أن يحصل على الزوجة الثانية من دون مشاحنات كثيرة. دخلت أم أكبر المنزل والزوجة الأولى، التي كان الحدث قد دمرها في بادئ الأمر، لم تستطع سوى أن تنبهر بمنافستها. كان حسداً قوياً جداً بحيث أنه، بمرور الوقت، تحوّل إلى افتتان.

كانت الزوجة الثانية رقيقة ورشيقة إلا أنها لم تكن تمتلك مهارات منزلية يُمكن التحدّث عنها. والزوجة الأولى، المعروفة في نطاق الأسرة باعتبارها حاج-خانوم، أخذت على عاتقها أن تتولى جميع مسؤوليات المنزل، بخاصة أن الزوجة الثانية، المعروفة باعتبارها سيمين-خانوم، كانت حاملاً بطفل أصلاً في الشهر الأول من زواجها.

كانت ولادة أكبر عسيرة وآذى ظهر سيمين-خانوم بشكل دائم. على الرغم من مكانتها بوصفها الزوجة الأولى، قلبت حاج-خانوم النظام المنزلي[1] وسهرت عليها ليلًا ونهاراً. غسل الملاءات، رعاية الحديقة، ودعك الأرضيات. هذه الأعمال غضّنت يديها. تجعدت طيات الجلد عبر مفاصل أصابعها. تكوّنت التجاعيد حول عينيها. أمست رِجلاها ثخينتين

1- قلبت النظام المنزلي upended the household: أي توّلت أمور المنزل باقتدار وكفاءة - م.

وعضليتين جراء القرفصة كي تحمل الأطفال والطسوت. وسرعان ما أصبحت شبيهة بالخادمة.

رداً على ذلك، تعلّق حاج - آغا بسيمين وابنها الصغير، أكبر، وعملياً تجاهل حاج-خانوم وولديها حبيباً وزهـراء. حتى الرضاعة أجهَدَت سيمين-خانوم. لمّا كانت تعاودها دورتها الشهرية، لم يكن النزف يتوقف والطبيبات في المدينة لم يكن قادرات على معرفة السبب أو إيجاد علاج له. أُصيبت بفقر الدم وأصبحت طريحة الفراش وهشة أكثر من أيّ وقت مضى. كان عظما وركيها يبرزان من تحت أكداس البطانيات على السرير وأمست بشرتها شاحبة بحيث أصبحت ذات شفافية ضاربة للزرقة، وهذا الأمر بالنسبة إلى حاج - آغا لم يضف إليها سوى مزيد من الجاذبية. كان يجلس كلّ مساء بجوارها، مفتوناً بشعرها الأشقر الأشعث وعينيها الخضراوين اللامعتين.

على الرغم من أن حاج-خانوم كانت تدير المنزل وتربّي الأطفال الثلاثة، لم يكن مسموحاً لذريتها بالدخول إلى حجرة سيمين-خانوم حين يظهر حاج - آغا. كلّ صباح، كانت حاج-خانوم تعد شاياً منقوعاً بالزهر البري تحمله إلى شفتيْ سيمين وتحثها على شربه. كانت تمسح وجهها بمنشفة وجه مغموسة بماء الخيار. كانت تبدل أقمشة الدورة الشهرية في ملابس سيمين الداخلية، وفي كلّ مرة تخفف توتر وحَرَج ضرّتها: «ششش. لا بأس. لا تخجلي. إنه شيء طبيعي».

ومع ذلك كان وجع سيمين في رحمها قد بدأ يغدو أكثر إيلاماً. تفاقم النزف وكانت تتأوه باستمرار. وكانت حاج-خانوم تعطيها مزيداً من الشاي كي تهدئها.

في ما بعد ظهيرة أحد الأيام، أتى حاج - آغا إلى المنزل باكراً من سوق الذهب الذي يعمل فيه والكائن في ساحة المدينة، ووجد زوجته الأولى في المطبخ، تعد الشاي المنقوع بالزهر البري. نظر إليها بارتياب: «ماذا تفعلين؟» سألها.

«أعد الشاي لسيمين-خانوم».

«ماذا يوجد فيه؟».

«زهور نجمية مجففة. إنها تُهدئها».

أمسك بالشاي، استنشقه، وبعدها بسرعة جرف بتلات الزهر الذابلة وعاينها: «لا تضعيها بعد الآن»، قال لها. «الشاي الاعتيادي مناسب».

تالياً، حمل حاج - آغا طفله الصغير، أكبر، إلى حجرة أمه وأجلسه على الفراش. تفرست فيه بعينيها الطافحتين بالألم، لونهما تحوّل من الأخضر إلى الأزرق وإلى لون ذهبي غريب، بارد. كان أكبر خائفاً. نادى على حاج-خانوم.

في الزيارة التالية للطبيب، عرض عليه حاج - آغا علبة بتلات الزهور النجمية المجففة. صُدم الطبيب وانبرى قائلاً: «إياك أن تعطيها هذه، في أيّ حال من الأحوال. هذه الزهرة تخفف الدم».

سيطر الغضب على حاج - آغا. اتهم الأخير حاج-خانوم بأنها تسعى إلى قتل سيمين ومَنَعها من دخول غرفة سيمين وحدها. جنّد ابنه حبيباً كي يتلّصص عليها، وهذا ما فعله حبيب ببالغ السرور كي يترك انطباعاً لدى أبٍ كان بخلاف ذلك يتجاهله.

نزفت سيمين-خانوم ببطء حتى الموت وفارقت الحياة بعد مضي عام واحد. لم يكن أكبر قد بلغ الثانية من عمره. ومنذ ذلك اليوم فصاعداً، تحوّل حاج - آغا إلى حجر، ولم يكن يُبدي أيّ تعاطف إنساني إلا عند حضور أكبر أو لمّا يتذكر جمال سيمين ولطفها المثاليين. في كلّ يوم كان يجد وسيلة ما كي يقارن فضائلها بالإخفاقات غير البارعة والبشعة لزوجته الأولى، وفي غضون سنوات قليلة كانت حاج-خانوم أكثر من سعيدة في أن تترك هذه الأرض نفسها، تاركة وراءها ابنها حبيباً ذا الأعوام الثمانية، وابنتها ذات الأعوام السبعة، زهراء، وابن زوجها ذا الأعوام الستة، أكبر الذي أحبها بوصفها الأم الوحيدة التي كان يعرفها. همست كلماتها الأخيرة في أذن أكبر: «لم أكن أعرف ما يتعلق بأضرار الأزهار النجمية».

تعلّق حاج - آغا بأكبر، وركز كلّ اهتمامه على الصبي، وكان يغدق عليه الهدايا والملابس المُترَفة. خصص مالاً لتعليمه ونقله إلى أكثر حجرات

المنزل إضاءة، وهي حجرة مجهزة بالكتب والأثاث الفاخر. ومراراً وتكراراً كان يلقي محاضرة على الغلام حول أهمية المال والمنزلة الاجتماعية. إنما سراً، ظلّ أكبر غير مقتنع بذلك. وفيما هو يراقب أباه الذي حوّل أخته إلى خادمة منزل جديدة وأخاه إلى واضع يد[1] غير مرئي، لم يكن يحس إلا بالذنب. كانت محاولاته التي لا تُعد ولا تُحصى في مشاركة أخيه وأخته قد باءت بالفشل. كلاهما ألقى عليه اللوم.

***

وفيما كان واقفاً في غرفة معيشة طفولته -حيث لعب ودرس فيها- أحس أكبر أن الماضي يكتسحه. المنزل لم يعد منزله أو منزل أبيه. إنه منزل حبيب. انتبه إلى طبق من الخبز. الجبن والأعشاب على سُفرة صغيرة موضوعة على الأرض. «قاطعتك وأنت تتناول عشاءك».

«لا، أبداً»، أجاب حبيب، وبعدها قدّم الشاي بصمت.

برّد أكبر شايه بأن سكبه في الصحن الصغير. «أعمارٌ كثيرة مرّت من هذه الأبواب»، قال. «أخطاء كثيرة جداً. حالات ندم كثيرة جداً».

اكتفى حبيب بالنظر إلى أخيه فقط وواصل نقر خرزات مسبحته بإصبعه. كان صوتها يرّن عبر السكون.

«إنه لطفٌ منك أن تؤوي جمشيد وتزوره خلال هذا المرض. شازديپور تخلّى عنه منذ أمد طويل. إنه شيء غير صحيح. نحن كلّنا أعضاء أسرة واحدة».

«إني أجعل كلّ إنسان يمشي نحو الطريق الصحيح».

أحس أكبر بأنه يستشعر وخز الندم:

«وماذا عن أولئك الأشخاص الذين لا يرغبون بأن يسلكوا هذا الطريق؟».

«إنهم ضائعون».

1- واضع يد squatter: المقصود هنا الشخص الذي يضع يده على مال أو أرض ليست ملكه. أي بمعنى مغتصب للمال أو الأرض، لكننا لم نستعمل كلمة «مغتصب» في ترجمتنا كي لا يُساء فهمها، كونها تشي بالاعتداء الجنسي - م.

لزما الصمت مجدداً.

كانت هنالك دقة على الباب. هبّ رجل الدين واقفاً كي يرد على الدقة. كان بمستطاع أكبر أن يسمع أصوات الذكور وهم يسلّمون على أخيه. ولمّا رجع حبيب، ثلاثة رجال دين ساروا خلفه.

«هذا أخي الأصغر، أكبر-آغا»، قال. «اعتاد أن يكون قاضياً».

الشبان الثلاثة، ببدلاتهم الأنيقة، بدلات طلاب معهد لاهوتي، وعمائمهم البيض، أومؤوا برؤوسهم تعبيراً عن الاحترام للقاضي السابق ولم يتحركوا من أمكنتهم. نظر رجل الدين إلى أخيه، من دون أن يظهر عليه أيّ تعبير. أدرك أكبر أنه قاطع اجتماعاً ما. كان الشاي والطعام مُخصصين لرجال الدين الشبان. شعر بغتة بأنه سفيه وفي غير مكانه. وعلى الفور وقف ومشى صوب الباب. توقف كي يُلقي تحية وداع على الجميع إنما لم ينظر إليه أحد منهم. مشى نحو البهو وانتعل حذاءه. لم يأتِ أحد لرؤيته. وقف هناك دقيقة واحدة وكان بوسعه أن يسمع أخاه يقدّم الشاي والطعام للرجال، جاذباً انتباههم فيما هو يتحدّث عن وقائع اليوم والوقائع التي ستحصل في الأيام القادمة.

وقف أكبر في الشارع الضيّق وراح يتطلّع إلى البيوت، مصابيحها لا تزال مُشتعلة. كان باستطاعته أن يسمع أصوات أجهزة التلفزيون، الراديو، والهمهمات بما أن العائلات استقرت في منازلها عند حلول الليل. كانت ليلة أشبه بأيّ ليلة أخرى في هذا الشارع، الشارع الذي وُلد فيه. في شباك منزله العتيق، كانت الستائر مُسدَلة وباستطاعته أن يرى ظلال ثلاثة رجال دين جالسين يستمعون بتصميم إلى زعيمهم. رأى ظل جمشيد يدخل غرفة المعيشة وينضم إلى حلقتهم. ما من شيء آخر يُمكن القيام به.

شرع يشق طريقه نحو المنزل ماشياً على قدميه، على طول الأزقة الضيقة المؤدية إلى ساحة المدينة، ماراً بباعة البنجر المحمص الذين يسلّمون باليد مخروطاتهم المُغلّفة بورق الجرائد من مأكولاتهم اللذيذة التي ينبعث منها البخار إلى زبائنهم، ماراً برواة القصص[1] الذين يلفتون انتباه مستمعيهم المنتشين.

1- رواة القصص storytellers: هنا نقصد «الحكواتيين» - م.

لمّا وصل إلى البستان، سدّ الباب وراءه بقوة وحث خطاه سائراً صوب المنزل. كانت زوجته قد تركت مصابيح غرفة المعيشة مضاءة من أجله.

خلع فردتيْ حذائه في المجاز ومضى مباشرة نحو المطبخ كي يأخذ كأس ماء. كان يلزمه أن يسيطر على عواطفه وأفكاره. أن تدرك أنّها النهاية، شيء. وأن تختبر تلك النهاية شيء آخر. رنين جرس التلفون أرعبه. ركض كي يرفع السماعة وقبل أن يتمكن من النطق بكلمة واحدة، سمع الصوت الخائف، المرتعش لشازديبور وهو يقول: «ابني ضاع».

باريس

IV

وقف شازديبور في ناصية شارعه، حاملاً أكياس الخضار والفاكهة التي اشتراها من البقال، ومراقباً أُماً باريسية تركع أمام طفلها. كانت تمسح الشوكولاتة على وجهه بواسطة منديل ورقي، مؤنبة إياه بنبرة مازحة. شازديبور لا يحتفظ بأيّ ذكرى عن أمه. كان يعرف أنها شقيقة خاله حبيب وأخت خاله أكبر غير الشقيقة. أمضى شازديبور شبابه في منزل أبيه بمَشهد. وما إن تزوج أبوه ثانية وأسس أسرة جديدة، حتّى أُرسل إلى مدرسة داخلية. أكبر وحده من يتكلّم معه بشأن أمه وكم كانت الحياة صعبة عليها وهي تربيه في نطاق أسرتهم. «كانت أمك تصطحبني مشياً إلى المدرسة يومياً»، قال. «كانت تُطعمني وتُحممني وتحرص على أن أعرف دروسي. إذا ما أزعجني أيّ شخص في المدرسة، كانت تهب لحمايتي. كانت حياتي أفضل بسببها، وأنا أعرف أنها كانت تفعل الشيء نفسه لك. لم يخطر ببالها لحظة واحدة أنها ترغب بالتخلّي عني. ولم تفكر قط أنكَ كنتَ سبب وفاتها».

فتح شازديبور باب شقته. كان قد وضع عكازه في حامل المظلة. أخذ الخضار والفاكهة التي اشتراها من البقال إلى المطبخ الصغير ووضعها جانباً، طوى الأكياس البلاستيكية وأقحمها في كيس بلاستيكي آخر تحت الكاونتر. أشعل المضرَم تحت السماور.

كان الوقت مطلع ما بعد الظهر والنور لا يزال ينسكب في الأستوديو قادماً من الأبواب الفرنسية. نزع الجاكتة وسروال الحليب والسكر، طرحهما على

فراشه، ومسح بقية ملابس الخروج بفرشاة النسالة العائدة له. علّق البذلة بعناية على مشجبها، سحب الغطاء البلاستيكي فوقها، وأعادها إلى خزانة الثياب. أول مرة منذ ثلاثين عاماً، يُخرج بنطلونه الفارسي ويلبسه مع ذيل قميصه المزرر إلى الأسفل[1] متدلياً إلى الخارج.

كان وقت القيلولة، على الرغم من أنه مرّت أعوام طويلة منذ أن نام مدة قصيرة بعد الظهر. وضع آنية الشاي العائدة له جاهزة على منضدة صغيرة. صبّ قدحاً لنفسه وراقب البخار وهو يتصاعد مثل موسيقى المذياع التي تنتشر عبر الأثير. لم يكن يعرف أيّ قطعة موسيقية هذه لكنّه كان يعرف موزارت لمّا سمعها، خفيفة ورشيقة، بهيجة، وأدركها بعمق كبير.

صوت المذيع المهدئ ميّزها باعتبارها سوناتا رقم 16 في C major. وبعدها تتالت الأخبار: نيكولاس ساركوزي رئيس الجمهورية الحالي، والمرشح فرانسوا هولاند كانا يتنافسان في صناديق الاقتراع على منصب الرئيس. موجة من الهجمات الإرهابية تضرب العراق وتتسبب بمقتل 50 وجَرح 240 شخصاً. زلزال بقياس سبعة وأربعة بالعشر يضرب ولايتَي غوريرو وأواكساكا المكسيكيتين. وبطبيعة الحال، الكسوف من المفترض أن يحدث في غضون ساعات معدودات. «لا تنظر إلى الشمس»، المذياع ينصح المواطنين. «حتى إذا لم تكن تشعر بذلك، سوف تُدمر شبكيتيْ عينيك». جفل شازديبور وأطفأ الراديو.

كان كرسي المنتدى الذي جلس عليه هو نسخة تقليد[2] وقد اشتراه قبل بضعة أعوام في أسواق البراغيث[3]. إنه لا يشبه كرسي المنتدى الحقيقي العائد له هناك في بلاده، القماش الأحمر كالنبيذ لم تتلف خاصيته. كان الجلد الأحمر التقليد بالياً وممزقاً في بعض البقع. شاهد البخار يتصاعد من شايه. وبعدها أقلع عن شربه.

1- ذيل القميص shirttail: المقصود هنا الجزء الواقع في مؤخرة القميص الذي ينزل أسفل الخصر – م.

2- نسخة تقليد knockoff: معناها الحرفي هو ما يُقال بالعامية العراقية «نسخة مضروبة»، وهذا ما يوصف به الكتاب المزوّر أو المستنسخ بطريقة غير مشروعة وما إلى ذلك – م.

3- أسواق البراغيث: وردت بالفرنسية في النص الإنكليزي الأصل puces، وتعني الأسواق التي تُباع فيها السلع القديمة الرخيصة التي تكثر فيها البراغيث مبدئياً – م.

ثمة زجاجة كونياك تقف على المكتب الصغير في المدخل مع كأس لصقها. انتزع السدادة ووضع الكأس على جانبها، وراح يسكب لنفسه مقياساً مناسباً حتى الحافة. حينذاك فقط فتح الدُرج وأخرج صندوقاً خشبياً ذا نقش زهري.

كلّ شيء في شقته المقفرة لم يكن عائداً له ولا ينسجم مع ميوله، باستثناء ما يستطيع أن يتحمل تكاليفه. لم يكن السرير الصغير يزيد حقيقةً عن سرير خفيف نقال مُبجل. كرسي المنتدى المزيف. مصباح الصيرفي ذو الظُلّة البلاستيكية على منضدة بجوار السرير تتكدّس عليها ترجمات غير منتهية لنصوص فارسية كلاسيكية لا يُمكن ترجمتها في حقيقة الأمر ولم يكن قد فُوّض بشأن ترجمتها، وكذلك مقالات غير منشورة كتبها سابقاً: «السينما الإيرانية بعد الثورة: انبعاث أم تقييد؟» و«طموحات طيور في قفص كبير: أهمية تحليق الطير في الميثولوجيا الفارسية». الآن سجادته أمست لدى تريانان، الصندوق الخشبي في حضنه يحتوي على مقتنياته الحقيقية فقط. فتح سطحه ذا المفصلة[1].

في داخله لا توجد صور فوتوغرافية. كلّها ضاعت أو أتلفتها السلطات. كلّ ما تبقى هو الرسائل، وقد باتت هرمة ورقيقة، وهي الشيء الوحيد الذي يريد أن يتذكره. غير أنّ هذه هي الحقيقة الموجعة فيما يتصل بالذكرى، ليس باستطاعتك أن تختار ماذا يتعين عليك أن تنساه. معظم الرسائل كانت مدونة على ورق من دفاتر ملاحظات مدرسية ذات أوراق مهلهلة، أطرافها متهرئة، تلطّخ الحبر قليلاً في بعض الأنحاء. كانت كتابة اليد تتراوح بين الكتابة الغاضبة والمسننة والكتابة المنسابة والمضبوطة. مرّر أصابعه على الرسالة الأولى في الكدس.

أبي العزيز،

أنا في العاصمة. أعتذر كوني جعلتك تحس بالخوف لأني غادرتُ من دون إشعار مُسبَق. لكن كنتُ أعرف أنني

1- المفصلة hinge: تعني بالدارجة العراقية: «نرمادة» – م.

لو أخبرتُك، ما كنتَ لتسمح لي بالذهاب. أرجوك لا تقلق. أنا في مَأمن وبين أصدقائي. لا أعرف من أين أبدأ كي أخبرك بما شاهدتُه في الأيام القليلة الفائتة. إنه لا يشبه البتة أيّ شيء تجرأتُ على تصوّره في أيّ وقت مضى. ليلتي الأولى هنا، وصلتُ بالقطار وكان الوقت متأخراً وأنا في منتهى الإعياء. أخذني سائق سيارة الأجرة إلى الساحة المركزية، رافضاً أخذ نقودي، وهذا شيء أفضل، خصوصًا أن ليس بحوزتي سوى مال قليل كي أدخره. وفيما أنا أترجّل من السيارة، صُعقت. كانت الشوارع منطقة حرب. النيران تشتعل في كلّ حدب وصوب، الأوراق وخزانات حفظ الملفات والأنقاض مُبعثرة في الشوارع والأرصفة، كانت هذه كلّها تُرمى من الشبابيك. آلاف على آلاف من البشر يتحركون دائرياً من دون نظام. مشيتُ طوال مدة بدت كأنها ساعات. من الشمال إلى الجنوب، من الشرق إلى الغرب. كانت الكهرباء التي تخترق المدينة تأتي من الشعب. توقفتُ كي أتحدّث مع أكبر عدد ممكن من الناس. كلّ واحد منهم روى لي جزءاً من القصة التي افتقدتُها. قصة تدور عن الأشخاص الذين قُتلوا. قصة تدور حول هَرَب محمد رضا شاه پهلوي ووصول آية الله روح الله خميني. وفيما أنا أقطع شوارع العاصمة ماشياً لا يسعني سوى أن أصفها كما يلي: يبدو كما لو أنّ البشر هنا هم شخص واحد. من أقصى مناطق البلاد حتى وسط المدينة جمعتهم الأُخوة. كنا ننظر أحدنا إلى الآخر ونعترف بأحدنا الآخر فيما كنا نمر. كنا نعي الشيء نفسه. وفي كلّ وجه من الوجوه التي شاهدتُها، أبصرتُ شرارة القدرة. أعطوني وجبات الطعام، المرطبات، وسقفاً كي أنام تحته. أعطوني الحلوى، أغدقوا عليّ المعانقات والتحيات على امتداد كلّ الشوارع التي مشيتُها، تلقيتُها من الشبيبة والمُسنين، من الرجال والنساء على السواء، من الشمال والجنوب، النساء

اللائي يرتدين العباءات، والرجال الذين يلبسون سراويل الجينز الأزرق.

أبي، هذه الأشياء كلّها أخذت أنفاسي. لم أتخيّل قط أن شيئاً كهذا يُمكن أن يحصل. بدأتُ أؤمن أنه يتعين على المرء أن يمضي إلى مكان آخر كي يبني حياة جديدة، أنّ بلداً له تاريخ يمتد آلاف الأعوام لا يُمكن تغييره، أننا لا نستطيع أن نرى ما وراء اختلافاتنا، لا نقدر أن نصفح عن أعمالنا العدوانية في ماضيات الأيام، لا يسعنا أن نتخلّى عن أهوائنا، أننا لا نستطيع أن نتغيّر. لكن أشاهد ذلك التغيير وأعرف أن مكاني هنا مع شعبي، مع إخوتي وأخواتي.

أرجو أن تعرف أني في أمان. كنتُ أمكث في القسم الداخلي للطلبة الجامعيين. يوجد نشاط عارم هنا وبعض الطلبة الذين قابلتُهم في الشارع أبدوا تجاهي قدراً كبيراً من الحفاوة والضيافة العميقة. النوم مستحيل! ليلاً ونهاراً، نبقى صاحين نناقش كلّ الأشياء التي نريد أن نفعلها في إيران الجديدة الجميلة هذه. البارحة فقط جلستُ إلى العشاء مع عدد من الطلبة، أحدهم شيوعي، وطالب آخر في معهد لاهوتي. وثمة طالب آخر رجع تواً من باريس. ثمة اختلافات كثيرة في الأفكار إلا أننا جميعاً كنا متفقين على شيء واحد، وهو أنّ مصيرنا في أيدينا.

البارحة، بدأنا نصنع الملصقات والنشرات الإعلانية. رسمنا خططاً لاتحادات الطلبة والعمل جارٍ للبدء بإصدار جريدة تنشر الأخبار والمعلومات في جميع أرجاء البلاد. أنا شخصياً حاورتُ رجل دين شاباً كان جالساً في اجتماعاتنا، اجتماعات الطلبة. إنه شخصٌ لطيف وكان مبتهجاً جداً بالمستقبل شأنه شأننا. قضينا الوقت مع جماعته وتحدثنا من دون كلفة وبصراحة عن الشؤون التي تخصنا وتؤثر فينا جميعاً. بعضهم كان قلقاً من التدّخل الخارجي، وهو شيء

مُتوقّع، إلا أنني أعتقد، بما أننا اجتمعنا معاً، أنّ هذا سيكون مستحيلاً، لن يحصل من جديد. الماضي هو الماضي. نحن متأهبون لأن نقرر مستقبلنا نحن.

هذا الخريف، أود أن أنتظم في الجامعة. أنا ونسرين بوسعنا أن نُقيم هنا في شقة صغيرة أثناء السنة الدراسية ونأتي إلى المنزل أثناء العطلات والاستراحات طويلة الأمد. أفكّر بأنّه سيكون من الحكمة، بالنسبة إليها، أن تلتحق بالجامعة هي أيضاً. ما إن أنهي دراستي الجامعية حتّى أريد أن أعمل في نيساپور مع فرق هندسية محلية. في ذهني مشروع للكثبان الرملية. إنه شيءٌ كنتُ أفكر فيه على مدى أعوام، وفي اعتقادي أنه بما إنني أمتلك تعليماً جيداً والإمكانات الجديدة أمامنا سأكون قادراً على إدراكه، إلا أنني أسابق نفسي. يلزمك أن تغفر لي. أنا سعيد إلى درجة فظيعة! من فضلك بلّغ تحياتي للجميع، وبخاصة نسرين. لا تقلق، أنا هنا بين أفراد أسرة أيضاً.

ابنك،

مجيد

أبي العزيز،

أتمنى أن تصلك رسالتي هذه بينما أنت وأفراد الأسرة بأفضل حال. أجلس هنا في غرفتي بالمسكن الجامعي، أكتب إليك على ضوء شمعة. الجميع نائمون ويُخيّم سكون غير مألوف. إنها أول فرصة لي كي أجلس وحيداً وأفكر بعد دوامة السنوات القليلة الفائتة. اليوم ليس يوماً طيباً جداً. في جريدة الصباح ثمة صور فوتوغرافية لضباط عسكريين رفيعي المستوى نُفذت بحقهم عقوبة الإعدام، جثثهم مطروحة بهيئة طابور في ساحة السجن. صدمتني القسوة والوحشية. كنتُ

أتوقع محاكمات علنية مناسبة تُخاطب مَظالم الشعب، وتعاين إلى أيّ مدى يُمكن أن يُسمح لهذه المَظالم بالاستمرار. من المستحيل أن تبني منزلاً على أساس يائس. كان هنالك بعض الموظفين ممَن استقالوا أثناء الاحتجاج أو صُرفوا من الوظيفة. أشخاص أعرفُ عملهم وسمعتهم خيرَ معرفة. إنها خسارة كبيرة بالنسبة إلى إخوتي وأخواتي، وخسارة لي. وأنا ألوذ بالفكرة القائلة إنه بينما من الجائز أن يكون التغيير مشوّشاً في بعض الأحيان، فإنّ النكسات لا يُمكنها أن تُعرقله نهائياً. آخرون يؤيدون هذا الرأي. أمضيتُ معظم يومي هذا جالساً إلى طاولتنا خارج الجامعة، أتكلّم مع المارة الذين يقفون كي يطالعوا كراريسنا. كانت هنالك بعض التقارير عن العنف تجاه الناس في أنحاء العاصمة إلا أنها متشتتة. ثمة فتاة هنا في القسم الداخلي أُوذيت بنحو خطير من لدن زمرة يزعمون أنهم مدافعون عن الأخلاق. رموا الحامض في وجهها، وأتى أبواها وأعاداها إلى المنزل.

العنف عدو فعال، يا أبي. إذا سمحت له بأن يملأك بالخوف عندئذ سيضيع كلّ شيء. إلا أننا نقف صامدين، ثابتين. نحن نعرف أن السواد الأعظم من الناس يقفون إلى جانبنا وسوف نضغط. أرجوك لا تقلق. أنا وسط أسرة هنا.

ابنك،

مجيد

أبي العزيز،

أنا متأسف، مرّ وقت طويل جداً قبل أن تُتاح لي الفرصة كي أكتب إليك مجدداً. كانت هنالك مداهمات على الطلبة في الأقسام الداخلية. لا مبرر للقلق. أنا على ما يرام. لكنهم أخذوا معهم عدداً غفيراً من الطلبة. نحن نقضي معظم وقتنا

نستفسر عن أمكنة وجودهم في السجن والمستشفيات غير أن جهودنا باءت بالفشل. إنه لشيءٌ مُحبِط. أنا قلق على أصحابي. الوضع غير مريح في الأقسام الداخلية. بعض الطلبة بدؤوا يشكون بأنّ ثمة مُبلِّغين بيننا، لكنْ لأيّ جهة؟ لا أفهم تماماً ما الذي يحدث فعلاً. أرجوك لا تقلق. أنا وسط أسرة هنا.

ابنك،

مجيد

أبي العزيز،

أقف اليوم في طابور ومنذ ساعات عدّة كي أقترع. إنها أول مرة في حياتي أدلي بصوتي في الانتخابات. لمّا وصلتُ إلى المبنى ودخلت، تسارعت دقات قلبي فرحاً. لكن أبي، لمّا حصلتُ على ورقتي، كانت الورقة تقول: جمهورية إيران الإسلامية، نعم أم لا؟ لا أفهم تماماً ماذا يجري.

ابنك،

مجيد

أبي العزيز،

السجادة التي أتيتُ من أجلها إلى العاصمة لم تكن كما تنبأت. الزخارف الوسطية لا تنسجم مع تلك الزخارف الموجودة في الدائرة المتوسّعة. أحد الأشكال الوسطية يستحوذ على البقية ويسبب اختلالاً في التوازن في التصميم بأسره. في حقيقة الأمر، لدى المعاينة من كثب، أدركتُ أنه كان قد اكتسح ما كان بخلاف ذلك تصميماً واعداً جداً. من سوء الحظ أنّ تصميماً جميلاً كهذا قد أُدرِك بنحو إجمالي

جداً لكن ماذا يقدر المرء أن يفعل؟ ليست كلّ الأفكار الكبرى التي يتصوّرها المرء يُمكن أن تصل إلى مرحلة التحقق. كما ناقشنا من قبل، غادرتُ كي آتي إلى هنا من أجل هدف فريد وهو شراء هذه السجادة وبما أنها ليست السجادة التي كنتُ أفتش عنها، سأعود إلى المنزل في القطار التالي. ربما سأكون قادراً على أن أجد سجادة مناسبة أكثر في مدينتنا.

ابنك

طوى شازديپور الرسائل ووضعها في حضنه. كان السكون يخيم على الغرفة. بذل جهداً كبيراً كي يلتقط أنفاسه. كان قد نسي إلى أيّ مدى كان يضايقه أن يفتح صندوقه الخشبي. شرع يدور حول الغرفة إلا أنّ هذا لم يؤدّ إلّا إلى تسارع أنفاسه. أمست الوحدة أشد. كان يريد أن يرى أشخاصاً آخرين. لم يكن بمقدوره البقاء في الغرفة لحظة أخرى.

خلع سرواله ولبس من جديد بذلة الحليب والسكر، ودسّ قدميه في حذاء من دون أربطة.

توجه مباشرة إلى الردهة، متوقفاً عند الباب. زرّر سترته. أغمض عينيه وتنفس الصعداء، ومسّ العرق البارد على جبينه. كلّ شيء سيكون على ما يرام ما إن يكون في صحبة أشخاص آخرين، حتى لو كانوا غرباء.

الجامعة

«مَن أنت؟» قال الرجل الذي وقف قرب مجيد، مائلاً عليه ومقترباً من وجهه. مجيد، معصوب العينين، يداه مكبلتان وكذلك قدماه، كان يجلس على كرسي في حجرة بلا نافذة. كان بوسعه أن يحس بأنفاس الرجل على وجهه، ما جعله يرتجف. إلا أنه تمكن من الإجابة: «أنا طالب جامعي».

وقف الرجل منتصب القامة واستدار ويداه معقودتان خلف ظهره. مشى خطوات وعلى حين غرة استدار، اندفع بقوة على مجيد وصفعه على وجهه، ورماه من الكرسي. كان ثقل مجيد كلّه قد وقع على كتفه وخلعها بقعقعة صامتة. زعق. مال الرجل إلى الأمام ورفعه من على الأرض من ياقة قميصه. بدأت عضلات ذراع مجيد تتشنج وغطت طبقة خفيفة من العرق وجهه. حاول جاهداً أن يبتلع لعابه لكنّه رال.

كان الرجل يذرع الغرفة جيئة وذهاباً بروية ويداه معقودتان خلف ظهره. كانت فردتا حذائه مزودتين بصفائح معدنية صغيرة في الكعبين كتلك التي كان ينتعلها أحد نجوم السينما في ثلاثينيات القرن العشرين. مشى نحو الباب وقرعه مرات عدة. دخل رجلان. سارا حتى وصلا إلى مجيد ورفعاه من على الكرسي من مرفقيه. تذمّر ألماً، كتفه تنبض. «سوف نواصل هذا الحوار عاجلاً جداً»، قال الرجل.

الغثيان يتصاعد في صدره، تعثر مجيد بقدم بيت سلّم. ارتقى الدرجات بنحو أعمى، حاول جاهداً أن يجاري الرجلين عند مِرفقيه. بغتة كان هنالك جدار. ومن ثم بات الدم ينضح من جبينه فيما كان الرجلان يقهقهان. «شاهد إلى أين نحن نتّجه»، سخر منه أحد الرجلين فيما كانا ينعطفان. أحس بأنه دائخ، مشوَّش الذهن، وشرع يجرّ قدميه محاولاً أن يجاريهما.

صلصلت المفاتيح وفُتح قفل باب. فُكّ بُعنف الحبل الذي يقيّد يديه، مُخلّفاً خدوش مسمار على رسغيه. وبعدها نُزعت عصابة العينين. في الضوء الخافت، كانت رؤيته ضبابية. دفعاه إلى داخل زنزانة، أوصدا الباب بقوة وراءه. وقف هناك فيما كانت رؤيته تتأقلم، مكتشفاً أنّ هناك رجالاً عدّة يجلسون منحنين بتذلل على الأرض.

جميعهم نظروا إليه. «لقد خلعتَ كتفك»، قال أحد الرجال. «تعال، سوف أصححه لك».

وقف مجيد هناك يرتعش من التشنجات في ذراعه.

قال رجل آخر: «دعه يصححه. إنه طبيب».

وفيما هو يحاول، لم يتمكن مجيد من التحرك. كان الدم ينزّ من جبينه، ويسيل على خديه مثل دموع سود.

مشى الطبيب بتؤدة إليه، مدّ يده إلى كتفه، غير أن مجيداً انسحب بعيداً منه. تكلّم الطبيب من جديد، صوته هادئ ووديع: «لا بأس. لن أؤذيك».

أرخى مجيد وضعه بأفضل صورة ممكنة، وعينه ترفرف جرّاء الدم. فك الرجل أزرار قميص مجيد وبرفق زحلقه خارج كتفيه وأومأ للرجلين الآخرين كي يساعداه. التفت إلى مجيد وخاطبه قائلاً: «أريدك أن تستلقي بصورة مستقيمة».

ساعد الرجلان مجيداً في التحرك نحو الزاوية. تناول الطبيب ملاءة سرير ولفها تحت إبط مجيد. أومأ للرجلين الآخرين. تناول أحدهما ذراعه المخلوع فيما جلس الآخر على رِجليه، ممسكاً بالذراع الأخرى نحو الأرض. قبض الطبيب على الملاءة ومال على مجيد وانبرى قائلاً: «سيكون الألم مُبرّحاً إلا أنه سوف يتضاءل بسرعة».

معتمداً على الرجال الثلاثة اتكأ إلى الوراء، وسحب الملاءة نحوه فيما كان الرجل الآخر يسحب ذراعه من جسمه، وقد ظل الرجل الثالث ضاغطاً على مجيد باستمرار من دون أن يَدَعه يتحرك. بطقطقة، انزلق عظمه عائداً إلى وضعه الصحيح. ترك الطبيب الملاءة ونهض الرجل الجالس على مجيد. سَرَت رعشة عبر جسم الأخير، واستدار صوب الحائط وتقيأ.

مال عليه الطبيب. «هل زال الوجع؟».

أومأ مجيد برأسه علامة الإيجاب.

ساعده الرجلان على الجلوس وغطيا قيأه بخرقة. انضم إلى حلقتهما وأحصى أربعة أشخاص، بمَن فيهم الرجل الذي لم يتحرك كي يساعده. كان وجهه مختبئاً وراء الظلال ورِجله المرفوعة للأعلى. كانت مسبحته تطقطق في يده، وغير مرئية في العتمة.

كانت الزنزانة رطبة وشديدة البرودة إلا أنها كبيرة، كما لو أنّ المقصود بها أن تسع مزيداً من المُعتقلين[1]. كان الرجال الأربعة قد سعوا إلى خلق مَسكن مُبجل. كانت بطانياتهم مبسوطة كالأسرّة. ثمة ملاءة تطوّق الدلو الذي كانوا يستعملونه كمرحاض. كانت أكوابهم وأطباقهم ممدودة على ملاءة أخرى كانوا قد ارتجلوها بوصفها سُفرة، وكتبهم القليلة مكدّسة إزاء الجدار، جنباً إلى جنب مع عدد قليل من أقلام الحبر وأقلام الرصاص.

عصر الطبيب قطعة قماش رطبة على جبين مجيد كي ينشّف الدم. رفع سبابته إلى الأعلى وحرّكها، وأبلغه بأن يتبعها بنظراته. «هل تشعر بأنك دائخ؟» سأله.

«لا»، أجاب مجيد.

«من الأفضل أن تبقى صاحياً برهة من الزمن لمجرد أن نتأكد. الورم في رأسك ذو أهمية كبيرة».

«أشعر أني على ما يرام».

اعتدل الطبيب في جلسته، وراح يبتسم لمريضه، قائلاً: «مرحباً بك في الجامعة».

قهقهوا جميعاً، وابتسم مجيد، مرتبكاً. «ماذا تعني؟» قال له.

اقترب الرجل الذي كان جالساً في الركن البعيد. «نحن نسمي زنزانتنا [الجامعة] لأنه دكتور». أشار بإصبعه إلى الرجل الملاصق. «إنه كاتب». وأشار إلى الرجل التالي. «إنه مؤرخ». وبعدها أشار إلى نفسه. «أنا رجل دين جُرِّد من وظيفته».

1- المُعتقلين: استعملت الكاتبة كلمة «أسرى captives» إلا أننا آثرنا استعمال كلمة «مُعتقلين»، كونها مناسبة أكثر - م.

مسح بيده عبر الزنزانة. «وهذا مكان التعليم العالي».

«مَن أنت، يا فتاي؟» سأل الطبيب.

«طالب جامعي».

«أنتَ إذاً أتيتَ إلى المكان الصحيح».

قهقهوا كلّهم وشعر مجيد قليلاً أنه أشبه بنفسه ثانية. سأل رجل الدين: «أتعرف كم الوقت الآن؟».

«لا. هذا شيء لا يمكنك أبداً أن تكون متيقناً منه هنا».

«ماذا يريدون منا؟».

«لا شيء».

«لماذا نحن هنا إذاً؟».

«كي نُكسَر. إنهم يعرفون مثلما نعرف نحن بأننا نشكّل تهديداً لسلطتهم. هم أيضاً نجوا في يوم ما من هذه الجامعة نفسها».

«مَن هم؟».

«هم نحن».

انقضت ساعات عدّة فيما كان الرجال يُخبرون مجيداً بشأن العمل الدوري للحراس، الجولات الليلية، و«قسم 209» الرهيب، حيث يُمكن سماع صرخات الألم المُبرّح عبر الليالي التي تنزف في النهارات، والنهارات التي تعاود النزيف في الليالي. الزمن حالة راكدة من العتمة، التوقّع والذعر، الأسر والخضوع. توّقع مجيد أن «القسم 209» هو المكان الذي احتجز فيه. هل سمعوا صرخاته؟

دنا من رجل الدين، فُتن بوجوده في السجن. «حاج – آغا»، سأله: «لماذا أنت هنا؟».

بدا رجل الدين مستمتعاً: «تعتقد لأني رجل دين فأنا واحد منهم؟».

«حسناً، تصوّرت...».

«ثمة مدرستان فكريتان بين رجال الدين: أولئك الذين يؤمنون بأنهم سيخلقون دولة قائمة على مبادئ العقيدة، وأولئك الذين لا يؤمنون أن هذا ممكن وأنه يتعين علينا ألا ننخرط في قضايا الدولة. المذكورون في الأخير كانت نهايتهم أنهم اغتيلوا، نُفوا... وأُودعوا السجون».

انهمك مجيد في التفكير على مدى لحظات قليلة، ثم تمنى ليلة هانئة لرجل الدين. مشى نحو زاوية الزنزانة حيث كان المؤرخ قد بسط بطانية له. ظل يقظاً يحدّق في العتمة إلى أن انزلق إلى داخل حلم يقظة كان يقف فيه على مستعمرة نمل، طابور من الأجسام السود النظامية من دون تمييز، تتحرك في انسجام، تدلّت قدمه عليها.

***

«مَن أنت؟» سأل الرجل فيما كان يقف بجانب مجيد، مائلاً عليه ومقترباً من وجهه. جلس مجيد على الكرسي عينه، في الحجرة عينها، مُقيّداً ومعصوب العينين. لم يتكلّم إلا أنه وتّر نفسه وجهّز نفسه لضربة على الصدغ لم تصل أبداً. كان بمستطاعه أن يسمع وقع قدميْ الرجل وهي تقرع الأرض وهو في طريقه إلى الباب، يفتحه ويسدّه. جلس هناك بمفرده طوال ما يبدو أنه ساعة، لم يكن باستطاعته أن يتأكد. كان رفاقه في الزنزانة قد شاركوه ما عانوه أثناء جلسات الاستجواب. وضع السجائر المشتعلة على الأفخاذ العارية، السياط على كعوب الأقدام، اللكمات على الوجه، السيور الجلد التي كانت تحتك بوعاء الخصيتين، الأمر الذي يُسفر عن وجع مُبرّح جداً بحيث أنّ أحدهم فارق الحياة. يُكدّس الماء البارد كالثلج على الرأس كي يُصحي المرء، لمجرد أن يخضَع للمزيد. أكثر الأشياء التي لا تُطاق هو ألا تكون قادراً على رؤية أو معرفة متى تأتي الضربة أو اللكمة، والصمت الذي يحل حين لا يُوجه إليك سؤال واحد ربما يُنهي جوابُه العذابَ الأليم.

فُتح الباب مجدداً. قلب مجيد بدأ يخفق ثانية. كان يجلس هناك في الظلام، رئتاه تضغطان على صدره فيما هو يبذل مجهوداً كي يلتقط أنفاسه، الدموع تجري على خدّيه. بدأ الرجال يضحكون فيما كانوا يوبخونه بطريقة ساخرة. قال أحدهم: «أووو، لا تبكِ. أأنت خائف؟ ما الذي تخاف منه؟».

كان خوف مجيد قد أفسح المجال للغضب. تنفّس بصعوبة، حاول جاهداً أن ينتزع يديه وقدميه من قيودهما.

«أووه، لقد تملّكه الغضب»، قال رجل جديد. «هذا شيء جيد. هذا شيء جيد جداً».

كان مجيد يغلي ويودّ تقريباً أن يضربه أحدهم. صرخ قائلاً: «هيا! افعل ما تشاء. أنا لا أبالي. بوسعك أن تقتلني إذا شئت. أنا لا أبالي!».

بدأ مجيد يتخبط على الكرسي وهوى. ظل راقداً هناك، على الأرض الإسمنتية، على جنبه، وهو لا يزال مشدوداً إلى كرسيه. غمر السكون الغرفة. أحس مجيد بأنفاس المُحقِق على أذنه. «لن يقتلوك»، قال. «لن يجرحوك أو يكسروا عظماً واحداً في جسمك. لا. وهم حتى لن يضربوك».

قبض على مجيد من ياقته، رفعه مع الكرسي وهو جالس عليه، ومرة أخرى قرّب وجهه من وجه مجيد: «سوف يفعلون بك شيئاً أسوأ وسوف تتمنى لو أني قتلتك».

سمع وقع قدميْ المُحقق وهو يتوجه نحو الباب. سمعه يهمس لتابعه الأمين ومن ثم الباب وهو يُسَد بقوة خلفه. أعقبت ذلك ثوانٍ من السكون وبعدها سمع فتح إبزيم حزام وعرف أن المُحقق كان على صواب.

أفاق من نومه في زنزانة أربعة X ستة في الوضع الجنيني، وحيداً. كان الظلام دامساً باستثناء بصيص من النور تسلل من شباك عال، وطوال لحظة موجزة أحس بأنه منتصر لكونه قادراً على تمييز النهار من الليل. لم يكن هنالك شيء في الزنزانة باستثناء دلو لنفاياته وبطانية سلكية رطبة بجانب رأسه. تحرّك كي يجلس وشعر بألم شديد ينبعث عبر أحشائه. اضطجع من جديد. لمس شرجه وتحسس الدم ورفع يده نحو بصيص النور كي يتأكد من أنه دم، وكان فعلاً كذلك. شرع يبكي برقة ورفق، تأرجح على الأرض الخرسانية إلى أن أسلم عقلُه المجال إلى اللاوعي.

استيقظ فجأة، رافعاً نفسه بواسطة ذراعيه. كان ثمة كوب وطبق معدنيان في داخل زنزانته. مال إلى الأمام وتشمم الكوب. كان كوب ماء. كانت الغميسة[1] الباردة، الشبيهة بالمخاط على الطّبق، تعبق برائحة الشوفان. وفيما هو يرنو ببصره إلى الشباك، تساءل مع نفسه كم طول المدة التي قضاها نائماً. عندئذ فقط أدرك أن الضوء غير طبيعي، وغير متبدل. نكّس برأسه بهزيمة صامتة.

1- الغميسة sop: قطعة من الخبز تُغمس في سائل قبل أكلها - م.

لا يسعه أن يجزم ما إذا مضت ساعات أم أيام. إن الشيء الوحيد الذي كسر الصمت والرتابة هو الحراس وهم يجلبون وجبات طعامه. بعد أن نام خلال أولى هذه الوجبات، ضبط عقله على فصل النهارات عن الليالي من خلال الطعام الذي كان يُقحم في داخل زنزانته. غير أن وجبات الطعام كلّها هي وجبة إفطار. كانت الوجبة الأولى عصيدة، وبعدها خبز سيئ المذاق وجبن متعفن، ومن ثم بعض الحليب مع الخبز اليابس، وعقب ذلك عصيدة ثانية. تعاظم إحباطه. قرر أن يخاطب الحارس عند زيارته التالية.

لمّا سمع باب القاعة يُفتح، هرع إلى القضبان وانتظر. جاء الطبق يقعقع ونادى على الحارس إلا أن الحارس كان قد مضى أصلاً. حدّق في الطبق. كان طبق عصيدة. قذفه على الحائط وصرخ.

استعمل خنصره المُضرّج بالدم كي ينظف أظافره الأخرى، ومن ثم استعمل شيئاً من ماء الشرب العائد له كي يغسل وجهه. فتح بطانيته المطوية، وعلّقها على القضيب الأفقي في وسط بابه كي يجففها. كان الهواء رطباً وظلّت البطانية جيدة كما هي. ببطء، راح يذرع الزنزانة جيئة وذهاباً ويتلو القصائد، المعادلات الرياضية، والفروض المدرسية عن ظهر قلب. أنشد الأغاني. وحتى رقص. روى النكات لنفسه وضحك على قوة سطورها الآسرة. جلس في الركن، بعيداً من الضوء الموضعي، ولمس نفسه فيما هو يحاول أن يستذكر كلّ جزء من أجزاء وجه نسرين وجسمها، إلا أنه لم يستطع أن يحصل على انتصاب ولهذا حاول أن يتذكر ولعها، كيف كانت تحس حين يلمسها، يتذكر حركاتها، وحتى تخيّلها تنحني عارية... إنما بلا طائل. بدأ يشعر أنّ ثمة مرضاً في معدته وراح يتقيأ. روى حوارات كاملة كان قد عقدها مع أشخاص كثيرين عبر سنوات حياته. بعضها أعاد تحريرها على وفق ما يشتهي. توقف وأبدل الكلمات أو تصريفات الأفعال، بعدها، ما إن اقتنع، حتى انتقل إلى المَشهد التالي.

وفي النهاية وصل صرصور إلى زنزانته، وبابتهاج رحّب به، وضعه في مركز حرج على الجدار. طوّقه بين يديه اللتين اتخذتا شكل كوب وجلبه إلى زاويته، ودعم الحشرة الضارة سيئة الطالع ببطانيته. كشط كمية صغيرة من

العصيدة القديمة من على الجدار وتركها عند أقدام الحشرة. «هيا». «هذه كلّها ملكك».

الحشرة ببساطة ذبذبت مجساتها. ثم تسلقت كتلة العصيدة وبدأت تتغذى. ابتهج مجيد، قفز، عيناه مغرورقتان بالدمع. خاطب الصرصور قائلاً: «أجل، صاحبي! استمتع بالغذاء بقدر ما يُرضي قلبك!».

سمّى الحشرة «عبدي»، وراح يضحك كلّما ينطق بالاسم بصوت عال. كان «عبدي» هو اسم أحد أصدقائه في المدرسة أمضى معه ساعات طوالاً يناقشان أنواعاً متنوعة من الهندسة، من الهندسة البيئية والإنشائية إلى الهندسة الغامضة، مثل أنثى لم تُجرَّب بعد.

كلّ نهار وليل، على مدى ساعات، كان يتكلّم مع عبدي الصرصور عن محنته في داخل الجامعة: كيف أنه اشتاق إلى أصدقائه الجُدد وكم تمنى أن يكون في زنزانتهم، كيف أنه تحرّق شوقاً إلى حياته هناك في الديار. وصف، بتفصيل كبير، جمال ودفء زوجته المرتقبة. روى بعض النكات لعبدي ضحك عليها هو وحده وطرح عليه أسئلة بلاغية مثل «أتساءل: هل تملك الحشرات آذاناً؟» و«هل تراني كما أنا أم أنني موشور؟»، عارفاً طوال الوقت أنه صرصور هذا الذي يتحدّث معه، مختتماً كلّ مونولوج بالفقرة القائلة: «قد أكون يائساً، عبدي، إلا أنني لستُ مخبولاً».

استيقظ مجيد من نومه فجأة. اختفى عبدي. فتش في كلّ بوصة من الزنزانة لكن في الختام تجلّى الأمر: إنه وحيد ثانية. بدأ ينتحب على فقدان صديقه الوحيد. استذكر الوقت الذي أمضياه معاً، مستذكراً كلّ حوار من حواراته مع عبدي، معيداً تحريره في باله بنحو يروقه أكثر. وبخ نفسه لأنه لم يقل أشياء معينة يدرك الآن أنه كان يتعين عليه أن يقولها، غير أنّ كلّ فكرة هي فكرة خطرت بباله أصلاً وبدأ يرتعب من أن تفكيره قد انتهى، إذ لم تعد لديه أفكار جديدة ولن يمتلك مزيداً من الأفكار بعد الآن ورجع إلى البداية وأحس أنه كالمغفل لأنه يُعيد التفكير في أفكار مستعمَلة وانتهى نوعاً ما من جديد في فكرته الختامية، وفي النهاية استسلم إلى نوع من فقدان الوعي المسعور كان يعرف أنه جنون.

مرةً أخرى، استيقظ من نومه فجأة. رفعه حارسان من ذراعيه وسحباه إلى خارج الزنزانة وأخذاه إلى القاعة. فُتحت الأبواب على وسعها وأحرقت أشعة الشمس وجهه. أغمض عينيه نصف إغماضة كي يحاول أن يضبط عينيه. كان في فناء، حيث حوشٌ إسمنتي واسع من دون سقف. قاس الاتجاه الرئيس بواسطة الشمس. من خلال الظلال التي رمتها عرف أنّ الوقت قريب من الظهر. ابتهج. لقد عرف الوقت.

جرّه الحراس إلى الناحية البعيدة من الفناء ورفعوه وجعلوه يقف إزاء الجدار بجانب سارية خشبية.

بعد مضي لحظات قليلة فُتحت الأبواب مجدداً وخرج عددٌ أكبر من الحراس، وهم يجرّون رجلاً، رأسه مُنكّس، رِجلاه مجذوبتان. أسقطوا الجسم الخالي من الحياة تقريباً بجوار مجيد. كان الرجل قد أُشبع ضرباً وكانت ندوبه فاضحة. رفع رأسه ورأى مجيد أنه الدكتور. ابتسم للشاب وسأله: «كيف حال كتفك؟».

بوغت مجيد: «هل أنت بخير؟».

«وضعي الآن لا أُحسد عليه»، قال الطبيب، وقهقه.

رفع الحراس الطبيب، أوقفوه إزاء السارية، وشدوا يديه خلفها.

فُتح الباب ثانية ومشى المُحقق على مهل نحو مَسرح الحدث. كانت الصفائح المعدنية في نعل حذائه تتردد أصداؤها عبر الأرض الإسمنتية للفناء. كان أقصر مما تصوّره مجيد. كانت الصفائح المعدنية في النعل قد منحته أهمية. ربما لهذا السبب كان ينتعلها. وضع ذراعه على كتف مجيد، الكتف التي خُلِعت، واصطحبه حول المحيط. كانت عينا مجيد ترتجفان عند كلّ قرعة من حذائه.

«قل لي شيئاً، يا شاب»، بدأ المحقق كلامه، «كم عمرك؟».

«ثمانية عشر عاماً».

«آه، أتذكر هذا العمر. كلّ ما أستطيع التفكير فيه هو الفتيات! إنه عمر طيب». هل لديك فتاة؟

«لا».

«هيّا، ينبغي أن تكون هنالك فتاة واحدة في الأقل، لا؟».

«لا»، قال مجيد. كان خائفاً من أن الرجل يستطيع أن يقرأ أفكاره وحاول أن يمسح نسرين منها. «لا. ليس لديّ فتاة واحدة. أُقسم».

«إنه شيء جيد، إنه شيء جيد. باستطاعتك أن تسترخي. ستكون على ما يرام. لن يحدث لك شيء أو لفتاتك. ثق بكلامي. لن يحدث لك شيء وحتى لفتاتك. أَعِدك. بشرفي، أَعِدك». تكلّم بتوكيد ويدٌ واحدة على قلبه ثم سأل فوراً: «هل ترغب بالذهاب إلى الديار كي تقابلها؟».

وقبل أن يتمكنَ مجيد من التفكير، قال: «نعم».

«آآ، أنت إذاً لديك فتاة! كنت أعرف هذا». ما اسمها؟

مجيد الآن يحس بالفزع ويكاد يهمّ بالبكاء فيما هو يقول: «أرجوك، سيدي».

«هيا، الآن. أخبرني عن اسمها».

عصر كتف مجيد. أغمض الأخير عينيه بيأس وقال: «نسرين».

«آآ، نسرين الجميلة. هي جميلة، على ما أعتقد؟ نعم، نعم، بالطبع هي جميلة. نسرين، الوردة البرية. اسم جميل. نسرين الجميلة».

كانا قد مشيا محيط الفناء كلّه وهما الآن يعودان إلى المكان الذي بدآ به. بدا الطبيب مُنهكاً، بدا تقريباً كما لو أنه يكاد ينهار. أومأ المحقق برأسه إلى أحد الحراس. أخرج هذا الحارس مسدسه من الحافظة، استدار كي يفحصه، وبعدها مشى نحو مجيد ورفعه ووجهه إليه. نظر إليه الشاب في عدم تصديق، بينما كان المحقق يميل عليه ويقول: «أريدك أن تأخذ هذا المسدس وتطلق النار على هذا الرجل».

نظر مجيد إلى الطبيب مصدوماً وانبرى قائلاً: «لا، لا. لن أفعل شيئاً كهذا».

أدار المحقق مجيداً كي يواجهه ويقول له: «ستأخذ هذا المسدس وستطلق النار على هذا الرجل. وإذا لم تفعل، سأقتلك وأزور فتاتك نسرين الجميلة».

«لا، أرجوك. إن أردتَ أن تقتله أو تقتلني، أنت الذي تفعل ذلك. أرجوك، لا أستطيع».

«إما هو أو فتاتك. أنت من يختار».

حدّق مجيد في الطبيب الذي ابتسم له وخاطبه قائلاً: «لا بأس. افعلها. أنا ميت أصلاً. لا بأس».

كان مجيد يرتعش فيما هو يقول: «لا أقدر».

«لا تكن مغفلاً»، استطرد الطبيب، «سوف يقتلوني في كلّ الأحوال. لا تضحِّ بحياتك وحياة امرأة في مقتبل العمر. من فضلك لا تضع هذا في بالي. أتوسل إليك».

تناول المحقق المسدس من الحارس ووضعه في يد مجيد. لم يسبق له أن أمسك بمسدس. إنه أثقل مما تصوّر. تفرّس فيه. جهز المسدس له ورفع ذراعه، موجهاً إياه صوب الطبيب. أحس مجيد أنّ الدموع تسيل على وجهه فيما هو ينظر إلى الطبيب ويقول: «أنا متأسف جداً. أرجوك سامحني».

ابتسم الطبيب وخاطبه قائلاً: «لا بأس، أيها الشاب. لا بأس».

هزّ مجيد رأسه وقال: «لا أقدر. لا أقدر».

«افعلها!» صرخ المحقق. حدّق مجيد في عينَي الطبيب، ابتسم، وأدار المسدس إلى نفسه، ودفعه فوهته تحت حنكه ورفع بصره إلى السماء الخالية من السُحب في الأعلى. أطلق تنهيدة وسحب الزناد.

لا شيء.

كان خالياً من الرصاص. جميعهم بدؤوا يضحكون ما عدا مجيداً والطبيب. ضحك المحقق بأعلى الأصوات، وكانت أصوات الصفائح المعدنية في نعل حذائه يتردد صداها عبر الفناء. صفع مجيداً على ظهره، وعقب ذلك قال: «إنك لا تستطيع أن تتدبر قتل نفسك!».

عندئذ أخذ الحارس المسدس من يد مجيد وأعاد تعبئته بالطلقات النارية التي أخذها من جيبه. أمسك المحقق بياقته، تلاشى الضحك من على وجهه كما لو أنه أُطفئ بواسطة نقطة كهرباء. «استمع إليّ، يا فتى»، قال له. «كنتُ أفعل هذا منذ مدة طويلة بما يكفي كي أعرف من أيّ معدن خُلق البشر. أفكارك الكافرة لا شيء أكثر من كلام امرأة. حين تنزل إلى العظم، أنت تنكسر. كلّهم ينكسرون».

نظر إلى الحراس وأومأ برأسه. جرّوا مجيداً إلى الباب. الحارس الذي أعاد تعبئة المسدس رفعه ووضعه على رأس الطبيب. كان هنالك صوت طلقة، ظلام، وبعدها لا شيء.

النساء

جلس شازديپور مع أكبر-آغا في حجرته. رفع أكبر-آغا عينيه عن الرسالة التي في يده. «متى تسلّمتَ هذه الرسالة الأخيرة؟» سأله.

«قبل ثلاثة أيام مضت»، أجاب شازديپور. «كنتُ أذهب إلى محطة القطار يومياً وأسأل الحاضرين ما إذا رأوه من قبل ويبدو أن لا أحد رآه».

«هل كانت الرسالة الأخيرة عن السجادة التي تم التلاعب بها؟».

«لاحظتُ بالفعل المظروف الذي خُتم بشريط لاصق. أيّ واحدة من الرسائل الأخرى لم تكن كذلك. لستُ متأكداً عمَّ كانت تدور قضية السجادة».

«كان يتكلّم كلاماً مُشفّراً. كان يعرف أنه مُراقَب والرسالة قُرئت قبل وصولها إليك. من الجائز أنهم اعتقلوه».

وضع شازديپور رأسه بين يديه وانتحب. لمس أكبر-آغا كتفه. «لا تقلق»، قال له. «سوف أُجري بعض الاتصالات الهاتفية وأعيده إلى المنزل. مع أنه ينبغي لك، أرجوك، ألا تقول شيئاً عن ذلك. بقدر ما يعرف أيّ فرد: هو في العاصمة يُقيم مع أصحابه في الجامعة».

كان غداء العائلة هادئاً ومتوتراً. شازديپور وأكبر-آغا كانا مراراً يُطمئنان الجميع أنّ مجيداً في أمان، غير أنهم جميعاً أحسوا أن ثمة شيئاً خاطئاً. كانت بيبي-خانوم تقف صامتة عند كاونتر المطبخ مع نسرين. انفجرت الفتاة باكية: «لا تقلقي»، قالت بيبي-خانوم. «هو على ما يرام. سيكون في المنزل حالاً».

كانت تُطمئن نفسها بقدر ما تُطمئن الفتاة. هدأت نسرين نفسها ووضعت الطعام في الأطباق الكبيرة بغرض تقديمه، فيما كانت بيبي-خانوم تعد طبقاً للقابلة وتغطيه بقطعة قماش من الكتان. كان حساء اليوم الرئيس هو «حساء

الباميا»[1]، وهو حساء يُعد من لحم الضأن مع الباميا وعصير الطماطم. كانت قد عملت تهديغ مع اللبن الرائب والزعفران، القاعدة احترقت بنحو متساوٍ حتى غدت حمراء ضاربة إلى اللون البني، من الزعفران المكسوة به. نادت على جعفر الذي كان أصلاً في المدخل، يشم ما سيأتي لاحقاً. كان يمسك بدجاجته، مينا. «من فضلك خذ هذا الطبق للقابلة»، قالت بيبي-خانوم، «لا تأكلْ طعامَها. يوجد طعام كثير لك هنا. واتركِ الدجاجةَ في الخم فهو المكان الذي تعود إليه».

أعاد مينا الدجاجة إلى خمّها وعلى وجهه يلوح تعبير متجهم. سلّمته بيبي-خانوم الطبق باليد ودست لقمة في فمه. ظل واقفاً هناك يلوك، وجهه يشع من النكهات. حينئذ فقط مشى بالفعل طريق البستان نحو المدخل، أنزل الطبق كي يفتح الأبواب برفق، وبحذر رفعه من جديد وتسلل عبر الطريق الترابي. سار بمحاذاة أسوار الطوب، هبّت رائحة الطعام القوية وتوجّهت نحو وجهه. الريح، وهي تمر بالبستان، وفي الطريق المفتوح، بدأت تُحدِث تأثيراً، وساعدته كي يقاوم الغواية في أن يزيل جزئياً حافة القماش ويقتطع جزءاً من التهديغ.

جعفر يحب الطعام حباً جماً. وكان يستمتع بتوقع ما كان يُقدّم من زاد، باستهلاكه، وحتى الذكريات المتعلّقة به. حلوى الرز تعدها أمه له خصيصى، يرشّ عليها عصير العنب. حساء الفسنجون[2] تعده في منتصف الشتاء حين يكون البرد على أشدّه. تنتشر رائحة عصير الرمان والجوز في أرجاء المنزل وتجعل اللعاب يسيل من فمه.

ما وراء الكثبان الرملية، يوجد صفٌ من الأكـواخ الحقيرة. ارتقى

1- حساء الباميا: وردت بالفارسية اللفظية في النص الإنكليزي الأصل «خوريشته باميا Khoreshteh bamieh» - م.

2- حساء الفسنجون: وردت بالفارسية اللفظية في النص الإنكليزي الأصل «خوريشته فسنجون khoreshteh fesenjoon». وهو حساء بنكهة عصير الرمان والجوز المطحون وعدد من التوابل، منها: الكركم، القرفة، الهيل، قشور البرتقال، براعم الورد. يُعد هذا الحساء تقليدياً مع الباذنجان والدجاج أو البط. كما يُمكن أن يُعد طبق الفسنجون من كرات اللحم المفروم أو قطع لحم الضأن. هذا الطبق يؤكل في أذربيجان، أيضاً - م.

الدرجات الثلاث المؤدية إلى باب القابلة. وفيما هو يحمل الطبق، طرق الباب وانتظر. ما من جواب. بعد دقيقة، وضع رأسه على الباب كي يصيخ السمع، إنما لم يكن ثمة صوت حركة في الداخل. طرق بصوت أعلى. القابلة لم ترد. مشى نحو النافذة ونظر إلى الداخل. كانت ستائر الدانتيلا مُسدلة لكن كان باستطاعته أن يرى أنها مضطجعة في الفراش. تطلّع إليها، وهو يدق على النافذة. لم تتحرك قيد أنملة. رجع ماشياً إلى الباب وجرّب المقبض. فُتح الباب ووقف على العتبة حاملاً الطبق. لم يكن يعرف ما إذا ينبغي له أن يدخل. قيل له ألا يدخل أيّ غرفة من دون استئذان.

نظر كي يرى ما إذا يوجد شخص ما في الشارع. لم يكن هناك أحد. وقف برهة أطول مُحدّقاً في داخل المنزل. كان حجرةً صغيرة وفيها تنور. أكداس من أرغفة «التفتون» المخبوزة حديثاً تستقر على الكاونتر. أغمض عينيه واستنشق رائحة الهيل والزعفران للخبز المُشبّع بالزبد. لا توجد أشياء كثيرة جداً كي يراها في الداخل لكن ما وُجدَ هناك موضوع بشكل دقيق جداً. ثمة منضدة في الوسط مُغطاة بمناديل مائدة مُحاكة يدوياً وطاس صغير يحتوي على الفاكهة. وثمة كرسي وحيد يواجه النافذة الصغيرة، الوحيدة. لم يكن يعرف ما الذي أعطاه الجرأة كي يحرّك رِجليه إلا أنه توجّه مباشرة نحو الكرسي وجلس عليه، حاملاً الطبق في حضنه وناظراً إلى خارج النافذة، من دون أن ينظر مرة واحدة في اتجاه القابلة. في الناحية الثانية من الشارع ثمة منزل طين من طابق واحد يشبه منزل القابلة، وكانت ثمة امرأة ترتب في الداخل. وراءه يقع الرمل الذي موّجته الريح، ووراءهما، المدينة القديمة، ذات وقار، وذهبيّة تحت الشمس، وما وراء ذلك سهول الصحراء المفتوحة التي تطوّق المدينة بأسرها. بدت السماء ضخمة بالنسبة إليه، فسيحة ومستحيلة. معظم حياته كان مُحاطاً بأسوار البستان الأربعة.

استدار ونظر إلى القابلة. كانت مستلقية هناك طوال الوقت تراقبه. ولمّا تقابلت عيونهما، ابتسمت. جلب الطبق إليها. لوّحت بيدها بأنها لا تريده، فوضعه جعفر على الطاولة ناظراً إليه بتلهف. أومأت إليه أن يجلس بجنبها. غطس، وكانت رِجلاه تتدليان من الكرسي، تمدد القميص القطني بإحكام حول بطنه. لم يتمالك نفسه من النظر إلى كدس أرغفة الخبز. راقبته القابلة،

لم تذبل بسمتها. كانت قد جلبته إلى هذا العالم وراقبته وهو يكبر على مدى عشرة أعوام. أثناء هذا الوقت كلّه، لم يسبق لها أن سمعته يتكلّم ولا شاهدته يتردد إزاء ما يتصل بالملذات البسيطة للحياة[1]: حبه للطعام، حبه الشديد للدجاج، وقدرته على الاندفاع بعيداً من الأشخاص المحيطين به، سعيداً لكنْ بعيداً. كانت قد فكرت، مراراً، أن تخبره مَن هي أمه، إلا أنها دائماً في النهاية، تقرر الامتناع عن ذلك خشية أن تتركه يحمل ذلك العبء. ما هي الفائدة المَرجوة من ذلك؟ المرة تلو المرة، كانت تقنع نفسها بأنها فعلت الشيء الصحيح إلا أنها لم تحس بأنها في حال أفضل. أومأت إلى الخبز. «خذ قطعة. إنه لا يزال ساخناً».

وثب خارج الكرسي ورجع وهو يقضم رغيفاً ليناً، يتصاعد منه البخار. ظهرت غمازتان في خديه فيما هو يلوك الخبز. «إنك تحب أن تأكل»، قالت له.

أومأ برأسه أن نعم وأخذ عضة ثانية.

«أنا لا أبالي بالطعام. أنا آكل دوماً لأنه ينبغي لي أن أفعل هذا». أشاحت القابلة رأسها جانباً بعض الشيء ونظرت عبر شباكها. «إنه منظر بكل معنى الكلمة، لا؟». أومأ جعفر برأسه فيما استأنفت القابلة كلامها. «الأشياء الأقرب إليك هي الأشياء التي لا يمكنك أن تراها». رفعت نفسها وانبرت قائلة: «هل ستساعدني؟ أود الجلوس عند نافذتي».

بجهد كبير، رفعت الأغطية عن رِجليها ووضعت قدميها على الأرض، ودستهما في حذائها المنزلي فيما هي تكافح كي تتنفس. أسندها الغلام فيما هي تتعثر للأمام، ذراعاها تطوّقان عنقه. أمسك بكرسيها بيده الحرة ورفعها فيما كانت تغطس ببطء فيه. تناول شالاً أفغانياً مُحاكاً من سريرها ووضعه على حجرها. مدّت يدها ولمست وجهه وابتسمت. «ربما يتعين عليك أن تمضي وتجد أمك»، قالت له. «وأرجوك خذ الطعام ورغيفاً من الخبز للسيدة الساكنة بالمنزل في الناحية الثانية من الطريق. فقط ضعه عند الباب. لا تدعها تتكلّم معك. وبعدها خذ بقية الخبز إلى أمك».

1- نعني هنا بكلمة «يتردد waver» أنه يبدأ بالشك أو لا يمكنه أن يتخذ قراراً. وبذلك يكون معنى الجملة أنه لم يكن يتواني عن تناول أطايب الطعام - م.

بالطبق وكدس الخبز، اجتاز جعفر الشارع متجهاً إلى الكوخ ونظر خلسة عبر الشباك. كانت السيدة لا تزال هناك. كانت منهكة إلا أنها كانت ملتفة بعباءة ملوّنة. راقب حركاتها السريعة، المتململة على مدى لحظات، وبعدها وضع الطبق مع الخبز عند الباب، طرقه، وسار مبتعداً. وبينما كان يعدو بعيداً، كان بمستطاعه أن يسمعها وهي تفتح الباب وترفع الطبق.

راقبت القابلة المومس وهي تضع الطبق على منضدتها وتستعمل مقصها على الخبز، تقتطع مربعات صغيرة وتلفها بالقماش. تحتفظ بقطع قليلة، مدخرة القطع الأخرى كي تأكلها عندما لا يكون هنالك طعام آخر.

منذ اليوم الذي ولّدت فيه جعفر، تقاسمت القابلة جميع وجبات طعامها مع المومس، إلا أنها لم تنخرط معها في حوار. كانت تترك الأرغفة لدى بابها. كانت تحرص على ألا يلحق المومس أي أذى بعد أن يزورها أحد الرجال. حتى إنها علّمت العاهرة كيف تحمص الخبز في التنور وأبلغتها بأن تأخذ التنور بعد وفاتها كي يكون بوسعها أن تبيع الخبز في ساحة المدينة وتكسب رزقها بمهنة شريفة. متأثرةً، حاولت العاهرة جاهدة، في مناسبات كثيرة، أن تشكرها أو تناقش الجو أو العواصف، غير أنّ القابلة تقاطعها، وتعود إلى أيّ عمل ضروري متاح مهما كان نوعه. كانتا قد انسجمتا معاً، امرأتين وحيدتين موجودتين قريبتين جداً إحداهما من الأخرى في وسط اللامكان، رغم أنّ عالميهما متباعدان.

وقف جعفر في مدخل المطبخ، وهو يراقب ملعقة بيبي-خانوم تنقي الخضار في طاس من أجل غداء الأسرة. أحست أن ثمة عينين عليها. «ما هذا؟» قالت.

سلّمها أرغفة الخبز باليد.

وضعتها على سطح الكاونتر، ومن ثم سألته قائلة: «كيف حالها؟».

هزّ رأسه وفي الحال مسحت بيبي-خانوم يديها، لفت عباءتها فوق رأسها، وخرجت من المطبخ.

أفراد أسرتها تجمعوا حول السُفرة منتظرين أن يأكلوا. «قمر»، قالت بيبي-خانوم. «لنذهب». وتابعت: «أكبر-آغا، أرجوك ابدأ بتناول الغداء.

ربما لن نعودَ من أجل العشاء. ميرزا، من فضلك تعالَ معنا. اجلبْ معك حقيبة الطبيب العائدة لك».

قمر دفعت نفسها إلى الأعلى وتبعتهما، وهي تنادي على نسرين، التي أتت راكضة من وراء صفٍ من الأشجار، فيما هي تمسح وجهها. «إلى أين نحن ذاهبون؟» قالت.

«القابلة»، قالت بيبي-خانوم.

نظرت قمر إلى ابنتها: «هل كنت تنشجين؟».

أجابت نسرين قائلة: «مضيتُ فقط كي أتمشى».

تبعهنّ جعفر، ساعياً إلى مجاراة خطوات النساء السريعة. اختطف ميرزا حقيبة الأوراق العائدة له من كوخه، ولحق بهم في الوقت الذي وصلوا فيه إلى الطريق الترابي المؤدي إلى الكثبان الرملية.

ولمّا وصلوا إلى كوخ القابلة، سمعوا ضربة مكتومة من الداخل. بدأت بيبي-خانوم تعدو صوب الباب. وفيما هي تدخل المنزل شاهدت القابلة قد هوت خطوات قليلة عن الكرسي، من المفترض أنها كانت تسعى للرجوع إلى سريرها. وبينما هي تشاهد بيبي-خانوم، امتلأت عيناها بدموع الندم والخجل.

حمل ميرزا العجوز إلى سريرها، وسارعت النسوة إلى تغطيتها. أحضرت نسرين الكرسي وقربته منه، جلس عليه، فتح حقيبة الأوراق العائدة له، وبسط أدواته الطبية. وضع برفق طرف سماعته الطبية الشبيه بالجرس على قلبها وأشاح وجهه فيما هو يرهف السمع. ثم لفّ ثنية حول عضدها، نفخها، وأرهف السمع من جديد مع السماعة الطبية.

«هل تشعرين بأيّ ألم؟».

هزت رأسها نفياً.

وضع يده على بطنها وضغط للأسفل في الناحية الشمال وانبرى قائلاً: «والآن؟».

هزت رأسها نفياً.

حرّك يده نحو اليمين وضغط نحو الأسفل وخاطبها قائلاً: «والآن؟».

هزت رأسها علامة النفي.

«هل لديك شهية للطعام؟».

ومن جديد، لا.

رفع أسفل الأغطية ونظر إلى قدميها، وانتبه إلى أنهما بدأتا تتورّمان. وقفت المرأتان حول السرير، وشرعتا تتكلّمان مع القابلة، وسألتاها عمَّ تُريده. أخذ ميرزا بيبي-خانوم جانباً. «إنها تحتضر»، قال لها. «ضغط دمها منخفض جداً ونبضات قلبها غير منتظمة. أجهزة جسمها ضعيفة ومختلة. ربما لن تظل حية هذه الليلة. بحوزتي دواء مخفف للألم إذا دعت الحاجة. عدا ذلك، ما من شيء يُمكن القيام به».

«شكري الجزيل، ميرزا-جان»، قالت بيبي-خانوم. «باستطاعتنا أن نأخذها من هنا. يتعين عليك أن تذهب إلى المنزل وتدع الرجال يعرفون أننا سنمكث هنا الليلة. ومن فضلك، خذ جعفر معك».

كانت الشمس تغيب على كوخ القابلة حين استقرت النساء. أشعلت نسرين مصابيح الكيروسين، وضعت واحداً على المنضدة، واحداً بجانب السرير، وواحداً عند النافذة. انتبهت إلى أن العاهرة كانت واقفة عند نافذتها تنظر إلى منزل القابلة. «مَن هي تلك المرأة في الجانب الآخر من الطريق؟» قالت.

اندفعت قمر مسرعة في الاتجاه المعاكس: «ابتعدي عن النافذة. تلك المرأة سوءَة».

كانت بيبي-خانوم جالسة لصق القابلة ومعها منشفة وجه مبللة بالماء الحار والزيت المُعطر. «قمر. هذا يكفي!».

«ماذا، خالتي؟ إنها بغي. هل هذا شيء غير مخزٍ؟».

«إنها إنسانة أيضاً. أين حنانك، أين عاطفتك الإنسانية؟».

التصقت نسرين الآن بالنافذة. تساءلت مع نفسها كم عدد الرجال الذين كانت بصحبتهم. كانت تريد أن ترى ما في داخل منزل المومس، أن ترى فراشها، أن ترى مستحضرات التجميل العائدة لها. أن تعرف ما إذا وقعت في غرام أحد الرجال. أم أنها كانت تخاف منهم. هل كانوا قساة وأجلافاً معها؟ هل كانوا يرونها هي؟ لم تلاحظ أنّ العاهرة تنظر إليها الآن.

«قلتُ لكِ ابتعدي عن النافذة!» قالت قمر.

قفزت نسرين على صوت أمها. أسكتت بيبي-خانوم قمر وعاودت مسح أطراف المرأة التي تعاني سكرات الموت. نظفت وجهها برقة، مشطت شعرها، وثبتت أغطيتها، وطبعت قبلة على جبهتها وأمسكت بيدها. أما القابلة، التي كان اسمها فاطمة، فراحت تراقب بيبي-خانوم طوال الوقت من خلال عينين نصف مغمضتين. «رجاءً، هل سترين إن كانت ستأخذ التنور؟ إنها تستحق أن تعيش حياة محتشمة ولائقة».

أرسلت بيبي-خانوم نظرة مُحبَطة إلى قمر. وبعدها استدارت إلى القابلة وابتسمت قائلة لها: «بعد سنوات طويلة من الآن، حين يأتي الوقت وتغادرين هذه الأرض، أعدكِ، إن لم أكن قد غادرتُ قبلكِ، سأفعل ذلك».

ضغطت القابلة على يدها بأقوى ما تستطيع: «بيبي-جان، إني أحتضر».

«فاطمة-جان، نحن كلنا كذلك».

«صديقتي، لا وقت لدينا لكلام غامض يخفي الحقيقة».

تفرست بيبي-خانوم في وجه صديقتها، مستذكرة أوقات ما بعد الظهر التي لا حصرَ لها، تلك الأوقات التي أمضتها كلتاهما معاً تدخنان النارجيلة وتتشاركان الأسرار والثقة في دخانها الذي يعمي البصر. تذكرت الأيام الأولى بعد وصول جعفر إلى البستان، حين كانت القابلة تُقيم معها، تُريها كيف تعتني بالطفل الصغير الرقيق. تذكرت حب العجوز الذي لا يموت لكلّ الأشياء التي لها صلة بالبنات، سواء أكانت مشابك شعر على شكل حرف U مرصعة بالجواهر أو العباءات بطبعات الزهور. «إنك تموتين وأنا لا أريدك أن تموتي»، قالت. «أنتِ قطعة من حياتي». حوّلت نظراتها عن القابلة، ونكست رأسها فيما هي تستطرد قائلة: «أنا خجولة من أنانيتي».

«لا تخجلي»، قالت القابلة. «إننا نشعر بالراحة حين نسمع الحقيقة».

أغمضت القابلة عينيها. راقبت بيبي-خانوم أنفاسها عسى أن تجد علامات تبدّل. جلبت قمر طبقاً كبيراً من الخبز، الجبن، الخضار ووضعته على المنضدة. فرشت سُفرة على الأرض، ورتبتها لثلاثة أشخاص. جلست نسرين وقمر معاً، في حين مضت بيبي-خانوم إلى ركن الكوخ ومعها

سجادة صلاة القابلة وحجر الصلاة. في تلك الليلة، لم تنخرط في الطقوس المعهودة والوضوء إلا أنها ببساطة سجدت ورفعت يديها إلى الله، وصلّت من أجل نهاية هادئة لصاحبتها المحتضرة، من أجل صحة زوجها، من أجل عودةٍ آمنة لمجيد، من أجل اتحاد سعيد لنسرين ومجيد، في حلّ للحرب الدائرة بين قمر ومحمد، من أجل قمر كي تحتفظ بحيز في قلبها للحنان، من أجل ابنها كي يتكلّم أخيراً، من أجل قلب ميرزا الكسير كي يتماثل للشفاء، من أجل شازديپور كي يحب جمشيد كما كان يحبه في الماضي، من أجل المومس كي تتم معاملتها بلطف ورحمة، وصلّت حتى من أجل حبيب، عسى أن يقبل أخيراً محبة أفراد أسرته. وختاماً، طلبت من الله أن يغفر لها لأنها طلبت أشياء كثيرة جداً.

أثناء الليل، كانت القابلة تتنفس بشكل منتظم. جلست نسرين على الأرض، تصنع الدانتيلا ببَكَر[1] قليلة وجدتها، بينما كانت أمها تلعب بشَدّة ورق بمفردها جالسة إلى المنضدة. كانت بيبي-خانوم تقبض بثبات على يد صديقتها. كانت ظلال مصابيح الكيروسين ترتعش على الحيطان. عوت الريح عبر الكثبان الرملية، جنباً إلى جنب مع الأغاني الوحيدة للصراصير القليلة التي تحدّت المنظر الطبيعي القاحل.

التفتت بيبي-خانوم إلى نسرين. «لا يسعني أن أخبرك كم أنا مسرورة بزفافك»، قالت في تفجر مباغت من السعادة. «الحجاب الذي صنعتِه هو أجمل دانتيلا رأيتُه في حياتي كلّها. قمر، أليس الدانتيلا العائد لها مُدهشاً؟».

كانت المرأتان مرتبكتين فيما يتصل بتبدّل المزاج، غير أنّ بيبي-خانوم استأنفت حديثها قائلة: «لدينا عمل كثير يتعين علينا أن ننجزه. لائحة الضيوف، تحضير الطعام، فستان زفافك».

تبسّمت نسرين: «كنتُ أتحدّث مع بابا بشأن الفستان الساتان الأبيض».

أنزلت قمر أوراق اللعب العائدة لها: «عليكِ إذاً أن تلبسي حزاماً. الساتان لا يرحم مطلقاً».

«أنا أكره الأحزمة»، قالت نسرين. «إنها غير مُريحة إلى حدّ كبير».

1- بَكَر bobbins: جمع «بكرة». المرادف لها «وشائع» - م.

«كذلك الكُتل!» قالت قمر.

«إنها لا تملك كُتلاً، قمر!» قالت بيبي-خانوم.

بدأت النسوة الثلاث يتجادلن، ماصات أسنانهن ومُقطبات وجوههن فيما يتعلّق بالمناسبة الاحتفالية المرتَقبة، وكن يقهقهن بين الفينة والفينة وتقاطع إحداهن الأخرى. كانت أصواتهن تُضيء الحجرة وأحست بيبي-خانوم أنّ يد المرأة المحتضرة تعصر يدها.

آن أوان النوم إلا أنّ حالة القابلة ظلت كما هي. وجدت قمر بعض البطانيات في خزانة البياضات. فرشتها على الأرض واحتلت رقعتها عند الحافة وقالت: «سأغمض عينيّ قليلاً. غير أنّ نومي خفيف جدّاً، وإذا حدث أيّ شيء فقط اهمسن لي وسوف أستيقظ حالاً».

أدارت ظهرها لهما وفي الحال شرعت تشخر.

بيبي-خانوم ونسرين كلّ واحدة منهما نظرت إلى الأخرى وضحكتا. ومن ثم توقفتا عن الضحك معاً.

«لا بد أنّ هذا شيءٌ صعب عليكِ»، قالت بيبي-خانوم.

«لا أعرف ماذا ينبغي لي أن أفعل»، قالت نسرين.

«وما من أحد يعرف ماذا ينبغي له أن يفعل».

تأملت نسرين الظلال المرتعشة لبيبي-خانوم والقابلة. فكرت في خطيبها وحبيبها مجيد: «أشعر بالإثم. نحن هنا ولا أتمالك نفسي باستثناء التفكير فيه».

«سيعود إلى الديار حالاً. أعدكِ».

«كيف باستطاعتكِ أن تكوني واثقة؟ كلّ شيء تعمه الفوضى».

«أنا متيقّنة».

نظرت نسرين إلى بيبي-خانوم وأحسّت أنها أفضل حالاً. ابتسمت بيبي-خانوم وربتت على شعرها. «ما أول شيء تحبينه فيه؟».

«أحبّ عينيه»، أجابت نسرين. «اللون البني فيهما له طبيعة ضاربة إلى الاحمرار».

«على غرار صبا».

«حين أتحدّث معه ينظر إليّ»، خفضت نسرين عينيها ناظرة إلى الأرض. «أعني فعلاً أنه ينظر إليّ. إنه شيء مُثير للأعصاب تقريباً. إنه أقرب ما توصّلت إليه من يقينٍ في هذا الوجود».

قبّلتها بيبي-خانوم في جبينها. استلقت نسرين على بطانيتها وشاهدت الظلال على الحائط فيما هي تُصلي للباري من أجل عودة مجيد الآمنة. لم يكن بمستطاع بيبي-خانوم أن تنعس. كانت تمسك بيد القابلة كي تدعها تعرف بأنها لا تزال هناك. كان المصباح القريب من السرير يُضيء بنحو خافت وجه صاحبتها والليل أمسى ساكناً، باستثناء صوت الرياح.

استفاقت بيبي-خانوم من نوم عميق، كانت صديقها تضرب الأغطية مزيحةً إياها. كانت القابلة تشتعل وتئن. تحركت نسرين وقمر حركة طفيفة، من دون أن تدركا تماماً ماذا كان يجري. هرعت بيبي-خانوم إلى السِنك من أجل منشفة للوجه. مسحت وجه القابلة بالمنشفة ووضعتها على صدرها، حتى تُهدئها. كانت الحرارة المنبعثة من بشرتها صادمة. فتحت القابلة عينيها ونظرت إلى بيبي-خانوم، صاحية ومتسعة العينين، بسمةٌ بطيئة ترتسم على شفتيها. وعقب ذلك أغمضت عينيها. استأنفت تنفسها، وطوال الساعتين التاليتين باتت مرهقة أكثر فأكثر، كيانها كلّه كان مركزاً على فعل التنفس إلى أن توقف، آخذاً حياتها وحقيقة ولادة جعفر معه. لم تتحرك بيبي-خانوم قط عن مكانها على السرير، لم تُفلت يدها، ولم ترفع عينيها أبداً عن صديقتها الأعز على قلبها.

***

وقفت البغي لدى شباكها، وراقبت المَشهد يتكشف عند كوخ القابلة. حمل رجلان جثمان القابلة الملتف بالكتان وحمّلاه على منصة متصلة ببغلين بواسطة سلاسل. صفعا البغلين على أوراكها وسارا بجنبهما. كانت النساء الثلاث من الليلة المنصرمة قد وقفن في المدخل، في ضوء النهار المشرق، يراقبن العربة وهي تنسحب مبتعدة. كانت أكبرهن سناً قد أمسكت بعباءتها على وجهها ولم ترفع عينيها عن العربة. أما المرأة قوية البنية فقد وقفت ويداها على وركيها، تتناقش بصوت غير مسموع مع أصغرهن سناً. كانت أصغرهن سناً هي التي كانت تراقبها من النافذة في الليلة الفائتة.

ولمّا أصبحت العربة بعيدة من الأنظار، استدرن كلّهن ومضين إلى الداخل وأغلقن الباب.

جلست العاهرة إلى منضدتها وسمحت للدموع بأن تسيل على وجهها. كان وجهاً أتلفته ظروف العيش والأحوال المناخية. فقدت الشخصين الوحيدين في هذا العالم اللذين كانا يهتمان بها. أولاً صبا والآن القابلة. إن إمكانية أخذها للتنور كي يكون باستطاعتها أن تكف عن بيع جسدها لا يعني شيئاً بالنسبة إليها في مواجهة خسارة كهذه. مئة تنور لا يُمكن أن تُعوّض عن الاهتمام والرحمة اللذين أظهرتهما هاتان المرأتان تجاهها.

جلست بيبي-خانوم على فراش القابلة غير المُرتب وشاهدت قمر ونسرين تفتشان خزانتي البياضات والملابس. كدستا أشياء القابلة على الأرض، وكانتا تتناقشان فيما هما تستمران في عملهما. مصت قمر أسنانها بوجه ابنتها وخاطبتها قائلة: «لا تضعي تلك العباءة هناك. إنها الأثيرة لديها».

«أين أضعها إذاً؟».

«كدّسي الأشياء التي لن تُرمى».

«جيّد. إنما كيف يُمكنني أن أعرف إلى أين يمضي هذا الشيء من سواه؟».

«سأخبرك فيما أنا أفعل الآن!».

«لا تصيحي عليّ. أنا أحاول أن أقدّم المساعدة».

«افعلي إذاً كما يُقال لك!».

«كفى!» قالت بيبي-خانوم بصوت حلقي عميق، وأرعبت المرأتين. كلتاهما لم تسمع بيبي-خانوم وهي تصرخ سابقاً.

بدأت بيبي-خانوم تبكي. أسقطت نسرين وقمر الملابس وهرعن إليها. أمسكت نسرين برِجلها وراحت تبكي أيضاً. هدأتها قمر بالطريقة الوحيدة التي تعرفها: «لا تقلقي، بيبي-جان. سأحرص على أن يتم تنفيذ كلّ شيء بشكل صحيح كي نُشرّف حبيبتنا فاطمة. لن أدع سكينة تلك في كلّ الأحوال تقترب من حاجيات القابلة. إني أراهن بكلّ الأشياء التي أملكها بأنها ستأتي إلى الجنازة. إنها تمتلك على الدوام طريقة ما في الظهور في أزمنة الكارثة. النسور تمتلك لياقة أكثر منها. إنها تنتظر بضعة أيام».

على الرغم من العقبات كلّها، تمكنت قمر، مرة أخرى، من رفع معنويات بيبي-خانوم قليلاً. هزت بيبي-خانوم رأسها وقالت: «في سبيل الله، قمر. ما الشيء الذي يتعلّق بسكينة ويجعلكِ تنزعجين هكذا؟».

«إنها امرأة فاسدة. وربما لهذا السبب تساقطت أسنانُها».

عاودت قمر وضع الأشياء في أكوام. انتبهت بيبي-خانوم إلى عباءة القابلة المفضّلة. كانت تلك هي العباءة بطبعة الزهور التي لبستها من أجل أول غداء ربيعي قبل بضعة أسابيع خلت. فتحت الرزمة المطوية، وهناك في داخلها كانت حمّالة الثديين التي تحمل أثمن مقتنياتها: خاتماً، دثارات قطنية، دبابيس، دبابيس شعر بهيئة حرف U مزوّدة بالجواهر، ومَبسمها. تطلعت بيبي-خانوم إلى المواد. إنّ ما أدهشها هو كيف أنّ هذه الأشياء لم يعد لها أيّ معنى بالنسبة إليها، كما لو أن أرواحها قد غادرت كذلك. نظرت إلى خارج الشباك ورأت العاهرة تقف عند الشباك تراقبهن. التقطت بيبي-خانوم المَبسم وتوجهت صوب الباب. «إلى أين أنتِ ذاهبة؟» سألت قمر.

استدارت بيبي-خانوم وألقت عليها نظرة محدّقة: «ابقي هنا واهتمي بعملك».

بعد لحظات قليلة من الطرق، فُتح باب المومس ببطء. كانت العباءة تُغطي كامل جسمها. ابتسمت بيبي-خانوم وقالت: «أنا بيبي-خانوم. مثلما أنا متأكدة من أنكِ تعرفين، فارقت القابلة الحياة البارحة. نحن نحتفظ بأشيائها وأحسب أنكِ ربما ترغبين بأن تملكي هذا». عرضت المَبسم. نظرت المومس إليه وقالت: «لا أملك نارجيلة. وحتى لو أملك واحدة، أنا لا أكترث كثيراً بالتدخين».

«باستطاعتكِ أن تأخذيه وتأتي إلى منزلي في أيّ وقت تشائين وتجلسي معي».

تخلت المومس عن إمساكها بعباءتها: «أتعرفين مَن أكون؟».

بوغتت بيبي-خانوم بمجاهرة المومس وصراحتها. كانت تعرف فعلاً ماذا كانت. كان الجميع يعرفون ماذا كانت. إنما لا أحدَ يعرف، ولا حتى صبا أو القابلة، مَن هي في حقيقة الأمر.

كانت العاهرة ابنة رجل دين بارز في مَشهد، تجاهلها تقريباً، وحصر تركيزه واهتمامه على ابنيه الأكبر منها سناً وعلى جماعته المؤمنين. بقدر تعلّق الأمر به، لم تكن ابنته أكثر من وعاء للتناسل والتنظيف. كانت تجلس بصمت في المداخل، تتابع دروس القراءة والرياضيات التي كان يجود بها على شقيقيها، وكانت تتلفظ الكلمات بصمت وتهمس بالأعداد التي تنتهي بالأصفار، وكان يسحرها أن تشارك الرجال في أسرتها. لم تتكلّم قط، إذ كانت تخشى أنّ التسجيل المنخفض لصوتها سوف يجذب انتباهاً غير مرغوب به، وهكذا حَسِبت الأسرة أنها بكماء.

في العام الخامس عشر من حياتها نالت أخيراً اهتمام أحد الرجال، يكبرها سناً بعشرين عاماً. كان بائعاً متجولاً من جنوب البلاد يمر بمَشهد في طريقه إلى نيساپور. ابتسم لها فيما كانت واقفة وراء أبيها وشقيقيها الذين توقفوا كي ينظروا إلى السلع التي يبيعها. وفيما كان يسحب عربته التي يجرّها الحصان بعيداً من الحشود، هرعت إليه ووقفت بجانبه وهمست له: «خُذني معك». وفعل ذلك. ولمّا امتلكها وأخذ وطره منها، حمّل عربته وغادر نيساپور متجهاً إلى دياره، حيث كانت زوجته وأولاده في انتظاره، وتركها مع بعض الحلي الرخيصة. كانت في نيساپور منذ ذلك الحين، تبيع الشيء الوحيد الذي تملكه. لم يأتِ أحدٌ البتة من مَشهد كي يفتش عنها. ولمّا أخبرتها القابلة أنّ ثمة أسرة في مَشهد تبنت الابن الذي تخلّت عنه، كانت توّد أن تتخيّل أن هذه الأسرة هي أسرتها، وأن يجود أبوها على ابنها بالحب والرعاية اللذين لم يمنحهما لها.

سألت العاهرة بيبي–خانوم مجدداً: «هل تعرفين ماذا أكون؟».

«أجل»، ردت بيبي–خانوم، «لكنّي لا أعرف اسمك».

«مِيهري».

«مِيهري. خذي المَبسم وقد تركتُ كلّ شيء في التنور كما أبلغتنا القابلة. المَبسم ملكك الآن وافعلي به ما تشائين. في حقيقة الأمر، أود أن أطلب بعض الخبز كي يُجلَب إلى البستان كلّ أسبوع. في البداية، أطلب عشرين رغيفاً».

مدّت يدها في جيب ثوبها تحت عباءتها وأخرجت بعض الأوراق المالية، سلّمتها لها فيما هي تقول: «هذا ثمن الخبز».

رغم أنّها كانت مرتابة قليلاً، أخذت مِيهري المَبسم والمال.

«سوف نغادر حالاً كي نمضي إلى موقع الدفن»، قالت لها بيبي-خانوم. «عندئذ سيأتي الجميع إلى بستاني كي يتناولوا الغداء. أهلاً وسهلاً بك لو وددتِ الانضمام إلينا».

كانت مِيهري منزعجة تقريباً من بساطة عَرض بيبي-خانوم. قالت: «لا» و «جزيل الشكر» فيما هي تغلق الباب.

وقفت بيبي-خانوم هناك لحظة، صورة وجه مِيهري لا تزال في بالها، وجه ذابل جداً نسبة إلى امرأة لا تزال يافعة جداً. رجعت إلى كوخ القابلة على صوت تذمر قمر. كان مُريحاً بنحو غريب. قالت: «قمر-جان، نريد الذهاب. أريد أن أكون هناك حين يغسلون جثمانها».

في المقبرة، حدّقت بيبي-خانوم، من دون أن تتحرك قيد أنملة، عبر شباك زجاجي إلى المرأتين اللتين تغسلان جثمان صديقتها[1]. كانت حياتا المرأتين الضخمتين مُكرّسة لغسل جثث الأموات من النساء، وهو عملٌ قوّى عزيمتهما وجعل أيديهما خشنة. أبقت بيبي-خانوم عينيها على صديقتها: الجلد الهَرِم، المتدلّي الشاحب، الشعر الأبيض السلكي بالآثار البرتقالية الفاضحة من الحنّاء، الفم مفتوح ومتدلّ، بينما أيدي الغريبتين القويتين الغليظتين غير المباليتين تقلب جثمانها بارتجاج. الماء يرتد إلى الخارج، جثتها لا تمتص قطرة واحدة منه. هذا كلّه أُنجز على منصة الرخام الأبيض الصارخ لغرفة الغسل وانتهى بجثمان القابلة ملتفاً بالكتان وموضوعاً على لوح.

في تلك اللحظة تحديداً أحست بيبي-خانوم بالرعب لمّا فكرت أنها لن ترى صاحبتها بعد الآن. أجهدت بيبي-خانوم ذهنها ساعية لأن تتذكر ما إذا

1- وردت في النص كلمة mordehshoors بالفارسية اللفظية في النص الإنكليزي، وتعني النساء اللائي يغسلن الجثث. من المعروف في الدين الإسلامي، الرجال يغسلون جثث الرجال والنساء يغسلن جثث النساء - م.

كانت تمتلك أيّ صورة لها. إن التأثيرات الشخصية التي بدت قبل سويعات قليلة لا أكثر غير مهمة بالنسبة إليها، أضحت الآن كلّ شيء. أحست بالندم تقريباً لأنها منحت مِيهري المَبسم. حدّثت نفسها أنها سوف تؤوب إلى الكوخ وتأخذ الأشياء التي احتفظت بها القابلة بالقرب من قلبها.

الأسرة كلّها أتت إلى المقبرة الصغيرة، حيث دفنوا كلّ معارفهم. كانت تقوم على هضبة تطل من جهة على الكثبان الرملية وعلى «نيساپور القديمة» من الجهة الأخرى. كانت أشعة الشمس تلفح بنحو لا يرحم بلاطات الأضرحة والمُعزيات لابسات العباءات السود اللائي يزرن الأموات.

كان المُلّا يقف على الحفرة الكائنة في الأرض، يخفض بصره ناظراً إلى الجثة الملتفة بالكتان. وقف جمشيد خلفه. أكبر-آغا ومحمد وقفا معاً في الناحية الأخرى من الحفرة. بدا دفن الجثث المتفسخة في الأرض شيئاً مروِّعاً بالنسبة إلى أكبر-آغا. فكر في الممارسة الزرادشتية الغابرة في إزالة لحم وأعضاء جسم المتوفى قبل دفنه. لو أنّ مجيداً هنا، فربما سينخرطون في نقاش طويل عن طقس الدفن الزرادشتي ومدفن عظام الميت حيث تُترك جثث الموتى مكشوفة للأحوال الجوية والطيور التي تعيش على الجيف. في تلك اللحظة اشتاق إلى مجيد بنحو فظيع. نظر إلى محمد وانبرى قائلاً: «رحمة الله على روحها».

تسلل شازديپور بهدوء إلى قبر زوجته. كانت الزهور التي وضعها على بلاطة الضريح الرخامية السوداء الأفقية في زيارته السابقة قد ذبلت وجفت. رفع الباقة واستعملها كي يكنس الغبار والتراب اللذين تجمعا على البلاطة. أجال النظر من حوله كي يتأكد من أن لا أحدَ ينظر إليه، ثم جلس بجانب الشاهدة ولمسها. كانت لافحة بسبب شمس منتصف النهار. ثمة نادبة محترفة كانت تسير هناك شاهدت كيف يداري يده المحترقة. كان بحوزتها طاس من الماء البارد من أجل تبريد قبر كان مطلوباً منها أن تنتحب عليه. انحنت وسكبت الماء على قبر صبا بدلاً من ذلك. شكرها شازديپور غير أنها لم تتحرك. أدرك السبب ومدّ يده في جيبه كي يُخرجَ بعض القطع النقدية ويعطيها. ابتسمت وانصرفت. «بربرية»، غمغم بصوت هامس، محوّلاً انتباهه من جديد إلى الشاهدة الرطبة. في باله، طلب من زوجته أن تبحث

عن مجيد وتحضره إلى البيت. وبعدها، على عجل، طلب منها أن تغفر له على خلفية عدم اكتراثه بجمشيد.

بيبي-خانوم وقمر وقفتا معاً ونسرين محشورة بينهما. كانت الدموع تسيل على وجه نسرين. كان ممتنة للفرصة التي أُتيحت لها كي تبكي على اختفاء مجيد تحت ذريعة الجنازة. وضعت قمر ذراعها حول ابنتها وواستها برقتها، وبذلك أدهشت الجميع: «أعرف، أعرف»، هدلت قمر. «كانت كالأم بالنسبة إليكِ. كانت هناك من أجل ولادتك وراقبتك وأنتِ تكبرين. من الصعب جداً أن تفقدي إنساناً تُحبينه».

بكت نسرين مجدداً ورمت ذراعيها حول عنق أمها، لا بسبب القابلة أو بسبب مجيد، بل بسبب هذه اللحظة النادرة من الحنو.

جاء حفارو القبور وبدؤوا يجرفون التربة فيما كان أفراد الأسرة يراقبون صامتين. لاحظ شازديپور أنّ جمشيد يقف بجانب المُلّا. كان ابنه يلبس قميصاً مُزرراً إلى الأعلى وكانت ثمة مسبحة في يده. كان قد بوغت بالتحوّل الجذري. جمشيد ابتعد عنه تدريجياً وبنحو خجول. «مرحباً، أبي»، خاطبه قائلاً.

«مرحباً، جمشيد».

وقفا معاً في صمت مُحرِج على مدى لحظات قليلة قبل أن يستطرد جمشيد قائلاً: «أعتقد أنّ آخر مرة تحدثنا معاً كانت...».

«في جنازة أمك».

«نعم، جنازة الأم».

لزما الصمت ثانية. كان شازديپور خجلاً من الاشمئزاز الذي أحس به تجاه ابنه وحتى كان خجلاً أكثر لأنه كان يحس على الدوام هكذا فيما يتصل به. كان الإدمان على الأفيون هو ببساطة عُذر استعمله كي يتخلّى عنه. وحتى الآن، كان ورع جمشيد الديني شيئاً مُذلاً بالنسبة إليه مثل الخمول الناجم عن تعاطي المخدرات. لكن لم تدخل عقل شازديپور مرة واحدة الفكرة القائلة إنّ هذا الاحتقار بالذات ربما هو الذي دفع ابنه إلى هذه التدابير المُتطرّفة. سيكون هذا عبئاً كبيراً جداً كي يحمله.

كُسِر السكون على حين غرة بواسطة امرأة حسناء ترتدي عباءة سوداء تتعثر في طريقها نحو القبر، ذراعاها تتخبطان هنا وهناك. وحين ميّزت النادبة المحترفة، نظرت قمر بعينين نصف مغمضتين وهمست قائلة: «سكينة».

رمت سكينة نفسها في داخل القبر نصف المملوء، وحذت حذوها امرأتان تلبسان عباءتين سوداوين ظلتا تصرخان: «لا، أماه، لا، أرجوكِ، لا تفعلي!». هبطت في القاع بصوت مكتوم. هرع الجميع كي يروا ما إذا كانت على ما يُرام. جثمت سكينة منكفئة على الأرض، وراحت تمسك بأكوام من التربة، وجعلت تضرب رأسها، متأوهة. أومأ رجل الدين إلى حفاري القبر كي يرفعوها فيما كان يؤنبها: «يا امرأة! سيطري على نفسك!».

قاومت الحفارين فيما كانوا يقبضون على ذراعيها. ساعدهم جمشيد في تهدئتها. جلسوا بجوار القبر فيما كانت ابنتاها تحاولان أن تواسياها، لكن من دون طائل. تابعت البكاء والأنين، وراحت تضرب نفسها. إحدى ابنتيها رفعت عينيها إلى رجل الدين وقالت: «أرجوك اصفح عنها، حاج - آغا. إنها تحب القابلة حباً جماً».

مالت قمر على بيبي-خانوم وهمست قائلة: «تلك العاهرة لم تأتِ مرة واحدة كي ترى العجوز. المرة الوحيدة التي قابلتها فيها هي من أجل ولادة تلكما البنتين المتخلفتين عقلياً، اللتين لم يتقدّم إلى خطبتهما رجلٌ واحد. هل تعرفين أن إحداهما دخلت سن الثلاثين والأخرى تتكلّم مع نفسها علانية؟ ماذا تتوقعين من أُم كهذه؟». نظرت قمر إلى المرأة المتشنجة وتابعت كلامها: «أُقسم إذا حاولت أنثى الضبع الدرداء تلك أن تأخذ أيّاً من أشياء القابلة الوديعة، سأقلع ما بقي من أسنانها التالفة بنفسي. إنكِ لا تدعينها تأتي إلى البستان من أجل وجبة الغداء، صحيح؟ سوف تأكل كلّ شيء!».

بدأت بيبي-خانوم تقهقه تحت عباءتها، كاتمة أصوات ضحكها فيما هي تقول: «يا إلهي، قمر، أنتِ امرأة خبيثة».

بهتت قمر وقالت: «أنا لستُ خبيثة، خالة بيبي! أنا صادقة!».

رسمت بيبي-خانوم تعبيراً جاداً على وجهها ومالت على ابنة أختها

وخاطبتها قائلة: «سيأتون إلى الغداء وستكونين لطيفة معهم. الآن، دعينا نمضي. أريد أن أرجع وأساعد ميرزا في إعداد الطعام».

***

أمضى ميرزا صباحاً مزعجاً إلى حدّ كبير في المطبخ وهو يعد الغداء وحده. كانت قد أعد الرز و«القيمة»[1]، وهو الحساء التقليدي الذي يُقدّم في مآدب الجنائز، ويُعد من لحم الضأن المهروس، والحمص الأصفر المجروش، والليمون المجفف[2]. إلا أنه أعد كمية كبيرة جداً من الرز. كان قد قرر أن يستعمله كذلك لطبق «زيريشك پولو با مورغ»[3]. كانت بيبي-خانوم تحب طبق «زيريشك پولو با مورغ». رفع غطاء القِدر الضخم وشمّ الزعفران، الفستق، والبرباريس. إنها أكلة نموذجية بكلّ معنى الكلمة. يكون الرز رقيقاً وخفيفاً، والرائحة ناجمة عن زبد التهديغ غير محترقة، ويكون الدّجاج مُحمّصاً ومليئاً بالعصير.

كان ميرزا في حالة اهتياج وغضب شديدين.

في صباح ذلك اليوم، كان قد دخل الخُم كي يمسك بطائرين من أجل طبق مُرتَجل. ولمّا لم يرَ أيّ أشرطة حُمر، اعتقد أنّ جعفر من الجائز قد

1- الرز مع القيمة: وردت بالفارسية اللفظية في النص الإنكليزي الأصل gheimeh polo. يُستعمل في إعداد «القيمة» اللحم المهروس، البصل المُقطع الصغير أو متوسط الحجم، الحمص الأصفر المجروش، الكركم، مسحوق الليمون اليابس، عصير الليمون، الفلفل، عصير الطماطم، الزعفران، الزيت. أما الرز فهو الرز الفارسي الرقيق والخفيف. ويُسمى هذا الطبق أيضاً خورشتي قيمه khoresht - e gheimeh. هذا الطبق شائع في العراق أيضاً، إلا أنه ليس الطبق التقليدي الوحيد الذي يُقدّم في مآدب الجنائز - م.

2- الليمون المجفف dried limes: المقصود هنا «نومي بصرة»، وقد أشرنا إلى معناها في هامش سابق - م.

3- زيريشك پولو با مورغ: وردت بالفارسية اللفظية في النص الإنكليزي الأصل zereshk polo ba morgh. وهو طبق فارسي كلاسيكي، يُقدّم في مآدب الطعام الفارسية الكبيرة، مناسبات الزفاف، والعطلات والاحتفالات البهيجة، كذلك وجبات الطعام العادية، وغالباً مع أطباق رز أخرى. يُعد هذا الطبق من الرز المُنكه بزهور البرباريس (شجيرة شائكة) الصُفر ويُقدّم مع الدجاج (الدجاج بالفارسية مورغ morgh) - م.

انتزع مينا وأخذها إلى مكان ما. ولم يعرف إلا بعد أن قطع رأسي الطائرين وجرّدهما من الريش أنّ أحدهما كان يحمل طلاء أظافر على مخالبه. أحس بالذعر وهرع إلى الخُم ودخله ووجد شريط مينا الأحمر على قش رقعة الفَقس[1] الفارغة. ذبح مينا. إنه متيقن من ذلك. مُصاباً بالإثم، ربط الشريط الأحمر حول دجاجة بيضاء زَغِبة أخرى وأعادها إلى داخل الخُم.

عبر النافذة المفتوحة، سمع بيبي-خانوم وقمر-خان، كان من دأبه أن يُسقط الـ «وم» الأنثوية حين يفكر فيها، وهي تدنو من المنزل. اختلجت شفته السفلى حالما دخلت المرأتان المنزل. شاهدت بيبي-خانوم النظرة المتألمة على محيّاه وهرعت إليه وحدّثته قائلة: «ميرزا-جان، ما الخطب؟ ماذا جرى؟».

«ذبحتُ مينا».

بدت بيبي-خانوم مرتبكة.

«دجاجة جعفر»، قال ميرزا، بلطف.

هزت رأسها، مدّعية أنّ هذا شيء لا بأس به، اليوم هو يوم عسير على الجميع. لم يلاحظ أيٌّ منهما أن جعفر كان واقفاً في المدخل، وجهه مُلطَّخ بالدموع. وحين شاهداه، استدار على عقبيه وولّى هارباً. «جعفر-جان! أنا متأسف جداً! أنا متأسفة جداً! أرجوك! سوف نجلب لك دجاجة أخرى!»، كان ميرزا وبيبي-خانوم يصيحان وراءه.

ميرزا والمرأتان نصبوا المنصة المخصصة لطعام الغداء بينما كان أفراد الأسرة يصلون تباعاً. كان أكبر-آغا يمشي في الصدارة فيما يداه معقودتان خلف ظهره، تتبعه سكينة، التي كانت تحملها ابنتاها، وكانتا تتوقفان كلّ بضع خطوات كي تتأوها. أما شازديپور فكان آخرهم، يمشي كتفاً إلى كتف مع محمد الذي ظل يرمي نظرات غير مُريحة على سكينة.

لاحظت بيبي-خانوم أنّ المُلّا وجمشيد لم يكونا معهم. «أين حبيب-آغا وجمشيد؟» سألت زوجَها.

1- رقعة الفقس brooding patch: أي الرقعة التي تحضن فيها الدجاجة بيضَها كي يفقس - م.

«لديهما موعد مُسبق».

«فهمت».

ران سكون فكّر خلاله الاثنان في الشيء نفسه. كفّ حبيب عن المجيء إلى وجبات الغداء في أيام الجُمع منذ زمن معين وحتى الآن. كانت تلك هي الاستراحة الأخيرة من حياته الماضية. إنه الآن رجل دين حصراً في جميع علاقاته مع الآخرين. التفتت بيبي-خانوم إلى زوجها وقالت له: «حسناً، حضّر ميرزا طبق [زيريشك پولو با مورغ] المعدّ من دجاجة جعفر الأليفة».

انطلق أكبر-آغا يضحك، فصفعته بيبي-خانوم على ذراعه بمزاح وقالت: «أكبر! كفى. جعفر مُدمّر. إنه يختبئ في الخُم».

سكينة وابنتاها جلسن في جهة واحدة من السُفرة من أجل الغداء المُعد تكريماً للقابلة. جلس شازديپور ومحمد في الجهة الأخرى، بجانب بيبي-خانوم وقمر. أعدّ أكبر-آغا طبقاً من رز البرباريس واللبن الرائب. استثنى نفسه من السُفرة وتوجه إلى خم الدجاج. دفنت سكينة نفسها في عباءتها السوداء الضخمة. تطلّعت إليها بيبي-خانوم وقالت: «سكينة-جان، كُلي شيئاً ما. إنك تحتاجين إلى قوتك».

«لا أستطيع»، قالت سكينة وهي تئن. «أنا منحرفة المزاج إلى حدّ كبير».

مصّت قمر أسنانها. قرصت بيبي-خانوم رِجلها واستمرت في مخاطبة سكينة: «أرجوكِ، سكينة-جان، كُلي شيئاً ما من أجلي. إني ألحّ».

انفجرت سكينة في نشيج صامت وانهالت على الأطباق الكبيرة من الحساء، اللبن الرائب، الأعشاب، والخضار المُخلّلة، حتى تمكنت من جرف جزء جيد من التهديغ فيما هي تبكي. «هذا من أجلك، بيبي-خانوم! من أجل القابلة، رحمة الله على روحها!»، قالت وفي فمها لقمة من الطعام.

اتسع منخرا قمر تدريجياً. كانت تريد بنحو مستقتل أن تقول شيئاً لاذعاً لسكينة، إلا أنّ قَرص خالتها القاسي جعلها تحجم عن ذلك.

فتح أكبر-آغا باب خم الدجاج. رأى ابنه مُنحنياً على رقعة فَقس مينا. كان قد انتزع الشريط عن الدجاجة المدّعية وطردها. أكبر-آغا أنزل الطبق بجانب جعفر. أشار إلى الطبق وقال له: «جلبتُ لك بعض الرز واللبن. هل تأكل؟».

هزّ جعفر رأسه علامة النفي.

انحنى أكبر-آغا وقال: «هل يُمكنني أن أجلس هنا معك؟».

أومأ جعفر برأسه علامة الإيجاب.

استراح أكبر-آغا وأخرج مسبحته من جيبه وناولها إلى ابنه. رفع جعفر بصره ناظراً إلى والده الذي فتح عينيه على وسعهما. أومأ أكبر-آغا برأسه إلى الفتى وأخذها جعفر بين يديه. لم يسبق له أن أمسك بمسبحته، إلا أنه رأى أباه ينقرها يومياً بإصبعه من الزمن الذي يستطيع أن يتذكره. بدأ ينقر حبات المسبحة ببطء في أول الأمر، ومن ثم بنحو أسرع، وراح يفعل ذلك وفقاً لإيقاع معين. فتح ميرزا باب الخُم، وأفزع الاثنين وانبرى قائلاً: «أكبر-آغا، إنه التلفون».

كان أكبر-آغا يعرف على وجه الدقة عمَّ يكون الاتصال الهاتفي، فقفز بسرعة. تبع ميرزا عائداً إلى المنزل. شيّع شازديپور خاله أكبر-آغا بنظراته فيما كان الأخير يدخل المنزل. شاهده عبر الشباك وهو يتكلّم ويومئ برأسه على التلفون. علّق أكبر-آغا سماعة الهاتف وخرج إلى الأرضية. نظر مباشرة إلى شازديپور الذي كان الآن واقفاً وخاطبه قائلاً: «لقد أطلقوا سراحه. إنه حالياً في القطار متوّجهاً إلى المنزل».

باريس

V

في هذا الوقت المتأخر من حقبة ما بعد الظهر، جموع الساكنين في منطقة بيلڤيل تدفقوا خارجين من المترو إلى الشوارع. تحرّك شازديپور بعناد عبرها وأصبح في جادة Boulevard de Menilmontant، طارداً المارة الأكثر عدوانية بعكازه ذي رأس الأسد. كان غالبيتهم يعتذرون، إذ حسبوا أنّ الرجل العجوز أعمى. وبالقرب من مَدخل مقبرة Père Lachaise، تغيرت الحشود من الأشخاص المحليين إلى السياح المتسكعين. كانت البوابة الشهيرة مُسنَدة بواسطة عمودين عليهما نقوش باللاتينية. وعلى جاري عادته، توقف شازديپور كي يقرأ النقش الذي في ناحية الشمال. كان النقش باللاتينية: Spes illorum immortalitate plena est. أي: «أمَلُهم زاخرٌ بالخلود».

دخل شازديپور عبر البوابات ومشى بمحاذاة الدرب الرئيس للمقبرة المحفوف بالأشجار، وشعر بالراحة لدى سماعه دندنة الطيور والأصوات البشرية المُهسهسة.

كان قد زار هذا المكان مرات كثيرة لا يستطيع أن يتذكرها كلّها. إنه المكان الوحيد في المدينة الذي كان يحس فيه أنه في دياره. في العام 1979، بعد مدة ليست بالطويلة جداً على وصوله إلى هنا، جاء أولاً إلى المقبرة كي يزور قبر صادق هدايت[1]، وهو واحد من أبناء بلاده.

1- صادق هدايت Sadegh Hedayat (1903-1951): كاتب إيراني يعتبر مؤسس القصة القصيرة في إيران. من أبرز أعماله رواية «البومة العمياء» (بوف كور). كان صديقاً مُقرّباً للكاتب الإيراني صادق تشوبك. ولد صادق هدايت العام 1903 في طهران،

كانت شاهدة قبر صادق هدايت المصنوعة من العقيق اليماني الصقيل، شبه مطابقة لشاهدة قبر صبا. لمّا رآها شازديپور أولَ مرة، قهرته ذكرى زوجته الراحلة، وهيّجت فيه الحزن والشوق واللوعة. هو ذا الآن يتأمل اسم هدايت المنقوش بالخط الفارسي. النقطتان الأخيرتان على الحرف الأخير[1] مُحاطتان بسطر على شكل بومة تجريدية إجلالًا لكتابه الأشهر. في التاسع من نيسان / أبريل، سنة 1951، أغلق هدايت بإحكام جميع الأبواب والشبابيك في شقته الواقعة في شارع Rue Championnet في الدائرة الثامنة عشرة. وبعدها فتح الغاز. كان من الجائز أن يكون يوماً ربيعياً مُنعشاً، لا يختلف كثيراً عن هذا اليوم. كان شازديپور قد شاهد الصورة الفوتوغرافية لجثة هدايت المُسجاة على السرير وهو في سروال بذلته وقميص قطني جميل وصُدرة من الصوف السميك. نظارتاه بالإطارين الرفيعين جداً موضوعتان على منضدة صغيرة بجوار السرير. قبل أن يغلبه النعاس، كان هدايت قد ترك مئة ألف فرنك على طاولة المطبخ من أجل تغطية تكاليف دفنه، كي لا يجبر الآخرين على تحمّل تلك التكاليف بعد رحيله.

وينتمي إلى عائلة مثقفة، ما مكنه من الإطلاع على الأدب الكلاسيكي. فقد كان جده الأكبر شاعراً ومعلماً ملكياً، وكان أبوه مسؤولاً رفيع المستوى في البلاد، وكان يتمنى أن يجعله مثل إخوته، كاتب دولة عظيماً. وهكذا، مثله مثل كافكا، كان صادق هدايت يعاني من مشاكل عائلية، وهو ما يعبر عنه في «البومة العمياء». على غرار كافكا، أراد هدايت أن يكون كاتباً حصراً. شعر بعدم الراحة في بلاده وعمله الروتيني في «البنك الوطني». ولذلك اختار المنفى في فرنسا بسبب خيبة أمله في وطنه. قرأ هدايت للكثير من الكتاب العالميين، من أبرزهم: موباسان، دوستويفسكي، أدغار ألن پو، بودلير، تشيخوف، شنتزلر، شوبنهاور، ديدرو وفولتير، وكان سارتر وكامو من بين كتابه المفضلين. من أعماله الأخرى المترجمة إلى العربية كتاب «البعثة الإسلامية إلى البلاد الإفرنجية وأسطورة الخلق»، الصادر عن «منشورات الجمل» بترجمة غسان حمدان. كما ترجم الراحل سليم عبد الأمير حمدان كتاب «مختارات من قصص صادق هدايت»، الذي نشرته وزارة الثقافة السورية، عام 2007 – م.

1- النقطتان الأخيرتان على الحرف الأخير: المقصود هنا النقطتان فوق حرف التاء العربي (ت)، من (هدايت)، لأن الفارسية تستعمل الحروف العربية مع بعض الاختلافات البسيطة – م.

أثّرت لياقة هذا الفعل الأخير في شازديپور، وهيّجت مشاعره. تذكر الجملة الأولى في رواية «البومة العمياء» لـ صادق هدايت: «في الحياة توجد قروحٌ معينة، وهي، مثل نوع من آفة مُهلِكة، ببطء تحتُّ الروحَ في عزلة».

نظر من حوله، واعياً بذاته على حين غرة، وشغل نفسه بإزالة الأوراق الساقطة والأزهار الميتة التي خلّفها المعزون الآخرون وراءهم. أحس بالحيرة والارتباك أن يرى قبر رجل نبيل في مثل هذه الفوضى.

في مكان لا يبعد كثيراً عن هذا المكان يوجد قبر فريديريك شوبان[1]،

1- فريديريك شوبان Frédéric Chopin (1810–1849): مؤلّف ومُلّحن موسيقي في الفترة الرومانسية بولندي الأصل، ولِد فيما سُمّي لاحقا دوقية وارسو وترعرع في وارسو، التي أصبحت بعد 1815 جُزءاً من مملكة بولندا، حيث أكمل هناك تعليمه الموسيقي وألّف العديد من أعماله الموسيقية قبل مغادرته بولندا في العشرين من عمره، أي قبل أقل من شهر من اندلاع ثورة 1830. دخل في علاقة أخرى مُضطربة مع الكاتبة الفرنسية المعروفة باسمها المستعار جورج ساند. تُعتَبر الفترة الزمنية القصيرة ما بين عاميْ 1838–1839 من أكثر الفترات الإنتاجية في حياته الموسيقية، حيث كان يمضي وقته في زيارة مايوركا برفقة جورج ساند. فيما بعد كان الدعم المالي يأتيه من قبل صديقته الاسكتلندية جين سترلنغ التي كانت تعمل على ترتيب زيارة له إلى اسكتلندا خلال عام 1848. عانى شوبان من سوء وضعه الصحي وتوفي في باريس عام 1849، ذلك أن الاحتمال الأكبر وراء وفاته كان إصابته بمرض السل. كل مؤلفات شوبان استَخدَم فيها البيانو، وأغلبها عبارة عن عزف منفرد عليه، وله مقطوعتا كونشيرتو للبيانو، وقليل من مقطوعات موسيقى الحجرة، كما لحّن بعضَ الأغاني البولندية. يُعدّ نمط عزفه على البيانو فريداً في نوعه ومتميزاً من الناحية التقنية وغالباً ما كانت مقطوعاته مرتبطة بأدائه الخاص ذي الحساسيّة العالية. اخترع شوبان ما يعرف بـ «نمط البالاد الموسيقي» وذلك عام 1836 عندما قدّم أولى مقطوعات البالاد الرومانسية فيه. أعماله الأساسية تتضمن: السوناتا، والمازوركا، والفالس، والنوكترن، والبولونيز، والاتود، والامبرومبتو، والاسكرتسو، والپرلود. وهناكَ بعضٌ من مؤلفاته نشرت بعد وفاته، بعضها يحوي مقاطِع من التراث الموسيقي البولندي والموسيقى الكلاسيكية لِـ يوهان سباستيان باخ، وموتسارت، وفرانز شوبرت الذي كان شوبان يخصّه بقدرٍ عالٍ من الإعجاب. يُلخّص إبداع شوبان الموسيقي بأسلوبه الفريد وشكل قوالبه الموسيقية وتركيبات الهارموني بالإضافة إلى قدرته العالية في ابتكار الموسيقى بروحها القومية، ما جعل موسيقاه ذات تأثير قوي في جميع الأنحاء وأعطاها استمرارية لأمد طويل بعد انتهاء الحقبة الرومانسيّة – م.

وهو أجنبي آخر من بلاد أجنبية في مكان أجنبي. في داخل القبر يوجد جثمان شوبان إنما ليس فؤاده. على سرير الاحتضار العائد له كان قد طلب أن يُعيدوا فؤاده إلى بولندا، وطنه الأم.

أغمض شازدبيور عينيه. واستنشق الهواء الربيعي البارد وفي الختام رنا ببصره إلى ظُلّة الأشجار. كانت الشمس تخترق الأوراق بهيئة كِسر من النور. أرهف السمع لصيحات الشحارير[1] والزرازير، ترانيم الفراشات والصراصير، وفي تلك اللحظة كان في البستان. كان باستطاعته أن يشم رائحة الزعفران والزبد. كان بوسعه أن يسمع أصوات النساء من داخل المطبخ، صوت قمر هو الأعلى. بمستطاعه أن يرى مجيداً وهو يجلس مع أكبر- آغا تحت شجرة الجوز السوداء. ابنه في حالة استغراق عميق بينما كان أكبر-آغا يقرأ من كتاب فريد الدين العطار[2] المعنون «منطق الطير»[3].

1- الشحارير blackbirds: جمع «شحرور»، وهو طائر أسود حسن الصوت - م.

2- فريد الدين العطار (1124- 1221): شاعر فارسي متصوف، قال البعلبكي إنه «يُعد أحد أعظم الشعراء والمفكرين الصوفيين المسلمين». عُرِف بغزارة الإنتاج، وقد تركت أعماله أثراً ملحوظاً في الأدب الفارسي وفي الآداب الإسلامية الأخرى أيضاً. أشهر آثاره «منطق الطير» وهو شبه ملحمة نقع فيها على أوضح تفسير شعري للتصوّف الفارسي. ولد في نيسابور وكان أبوه عطاراً (طبيباً) وأخذ التصوف عن الشيخ نجم الدين الكبرى. عندما امتلأت روح الشيخ فريد الدين العطّار بالأسئلة، وامتزجتْ بأنوار الشك واليقين، نهد المتصوّف العارف إلى سلوك طريق الحقيقة، معتقداً ومسلّحاً بنظرية وحدة الوجود، ومشتاقاً للاتحاد مع الحق والانمحاء والفناء فيه. وقد زوّده هذا العزم بإيمان عميق جعله يستغني، بشكل كامل، عن الآخرين، فلم يعد لديه من أمل سوى التطلّع إلى مشاهدة جمال الحق والفناء في كماله. وامتزجت حياة العطار بتعدد الروايات واضطرابها. ولعل ذلك آت من طبيعة الرجل، المولود في مدينة نيسابور بإيران في العام 1142م على وجه التقريب، إذ لم يكن مشتبكاً مع أحوال المجتمع، وكان منكبّاً على التجارة والطبابة والصيدلة وجمع المال. حتى يروى أن سلوكه طريق التصوف جاء على سبيل المصادفة، وهي رواية تحيطها الشكوك، على الرغم من حسها الدرامي. أعماله الشعرية: «الكتاب الإلهي» (بالفارسية: إلهي نامه) وهو منظومة أدبية، «منطق الطير» وهو ملحمة أدبية، «أسرار نامه»، «بند نامه»، «خسرو نامه»، «مصيبت نامه»، «الديوان» ويتضمن 45450 بيتاً شعرياً - م.

3- منطق الطير: منظومةٌ رمزية تبلغ 4500 بيت نظمها فريد الدين العطار موضوعها هو بحث الطيور عن الطائر الوهمي المعروف بـ «سيمورغ»، والطيور هنا ترمز إلى

كان شازديپور قد حفظ الفقرة الأخيرة عن ظهر قلب وراح يتلوها هامساً: «تعالي، أيتها الذرات الضائعة، إلى مركزك الجذاب اللافت للانتباه، / وكوني المرآة الأبدية التي تشاهدينها: / أشعة تاهت في الانعطاف الواسع للظلام، / ورجعت إلى مكانك حيث تهبط الشمس».

خفّض بصره ناظراً إلى ساعة معصمه. كان الوقت يشارف الساعة الخامسة مساء. هوى رأس الأسد العائد لعكازه بينما كان يرفعه. تعيّن عليه أن يلصقه مراراً في ما مضى. جعل العكاز يسقط أيضاً. توجه نحو شارع Rue de la Roquette في أول الأمر كي يكافح الحشود المتنامية متوجّهاً صوب النهر من دون عكاز يحميه، وما من عربة يد كي تثبته في موضعه. وفي النهاية سمح لحركة الناس أن تأخذه إلى الماء، كما لو أنه كان متوجّهاً إلى هناك منذ البداية.

السالكين من أهل الصوفية. أما الـ «سيمورغ» فيرمز إلى الله. تبدأ المنظومة كما هي العادة بجملة من المدائح في حمد الله ومدح الرسول والخلفاء الراشدين الأربعة. والجزء المتعلق بالحكاية نفسها يبدأ بالبيت 500 من المنظومة نفسها وهو يشتمل على خمسة وأربعين مقالاً تنتهي بخاتمة. وتبدأ القصة بتوجيه الخطاب والترحيب بثلاثة عشر طائراً ينعقد بهم المجلس، فيقررون أنه لا بد لهم من أن يخضعوا أنفسهم لواحد منهم يجعلونه مرشداً لهم أثناء بحثهم عن السيمورغ حتى يوفقوا إلى العثور عليه. ثم يختارون الهدهد ويأخذ الهدهد في مخاطبتهم بحديث طويل. عنوان الكتاب بالإنكليزية مؤتمر الطيور «The Conference of the Birds» – م.

الابن يستفيق من النوم

لم يتكلّم مجيد إلى أيّ مخلوق منذ إخلاء سبيله من السجن. ولمّا دخل القطار إلى المحطة، نزل الدَّرجات ووقف على الرصيف حاملاً كيسه البلاستيكي الذي سلّمه إياه حرّاس السجن. عَبْر الحشد، حدد بالضبط موضع أكبر-آغا الذي كان يقف وحده عند باب المحطة. التقت عيونهما وأحس مجيد براحة كبيرة. مشى إليه بسرعة، وكان يركض تقريباً. وما إن قبّل كلّ واحد منهما الآخر في كلا الخدين، حتى بدأ يعتذر: «سيدي، أنا متأسف جداً على كلّ المشاكل التي سببتُها لكم».

«أيّ مشاكل؟» قال أكبر-آغا، «نحن كلنا سعداء لأنك بخير».

عبّس مجيد حاجبيه.

«وأنت؟ أأنت بخير؟».

أومأ مجيد برأسه بحركة ضعيفة، ومن ثم أشاح وجهه.

«فارقت القابلة الحياة»، قال أكبر-آغا، «دفنّا جثمانها اليوم».

«كيف حال بيبي-خانوم؟».

«إنها حزينة جداً»، قال أكبر-آغا الذي كان يرشده نحو الطريق. «وكذلك ميرزا. بالمصادفة، ذبح دجاجة جعفر».

«كان مُغرماً بتلك الدجاجة»، قال مجيد. «كتب اسمها على الجدار بجوار رقعة الفقس العائدة لها بطلاء أظافر سرقه من نسرين».

«مينا»، قال أكبر-آغا فيما هو يخفض بصره ناظراً إلى الكيس في يد مجيد.

«أعطاني إياه حرّاس السجن»، قال مجيد. «إنه يحتوي على كيس من الفستق وعلبة من الساهون».

«أعطوكَ تذكارات؟».

نظر كلّ واحد منهما إلى الآخر وانفجرا ضاحكين. ضحك مجيد ضحكة قوية بحيث تقلّص جسمه. ضحك إلى أن تحوّل توتر ضحكه إلى بكاء. توقف أكبر-آغا عن المسير وأخذ الفتى بين ذراعيه وقبض عليه فيما هو ينشج.

سارا صوب المنزل معاً على طول الطريق الرئيس. في البُعد، كانت الشمس تغرب وتُلقي وهجاً ذهبياً على «نيساپور القديمة». كانت خرائب الطوب في زمن ما جامعات، مساجد، منازل، ونُزُلاً. «لا بد أنّ [نيساپور القديمة] كانت مدينة جميلة»، قال مجيد. «غير أنها الآن مجرد أكوام قليلة من الرمل».

«البنايات تتهاوى. ما يحدث في داخلها هو الذي يهمّ. هل سبق لي أن أخبرتك بأسطورة الصيدلي؟».

«أتمنى أن تخبرني بها».

«إنها قصة حقيقية. جرت في المكان الذي توجد فيه تلك الخرائب حالياً».

«كان ذلك في العام 1221م والمدينة القديمة الواقعة على حدود النجد الشرقي كانت نوعاً من مرفأ صحراوي لكلّ أولئك الذين يمرون في طريقهم إلى الغرب وما وراءه. المسافرون المحليون والأجانب كانوا يختلطون في شوارعها الضيقة، ويتدافعون بالمناكب متوجهين نحو الجامعات، المتاجر، المساجد، وساحات الأسواق. في البُعد، كانت الجبال الفيروزية تلمع فيما تُلقي الشمس وهجها على هذه المدينة إبان عهدها الذهبي».

هنا عاش أحد الصيادلة وعمل. كان لديه متجر صغير في الشارع الرئيس، ورثه من أبيه. كان يقضي كلّ صباح في الداخل، الأبواب مغلقة والظلال تنسحب فيما هو ينحني على الكاونتر، يقيس بأصغر وحدات الوزن الأدويةَ التي يستعملها سكان المدينة. وما إن يفرغ من مهمته اليومية هذه، حتى يفتح الأبواب للعمل التجاري. كان المرضى يأتون من أحياء المدينة كلّها كي يأخذوا إكسيراتهم. كان الواصلون الجُدد يصطفون بالعشرات كي يصفوا

أوجاعهم ويطلبوا المقويات، المَراهم، والعقاقير. كان الصيدلي يجلس وراء الكاونتر العائد له ويستمع إلى قصصهم. إحدى النساء لم يكن يغمض لها جفن ليلاً، وغالباً تبقى صاحية إلى الحدّ الذي لا تستطيع فيه أن تجزم ما إذا كانت نائمة أم مستيقظة. أحد الرجال كان يشكو من سوء الهضم بعد تناول أيّ نوع من الألبان إلا أنه لم يكن باستطاعته التخلي عنها بسبب حبه للبن الرائب. وثمة شاب تنحنح بعصبية فيما هو يكشف مشكلة واجهها في غرفة نومه مع عروسته الجديدة. تشكلّت حبات عرق على جبينه فيما كان يتحدث عن الرعب والإذلال اللذين يواجههما كلّ مساء، متسائلاً ما إذا باستطاعته أن ينجز واجباته الزوجية. شابة، تنظر بعصبية إلى الباب، تحدّثت بنبرات مُسرعة عن الوجع في رحمها كلّ شهر وكيف أنها كانت تفزع من وصول ذلك الوجع.

كان الصيدلي قد أصبح ماهراً بكلّ معنى الكلمة في مساعدة المرضى وخدمتهم. كان يعرف على وجه الدقة ماذا يسأل وماذا يعطي لمرضاه. بعد أن يتكلّم مع المرأة المصابة بالأرق، يسألها أن تصف زمناً في حياتها الطويلة، المتبدلة، متى أحست بالأمان. حكت له عن الجلوس في حديقة أبيها، حيث كانت تشق ثمار الليمون الحلو وتفتحها. ولهذا نصحها بأن تفتح ثمرة واحدة كلّما تعذر عليها النوم. أما الرجل الذي يعاني من سوء الهضم فقد أخبره أن يستمتع بلقمة واحدة من اللبن الرائب يعقبها بعصير ليمون كي يكسر تأثيره. أما الشاب الذي يشكو من مشاكل في حجرة النوم فقد أعطاه مرهماً بنكهة الزنجبيل كي يدهن به شفته العليا، فرائحته قوية جداً بحيث أنها تسرّع دمه. أمّا الفتاة التي تعاني من آلام في رحمها، فأعطاها مَرهماً ذا أبخرة عشبية كي تدهن به بطنها، وهذا المرهم سوف يرخّي عضلاتها ويُخفف وطأة الألم. ورغم أنّه كان يعرف علاجاً لكلّ علّة بشرية، ما بقي سراً بالنسبة إليه هو معاناة الروح الإنسانية.

وفي يوم من الأيام أغلق متجره ومضى في رحلة. سافر شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، وقابل البشر في نهايات الأرض، واستمع إلى قصصهم فيما هو يجتاز الوديان السبعة على مدار سبعة أعوام. ولدى عودته، فتح متجره من جديد كما لو كان يفعل ذلك في أيّ يوم آخر، ماداً يد العون لسكان المدينة

الذين يشكون الأمراض ويكابدون الأوجاع. في الأمسيات، كان يغلق أبواب متجره ويسحب الستائر وعلى ضوء الشمعة يكتب، في الأغلب بسجع، القصص التي جمعها على مَرّ الأعوام، القصص التي تتعلّق بالمرضى الذين يصفون صراعاتهم وأشواقهم، إحباطاتهم غير المتوقَّعة وخسائرهم التي لا تُطاق. كان بعضهم قد هلكوا تحت وطأة مِحَنهم، وبعضهم الآخر فتشوا عن راحة الصلاة والعبادة، ونفرٌ ثالث حاولوا جاهدين أن يملؤوا الفجوات الكائنة في دواخلهم من خلال سحق الآخرين، ونفرٌ رابع دمروا الشيء الذي أحبوه تحديداً بواسطة إجراء صغير، مُكرر. إنما في المقام الأول، روى قصة أولئك الأشخاص الذين يمتلكون حظوة البحث عن الحقيقة.

ومنذ ذلك الحين فصاعداً، بقي يستمع إلى المرضى الذين أتوا ومعهم وصفاتهم، إنما مع كلّ جرعة دواء، كان يُعطيهم قصيدة أيضاً. كَبُرت سمعته وعَلَت منزلته الاجتماعية. كان متجره يكتظ دوماً بالناس. كان بوسعك أن تسمع عمله يُقرأ بصوت عال في الشوارع، يؤديه رواة القصص في محلات بيع الشاي، ينشده الدراويش على الأرصفة. وعلى الرغم من ذلك لم يترك متجره.

وفي يوم ما اكتسح جيشٌ من «الشرق الأقصى» المدينة القديمة في الغبش. وبحلول الفجر كانت المدينة بأسرها قد حُطمت. كان جنرال الجيش قد كسر باب متجر الصيدلي وأخذه أسيراً. حبسه الجنرال في نُزُل محلي، وكان يحدّق فيه بينما كان تُرجمانُه يترجم: «أنت شيء كبير جداً لهذه المدينة. لهذا السبب لم أقتلك شأنك شأن الآخرين. مَن تكون؟».

رفع الصيدلي عينه ناظراً إلى الجنرال ذي القامة المديدة وانبرى قائلاً: «أنا صيدلي».

«هل هذا كلّ شيء؟».

«لا شيءَ أكثر من ذلك».

«لماذا إذاً عرض تاجر محلي ألف قطعة فضة مقابل حياتك؟».

فكر الصيدلي في المسألة قليلاً، وفي النهاية قال: «قيمتي لا تُقاس بالفضة».

تشاور الجنرال مع تابعه الأمين وتوصل إلى الاستنتاج الذي مفاده أنّ

الصيدلي يجب أن يساوي أكبر بكثير. صرف التاجر مع فضته. «الآن»، التفت إلى الصيدلي، «سوف ننتظر الذهب».

وقف راعٍ محلي عند مَدخل الخيمة وطلب رؤية الجنرال. سُمِح له بالدخول ودخل حاملاً مكيالاً[1] من الحنطة. انحنى أمام الصيدلي والجنرال وقال: «سيدي، أتيتُ كي أقايض حياة هذا الرجل بكلّ ما أملكه».

وضع مكيال القمح عند قدميْ الجنرال. اشتعل وجه الجنرال وغدا أحمر من فرط الغيظ فيما هو يركل المكيال بعيداً ويصرخ قائلاً: «هل هذا نوع من التهكم؟».

«لا، سيدي. هذا كلّ ما أملكه من متاع الدنيا. لقد أحرقتَ منزلي وحقولي. قتلتَ كلّ ماشيتي وكلّ أفراد أسرتي. كلّ ما بقي لي هو هذا المكيال من القمح وأود أن أعطيها لك من أجل حياة هذا الرجل».

نظر الصيدلي إلى الجنرال وقال: «هذا هو مقياس قيمتي».

استبد الغضب بالجنرال وأبعد الراعي ومكياله من الحنطة خارج الخيمة. ومن ثم التفت إلى الصيدلي، ورفعه من ياقته خارج كرسيه، وقرّب وجهه كثيراً جداً بحيث أنّ نَفَسه حرّك أهداب الرجل فيما هو يخاطبه قائلاً: «هل تسخر مني؟ قتلتُ ألف رجل في الأقل. والآن سوف أقتلك يقيناً».

قال الصيدلي بهدوء: «باستطاعتك أن تثور في أنحاء هذه الأرض، تقتل كلّ رجل، كلّ امرأة، وطفل، وتهدّ كلّ بناء من صنع الإنسان وتحرق الأرض في نطاق حدودها، لكنك لن تقتلني أبداً. باستطاعتك أن تقطّع جسمي إلى ألف قطعة، أن تحرق بقاياي، وتدفن رمادي في أغوار الأرض، لكنني سأستمر في العيش».

«مَن أنت؟» سأله الجنرال مرة أخرى.

«أنا قصة. لا يسعك أن تدمّر ما لا تستطيع أن تمسك به».

***

1- مكيال bushel: مكيال للحبوب إلخ يساوي 8 غالونات أو نحو 32 لتراً ونصف اللتر. يُسمى غالباً: بوشل بالعربية - م.

مجيد وأكبر-آغا وصلا إلى منزل شازدييور. كان مجيد قد تأثر كثيراً بقصة الصيدلي بحيث أنه على مدى لحظة نسي كلّ ما جرى له. التفت إلى أكبر-آغا بالحماسة القديمة ذاتها التي كان يمتلكها تجاه حكايات خال والده وسأله: «وماذا جرى للصيدلي؟».

«رجع الجنرال خطوة إلى الوراء، سحب سيفه من غمده، وقطع رأس الصيدلي».

حدّق مجيد في الأرض. «غير أنّ الجنرال مع ذلك هو الخاسر».

«نعم».

«الصيدلي هو العطار».

«إنه هو».

«تعالي، أيتها الذرات الضائعة، إلى مركزكِ الجذاب اللافت للانتباه»، قال مجيد، وهو يتلو الفقرة الأخيرة من «منطق الطير». انضم إليه أكبر-آغا وكلاهما معاً أنهيا الأبيات الأخيرة: «وكوني المرآة الأبدية التي تشاهدينها: / أشعة تاهت في الانعطاف الواسع للظلام، / ورجعت إلى مكانكِ حيث تهبط الشمس».

راقب أكبر-آغا التعبير المتبدّل على وجه الشاب. لقد آلمه أن يكسر هذه اللحظة إنما لم يكن أمامه خيار آخر. «مجيد»، خاطبه قائلاً. «في اعتقادي من الأفضل أن تغادر».

«أغادر إلى الأبد؟».

«في الوقت الحالي».

«إلى أين أمضي؟».

«سأساعدك على عبور الحدود نحو تركيا. ومن هنالك تقدّم طلباً باللجوء السياسي في فرنسا. لي زميل هناك سوف يقدّم لك العون. باستطاعتي أن أعطيك مبلغاً كافياً من المال كي تبدأ مسيرتك إنما يتعين عليك أن تجد عملاً وتنتظم في كلية على حسابك. إذا تغيّرت الأمور، يمكنك أن تؤوب».

«وإن لم يقبلوني في الكلية؟».

«تصنع حياتك بنفسك».

عرف مجيد ما عناه أبوه. كانت مدينته تتحكم بها «شرطة الآداب»[1] كأولئك الذين جرّوه مباشرة إلى السجن في العاصمة.

نهض من الديوان وقال: «أنا مُتعب، أبي. أعتقد أني سأمضي إلى الفراش».

«أتريد شيئاً؟ طعاماً؟ شاياً؟».

«لا، أبي. لا أريد سوى أن أنام».

بدا من الغرابة أن يكون في حجرته. كلّ ليلة استلقى فيها مجيد على أرض السجن الباردة، كان لا يحلم بشيء باستثناء أن يعود إلى حجرته ثانية. أما الآن وقد رجع، كلّ ما يحس به هو الخوف المَرضي من الأمكنة الضيقة. تسلل من الشباك ومشى الطريق المفتوح وسمح للمساء الربيعي الدافئ أن يغسله.

يوم غد سيحل عاشوراء، أقدس يوم بالنسبة إلى المسلمين الشيعة، اليوم الذي أشّر وفاة الإمام الحسين وأفراد أسرته. إنما بسبب تطابق التقويمين الشمسي والهجري سيكون يوم غد أيضاً «احتفال الأربعاء»، طقسَ القفز على النار ذا الأصل الزرادشتي الذي بات جزءاً من الثقافة الإيرانية، والذي يجري دوماً في الأربعاء الأخير قبل «السنة الجديدة». أحد الطقسين تفجع ديني، والآخر احتفال ثقافي.

تذكر مجيد آخر مرة قفز فيها فوق النار أثناء «احتفال الأربعاء». كانت أمه لا تزال على قيد الحياة، وكانت قد بانت عليها أعراض المرض الذي

1- شرطة الآداب: ورد في النص الإنكليزي الأصل مصطلح «شرطة الأخلاق morality police»، لكننا آثرنا استعمال مصطلح «شرطة الآداب»، وهو أكثر شيوعاً في العراق وفي بلدان عدّة، وهؤلاء كان لهم دور فاعل في «الحفاظ على حشمة الشابات والطالبات الجامعيات البغداديات» في عقد الستينيات من القرن العشرين. وفي إيران، بعد «الثورة الإسلامية» في شباط / فبراير 1979، نشر النظام الإسلامي في طهران آلافاً من أفراد الشرطة كي يحاسبوا بصرامة النساء والفتيات اللواتي لا يراعين الحشمة، كأن ينزعن حجاب الرأس أو العباءات التي تغطي كلّ أجسامهن، وما إلى ذلك، وهو شيء غير لائق ومنافٍ للأخلاق، بحسب رأيهم. وهذا ما ذكرته آذر نفيسي في كتابها المعنون «أشياء كنت ساكتة عنها»، الصادر عن «منشورات الجمل»، 2014، بترجمتنا – م.

«ليس من دون نسرين».

«دعنا نهتم أولاً بإخراجك من البلاد».

أومأ مجيد برأسه بصمت، عيناه مخضلتان بالدموع. «أنت على صواب. لقد حاولتَ أن تحذرني».

«كنتُ مُخطئاً، مجيد. هذا هو زمنك. وأشخاص، مثل شقيقي وأنا، سرقوه منك».

«إنكَ لم تفعل أيّ شيء، أكبر-آغا».

«بالضبط. أنا لم أفعل شيئاً. وهذا شيء سيئ بالقدر نفسه».

أبقى مجيد رأسه مُطأطأً واستوعب كلمات أكبر-آغا. أومأ إلى المنزل وقال: «أكبر-آغا، أرجوك ادخلْ كي تشرب الشاي معي».

«لا، لا. ستذهب وترى والدك وتنال قسطاً من الراحة».

«شكري الجزيل على إيصالي إلى المنزل».

عانق أكبر- آغا الشاب وخاطبه قائلاً: «كلّ ما فعلوه بك قلّل من شأنهم وليس من شأنك».

كلّ الأضواء كانت مُطفأة في منزل شازديپور باستثناء تلك الموجودة في غرفة مكتب أبيه. اجتاز الباب وشاهد أباه منخفضاً في كرسي المنتدى العائد له. طرفت عينا شازديپور لدى رؤية وجه ابنه وقد أصبح الآن نحيلاً وهَرِماً، وفيه أثرٌ طفيف من ندبة على جبهته. سار إلى ابنه ووضع رأسه على صدره ونشج. «لا تقلق، أبي»، قال مجيد. «أنا بخير».

ساعد مجيد أباه في الرجوع إلى كرسي المنتدى العائد له، ثم جلس على الديوان كي يكون قبالته. على الراديو، أعلن مُعلّق إذاعة الـ BBC أنّ كسوفاً شمسياً كاملاً سوف يحدث في اليوم التالي ووصف أين يكون مسار كليّة الكسوف واضحاً. قال أبوه: «كلّ ثلاثة وثلاثين عاماً يتطابق التقويمان الشمسي والقمري».

«أجل، أبي».

«ستكون هذه أولَ مرة في حياتك أن ترى القمر يكسف الشمس».

سيأخذ حياتها. جلست وراقبته وهو يثب فوق النار المرة تلو المرة، مُنشداً طقس التطهر: «لوني الأصفر ملكك، لونك الأحمر ملكي». في تلك السنة بالأخص كان مجيد قد صلّى للنار، أن تشتعل كلّ سنة كي تُبقي الشمس حية، كي تأخذ الشحوب المَرَضي من وجه أمه».

كما تذكر مجيد آخر مرة حضر شُعيرة عاشوراء. كان ذلك عقب وفاة أمه. كان يجلس وسط الرجال في الحشد يشاهد «مسرحية التعزية». نشج على خسارته هو. انضم إلى الموكب الرجال الذين كانوا يجلدون أنفسهم، وجلد نفسه بسلسلة حديد استعارها من شخص آخر، إلى أن دمّى ظهره، كان عقله مُنهَكاً ومتحرراً من الحزن.

أما الآن فهو ذاهب إلى منزل نسرين. مشى بهدوء عبر الحديقة ووقف خلف شجرة الصفصاف أمام محل الخيّاط، وراح ينظر إلى حبيبته الجالسة إلى طاولتها القريبة من الشباك، تُحيك، وهو عمل يبدو له تافهاً، عديم القيمة. كان بمقدوره أن يرى أنها عقصت شعرها وصبغت شفتيها باللون الأحمر، ترنو ببصرها بتنبؤ مُحدّقة في الظلام خارجاً، تنتظر. لكنّه أحسّ أنه بعيد جداً عنها. بدت كأنها رسمٌ أو صورة فوتوغرافية.

على مدى لحظة موجزة كاد يخطو من وراء شجرة الصفصاف، إلا أنّ فكرة التحدّث إليها عما خبره في الأيام الماضيات بدت مستحيلة. استدار على عقبيه وخرج من الحديقة. كان يريد أن يختلي بنفسه. وراء سور المدينة، انعكس ضوء القمر على الكثبان الرملية مثل ظل للشمس التي لم تأتِ بعد. فراغ الأرض، ترامیها، كان مُسالماً ومُوجِعاً في آن. جلس على ساتر وراح يستمع إلى أنفاسه إزاء الريح.

إن الحياة مع نسرين حافلة بالملذات الصغيرة الخاطفة إلا أنها محصورة في داخل أسوار البستان. هذه الحياة بدت له الآن سخيفة. كلمات المُحقق الأخيرة لا تزال تدوّي في رأسه: «سأراقب كلّ حركة تقوم بها، وإذا ما خطوتَ، إذا ما فكرتَ بأن تخطو خارج الخط، سأحطّمك». إن الحياة مع نسرين في مكانٍ ما خارجاً في العالم، في بلاد أجنبية، حرّة إنما مفقودة بدت له الآن تافهة، مُثيرة للشفقة.

في صباح اليوم التالي، انطلقت موسيقى كلاسيكية من راديو أبيه. أول مشادة كلامية حصلت بين مجيد وأبيه كانت حول الموسيقى. جرى ذلك أثناء عزلهما في المنزل، بعد وفاة والدته. كان مجيد جالساً في الصالون يستمع مع والده إلى رباعية وترية بعد رباعية وترية. كان قد التفت إلى أبيه وسأله: «لماذا لا تستمع أبداً إلى الموسيقى الفارسية؟».

«إني أحب الألحان المعقدة وتراكيب باخ وبتهوڤن والموسيقيين الألمان الآخرين»، قال أبوه. «الموسيقى الفارسية فيها قدرٌ كبيرٌ جداً من الارتجال».

«غير أنّ تلك التعقيدات والتراكيب موجودة في الموسيقى الفارسية أيضاً».

«إنها مسألة ذوق، على ما أعتقد».

تطلّع مجيد إلى أبيه بعض الوقت وتأمل وجهه، لباسه، صالونه، قبل أن يخاطبه قائلاً: «إنك لا تحب المكان الذي تنتسب إليه».

«هذا شيء غير صحيح على الإطلاق».

«إنك تكره الجلوس على الأرض. إنكَ تكره طعامنا، موسيقانا، ديكورنا، تقاليدنا. إنك مثل منفيّ في بلادك».

اندفع شازديپور خارجاً بسرعة من الصالون. لم يتكلّما عن هذا الموضوع ثانية.

مجيد الآن فَهِم شيئاً ما لم يفهمه في ذلك الحين. فَهِم لماذا كان أبوه يُحيط نفسه بملابس مُبهرَجة تعود إلى بلاد أجنبية. كانت خفيفة، متلوّنة، عديمة الوزن وغير منطقية. إنها كلّ ما يفتقر إليه هذا المكان.

فتح مجيد باب غرفته، ويا لدهشته، وجد نسرين. كانت ترتدي عباءة سوداء، وتقبض على أحد قمصانه. لم تنظر إليه ولم تتحرك. «قبل أربعة أعوام، كنتُ جالسة على هذا السرير، أمسك بأحد قمصانك. لم أكن أعرف مَن أنتَ في حينها. كنتُ يافعة ومندفعة. يلزمني أن أعترف بشيء ما»، قالت. «دققتُ في دفتر ملاحظاتك». لم ترفع عينيها إليه إلا الآن. كان وجهها مصعوقاً بنحو جليّ بسبب التغيرات التي طرأت على وجهه. مال على مكتبه، وذراعاه معقودتان. حرّكت فمها مرات قليلة كما لو أنها تريد أن تتكلّم قبل أن تصل الكلمات، ومن ثم أردفت قائلة: «كنتُ أريد أن أعرفك».

حوّلت أنظارها إلى النافذة، النور يضرب وجهها. كانت تنشج. عيناها حمراوان ومتورّمتان:

«شاهدتك تقف عند شجرة الصفصاف العائدة لي البارحة، تنظر إليّ. لماذا لم تأتِ إليّ؟».

«لم أكن أعرف ماذا أقول».

«لم يكن ينبغي لك أن تقول أيّ شيء».

وقفت، القميص لا يزال في يديها، ومشت إليه، العباءة تسقط إلى الأرض. طبعت قبلة على الندبة الطفيفة فوق عينه. أبقى ذراعيه معقودتين إلا أنه ضغط شفتيه على جبينها. إبان الأسابيع الثلاثة التي مضى فيها، رأت نسرين العالم المحيط بها يتغيّر فيما كان الناس ينقسمون ويؤيدون هذه الجهة أو تلك. صديقات ارتبطت معهن بعلاقة صداقة على مدار أعوام توقفن عن التكلّم معها. رأت مجموعة من الغلمان المسلّحين يرمون الحامض في وجه فتاة تجرأت وراحت تمشي في الشوارع من دون حجاب. شاهدت مجموعة من البنات المُسلّحات يمسكن بصديقتهن ويمسحن أحمر الشفاه من على فمها بمنديل مائدة فيه موسى حلاقة مخفية في داخله، الدم حوّل شفتي الفتاة الورديتين إلى اللون الأحمر. «أنا خائفة جداً»، قالت. رفعت بصرها إليه. «جمشيد واحد منهم الآن». هزت رأسها. «لا يسعك أن تقوم بشيء ما كي تغيّر الوضع. إنهم يقتلون البشر كما يقتلون الحيوانات. أرجوك. دعنا نهرب. باستطاعتنا أن نبدأ حياة جديدة معاً. سأذهب معك إلى أيّ مكان. أيّ مكان. أرجوك».

دفنت رأسها في عنقه وراحت تنشج برقّة. طوّقها بذراعيه، عقله تتناهبه الأفكار والخواطر. «سوف نفعل ذلك»، قال. «أَعِدِك».

مشى مع نسرين إلى الباب الأمامي وقبّلها على شفتيها. مشت إلى الخارج ثم استدارت كي تواجهه. قبل مدة ليست بالطويلة، كانا يسيران يداً بيد عبر شوارع شيراز أثناء الاحتفال، شعرها يتدلّى على كتفيها، وضحكتها تضاهي ضحكته. هي الآن لابسة العباءة، منفصلة عنه. وبينما هي تمضي مبتعدة، كان النسيج الأسود يتموَّج خلفها، والريح تحمل رائحة الياسمين في عطرها.

أجال مجيد النظر في أرجاء غرفته، محدّقاً في فوضى الكتب والأوراق.

رفع الصور الفوتوغرافية من المرآة الكائنة فوق مكتبه. رفعها واحدة إثر الأخرى، وجعّدها ورماها في سلّة النفايات الورقية إلى أن لم يتبقَ شيء في الإطار سوى صورته المنعكسة. كان دفتر ملاحظاته مدفوناً تحت كدس من المجلات القديمة في الرف العلوي من خزانة كتبه. لم ينظر إلى دفتر ملاحظاته منذ أن كتب صفحته الأخيرة. قلّب صفحاته، متصفحاً رسائله التي كتبها إلى أمه، الكَرب يتصاعد في صدره فيما هو ينظر إلى صورتها الفوتوغرافية. بعد دخولات قليلة أخرى، ابتسم لرسومه شبه الواعية أثناء التفكير ورسوماته، بياناته النبيلة النابعة من القلب، تفاصيل هادئة من حياة عاشها، حتى الآن، بصورة واعية بقدر ما يستطيع، مدركاً فيما هو يقرأ أنه لا تزال هنالك أشياء كثيرة وراء إدراكه. وبعدها أتى إلى صورة مُثلمة احتلت صفحة كاملة. توقف كي ينظر إلى الأقواس السود الثخينة، الشق الأحمر والدرزة السوداء الفاتحة. تذكر أنه رسمها، وحتى أكثر من ذلك، تذكر اليوم الذي رآها فيه.

***

في ذلك اليوم، كان مجيد لا يزال صغيراً جداً كي يرى ما فوق شقيقه. وقف على أطراف أصابع قدميه خلف كتف جمشيد، مختلساً النظر إلى صالون أبيه. «لا تنفث أنفاسك عليّ!» قال جمشيد، الذي نخسه حينها، وكاد يضرب قدميه.

«حسناً؟» قال جمشيد. «ادخل».

«لا، ما من سبيل»، قال جمشيد. «أنت الذي يدخل».

«آن الأوان لك كي تفعل ذلك»، قال جمشيد فيما هو يتنحى جانباً.

كان مجيد واقفاً هناك فقط، على العتبة. ثمة طاس مليء بقطع نقدية طليقة يستقر على طاولة روكوكو[1] منقوشة بجانب كرسي المنتدى العائد لأبيه. كانت عملات التومان كلّها نكلات[2] مستديرة نُقش على أحد جانبيها

1- روكوكو rococo: أسلوب في التزيين وفن العمارة يتميز بالزخرفة البالغة، وقد راج في النصف الأول من القرن الثامن عشر – م.

2- نكلات nickels: جمع «نكلة»، وهي قطعة نقدية قيمتها خمسة سنتات. في المتن أعلاه، المقصود عملات نقدية صغيرة جداً – م.

أسدٌ في الوسط يحمل سيفاً، الشمس وراءه، وفي الجانب الآخر، توجد صورة محمد رضا شاه پهلوي.

كان شقيقه الأكبر منه سناً مستنداً إلى إطار الباب المقوّس، ذراعاه معقودتان، رِجله اليمنى مرتدة على رِجله اليسرى. في الخامسة عشرة، كان جمشيد لا يزال يعلو على شقيقه الأصغر منه سناً بأكثر من طريقة واحدة.

«سوف يعلم»، قال مجيد. «إنه ليس بالشيء الصائب. سوف نقع في مشاكل جمة».

«لن يعلم. لقد شاهدتُه وهو يرمي قطعته النقدية في ذلك الطاس من جيوبه وهو لا يحصيها». مال جمشيد إلى الأمام، وهو يحتفظ بوضعه المغرور. «الآن، إذا أنت خائف من القيام بذلك، سأكون في منتهى السعادة أن أفعل».

«لستُ خائفاً! إنه مجرد... إنه مجرد... غير صائب»».

«حسن، سأفعل ذلك»، قال جمشيد وهو يدلف إلى الداخل.

إلا أنّ مجيداً أمسك بذراعه.

«لا. سأفعل»، قال، وهو يمشي على مهل نحو الطاس. التفت إلى الوراء. «كم نحتاج؟».

ابتسم جمشيد ورفع أربعَ أصابع. رفع مجيد القطع النقدية بحذر، ساعياً إلى عدم تحريك أو بعثرة تلك القطع النقدية المحيطة بها. «لنذهب»، قال، بتبختر جديد في مشيته.

حيّاه جمشيد: «كما تقول، سيدي!».

سلك الشقيقان الطريق الترابي مارين بالكثبان الرملية. كان جمشيد يمشي بخطوات نشيطة، والقطع النقدية تخشخش في جيبه. كان يريد أن يشعر بالسعادة والثقة بالنفس فيما يتصل بما كانا يفعلانه. لم يكن يفكر في أيّ شيء آخر طوال أسابيع، منذ تلك الليلة التي اقترح فيها شقيقه الخطة. سرقة المال من أبيه كي يفعل شيئاً ما بحيث لا يستطيع أن يُخبر مخلوقاً يجعله يحس بأنه حقير، إلا أنه عقد العزم على أن يقوم به بأية حال من الأحوال. زيادة على ذلك، لا يوجد سبيل للخارج حالياً، طمأن نفسه.

وصلا إلى حافة الكثبان الرملية حيث كان هنالك نفر قليل من الصبيان

لا يزالون يتحركون دائرياً في غير نظام، هنا وهناك. على مدى لحظة موجزة فكر مجيد في الركض صوب المنزل، غير أنّ جمشيد أخذ زمام المبادرة، ومشى مباشرة نحو المجموعة. سلّم على الصبيان بإيماءة من رأسه، وبعدها أرشد مجيداً إلى الأمام. «أنت أولاً».

نظر إليه مجيد على مدى لحظات قليلة، من دون أن يتفوّه بشيء. الصوت الوحيد هو صوت القطع النقدية في جيبه.

«أعطني تومانين»، قال جمشيد. «إنك لا تحتاج سوى تومانين لك وحدك».

أعطى مجيد نصف النقود إلى شقيقه، وبعدها مشى بتؤدة إلى داخل الكهف البارد، المظلم. كان صوت صفير الغلمان ومداهنتهم سرعان ما تلاشى. أصبحت عيناه متكيفتين على نقص الضوء، إذ لا يوجد سوى مصباح كيروسين شحيح الضوء. وخلفه يوجد ظل امرأة تضطجع مائلة إزاء الحائط مثل رسم كهف غابر. وقف من دون حراك، محدّقاً في الظل، خائفاً من النظر إلى الشخص الحقيقي. كانت ضئيلة الحجم، سمينة الأطراف. وقفت وظهرها إلى الجدار ورِجلاها منفرجتان قليلاً. كانت ترتدي عباءة سوداء مغبرة تمس قصبتيْ ساقيها مساً خفيفاً. «اقترب»، قالت. «لا يمكنك أن ترى مِن هناك».

باغته العمق الحَلْقي لصوتها. شقّ طريقه رويداً رويداً مقترباً منها لكن لم يكن بوسعه أن يُميّز وجهها. كان رأسها إزاء الجدار، بعيداً من الأنظار. أشارت إلى سلّة محبوكة تبعد عنها أقداماً قليلة وأمرته: «ضع النقودَ هناك». التزم بأمرها.

«تعال، يا غلام»، قالت له. «لا أملك النهار كلّه».

أشارت إلى رقعة من الأرض أمام رِجليها مباشرة. مشى وجلس، لافاً ساق على ساق. إلا أنه خفض بصره ناظراً إلى الأرض.

«إلى الأعلى، يا غلام»، قالت. «انظر إلى الأعلى». فتحت عباءتها. كانت عارية تحت العباءة. نظر إلى ثدييها. كانا محتقنين، كبيرين بنحو فظيع، كأنهما يوشكان أن ينفجرا من جلدها. تحرّكت عيناه إلى الأسفل. كان بطنها مدوّراً ومنتفخاً قليلاً. فرجت ساقيها باتساع. مال قليلاً إليها. كان المظهر تجريداً

بالنسبة إليه، أربعة أقواس تُحيط فتحة داكنة. في القاع، حيث تلتقي الأقواس، ثمة درزات طازجة، ذات دم جاف، لامع يُحيط الجرح. تطلع إليها، ساعياً إلى أن يُميّز الوجه خلف الحجاب، وسألها: «هل لحقك أذى؟».

«حسناً، هذا يكفي»، قالت بغتة. سدّت رِجليها وسحبت عباءتها ولفّتها حول جسمها. ثمة بقع ندية سوّدت القماش المحيط بثدييها ولمح وجهها فيما هي تميل إلى الأمام كي تضبط حجابها. كانت عيناها سوداوين وتشعان بقوة. كان فمها قطعة رفيعة متجهاً للأعلى، وشفتاها وقائيتين ورفيعتين. بدت يافعة، لعلها في سن العشرين، إلا أنه لم يستطع أن يجزم. كان وجهها ذابلاً مثل صخرة صحراء، تكاد تتفطر مما يبدو أنه تعرّضٌ مستدام للأحوال الجوية. «اذهب»، قالت له. «اخرج من هناك».

ثمة ممر يقع في الناحية الأخرى من الكثيب الرملي. اقتحم مجيد أشعة الشمس اللافحة وانتظر شقيقه. بعد لحظات قليلة صامتة في الريح والصحراء، خرج شقيقه من الكهف ضاحكاً وراح يصفق بيديه، رامياً ذراعه حول كتف مجيد فيما هو يرشده إلى الطريق.

«إنها شيء ما، لا؟» قال جمشيد. «مضى عام منذ أن شاهدتُها. لقد ازداد وزنها نوعاً ما. إنما في الأقل هذا ما جعلَ ثدييها صحيين. هووو!».

سار مجيد بصمت تحت ذراع شقيقه واستجمع كلمة «نعم» ضعيفة، وبعدها غطى على وصف شقيقه المفصل لجسم العاهرة وعيوبه.

كانت هذه هي أول مرة يشاهد فيها مجيد امرأة عارية بهذا المعنى. وما أزعجه كثيراً جداً، أنه لم يُثَر بالطريقة التي كان يعتقد أنه يجب أن يشعر بها. لم يكن قادراً على زحزحة صورة الثديين المحتقنين، البطن المنتفخ، والدرزة التي نادراً ما تُرى على عضوها الأنثوي. لم يكن يعرف أن الدرزات أصلحت شقاً شرجياً وأن جسم المرأة هو الذي أنتج طفلاً تواً. لم يكن يعرف أنه سوف يلتقي الطفل حديث الولادة الذي كان قد شق طريقه عبرها قبل أيام معدودات لا غير. كان قد أحس بالطاقة التي انبعثت من كلّ بوصة في جسمها، وهذا الأمر سحره، وأربكه، وألهمه.

وما إن وصلا المنزل، حتى توجه مجيد مباشرة إلى غرفته، متجاهلاً

استفسارات شقيقه بشأن حاجته إلى ملامسة نفسه[1]. جلس وراح ينظر خارج الشباك إلى الأشجار المشذبة، والكثبان الرملية وراء الفناء، والأفق وراء كلّ شيء. كانت صورة المرأة ورائحة عضوها التناسلي قد عَلِقا بباله. كان قد فهم داخلياً أنه تحت بشرتها الناعمة وجسدها الرقيق، تجيش قوة حياتية ضارية، شرسة، حيوية، أكثر نشاطاً وأكثر غموضاً من كلّ ما يجرؤ على تخيّله. فتح دفتر ملاحظاته وأخذ مؤشّرين[2]، أحدهما أسود والآخر أحمر، ورسم ما شاهده، ودمغ الصورة في ذهنه إلى الأبد.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

1- حاجته إلى ملامسة نفسه his need to touch himself: المقصود هنا حاجته إلى مداعبة عضوه التناسلي - م.

2- المؤشر marker: أي أداة التأشير، أو الأداة التي نعلّم بها جملة أو رسماً على الورق، إلخ - م.

حوض الأزهار

توقف مجيد عند مَدخل البستان. عطر ثمار الإجاص المُزهرة ملأ الهواء. كان من المفترض أن يصل قاطفو الفاكهة في غضون شهرين، ومجيد لم يَدع موسماً من مواسم الجني يفوته. كان يحب قاطفي الثمار. كانوا كلّهم ينتمون إلى أسرة واحدة، رئيستهم أُم طول قامتها خمسة أقدام كانت تؤدي دور رئيس العمال على أولادها الستة مديدي القامات. كانوا ينتمون إلى قرية صغيرة تُدعى «فَديشه» تقع خمسة وأربعين كيلومتراً جنوبي غربي نيساپور. في بداية الصيف، كانوا يأتون كي يقطفوا الكرز، الكرز الحامض، الخوخ، المشمش، والإجاص. كانوا يعملون يومياً من شروق الشمس حتى حلول الظلام، يقطفون ثمار كلّ البساتين في نيساپور. أما في بقية أيام السنة، فكانوا يسافرون إلى المدن القريبة، يدرسون ويذرون حقول الحبوب.

كانوا يَصِلون إلى البستان قبل انبلاج الفجر في شاحنة القطاف العائدة لهم المحمّلة بالسلالم، السلال، مقص السياج، عربات يدوية، وأكياس بلاستيكية شبكية. كانوا يقسّمون الأشجار إلى ثلاث مجموعات، كلّ شقيقين يعملان على شجرة واحدة. أحدهما يصعد السلّم، يقطف الفاكهة، ويرميها في السلّة. أما الآخر فكان يضعها في الأكياس، ومن ثم يملأ عربة اليد، وينقلها بالعربة خارجاً إلى الشاحنة. في حين أنّ الشقيق الأخير يقص الأغصان وينقل الدرج إلى الشجرة التالية. بينهم، هم الأشقاء الستة، كانوا يتفحصون بدقة ثلاث أشجار في وقت واحد، في حين أن أُمهم تذرع المكان جيئة وذهاباً، تقيس الوقت بسوط كانت تصفعه بقوة على رِجلها. كانت تُشغّل أبناءها حتى حلول الظهر، حينها تسمح لهم بأن ينالوا استراحة بغرض تناول غداء سريع. كان ميرزا يسميها «الكولونيل». غالباً، في ما بعد

الظهيرة، لمّا تغدو الحرارة لا تُطاق ويبدأ ملل التكرار، تباشر الكولونيل في أغنية قرار وجواب[1] بحيث تجعل أولادها يعملون بنشاط في ضربات سريعة مُنتجة.

اليوم، بدا المنزل خالياً بنحو غامض. نظر مجيد خلسة عبر النوافذ إلى الأرضية، ثم دار حول المنزل وحظيرة الماشية. الحيوانات وحدها كانت تتحرّك دائرياً في غير نظام هنا وهناك، لا حيوانَ منها انزعج بسبب حضوره. جلس تحت شجرة أكبر-آغا، مستنداً إلى جذع ناعم، إحدى رِجليه مستقيمة والأخرى مثنية عند الركبة وذراعه تستريح عليها، ورأسه مائل للأعلى فيما هو يُغمض عينيه. سوف ينام القيلولة. قيلولة قصيرة ليس إلا.

«صديقي»، صاح صوتٌ ناعم.

فتح عينيه ورأى ميرزا واقفاً هناك يحمل صينية وعليها طقم الشاي. لم يرَ ميرزا منذ عودته من السجن. صُدِم ميرزا بتحوّله وبان ذلك على وجهه. ابتسم مجيد. «إنه يبدو أسوأ بكثير مما هو عليه فعلاً. اصطدمتُ بجدار. هذا هو كلّ شيء».

أنزل ميرزا الصينية. «المكان الذي أتيتُ منه يُسمى [السقوط من السلالم]».

سكب الشاي. أغطس مجيد مكعب السكر العائد له قبل أن يأخذ رشفة. «كنت أفكر تواً في الكولونيل وأبنائها».

«سيأتون أبكر قليلاً هذا العام. الجو حار بنحو يسبق أوانه».

«أين الجميع؟».

«إنه عاشوراء. كلّهم عند الساحة لرؤية [مسرحيات التعزية]».

«لماذا لم تذهب؟».

نفخ ميرزا قدح الشاي العائد له كي يبرد ومن دون أن يرفع بصره قال: «إنها قصص تتعلّق بالرجال المتحاربين، ماتوا منذ أمد بعيد. عائلات تشتت أفرادها ونزحت إلى أمكنة أخرى. أحبة تفرّقوا قبل أن يذوقوا حلاوة الحب.

1- أغنية قرار وجواب call and response song: المقصود هنا أغنية ذات صوت خفيض ومرتفع بالتعاقب. كنا شرحنا آنفاً معنى القرار والجواب - م.

بلدانٌ انقلبَ عاليها سافلها، بلدان لا يكاد يميزها المرء. وكلّها تبدأ بالعمل بنشاط على ألحان جميلة وكلمات شاعرية؟ لا، ليس لي».

أشار بيده علامة الإبعاد فيما هو يرتشف شايه واستأنف قائلاً: «فضلاً عن ذلك، أنا أصلاً عشتُ الماضي. أفضّل أن أتناول الشاي معك، هنا والآن».

أفرغ ميرزا كأسه، صفقه بقوة فيما هو ينزله على الصينية، ووثب على قدميه. «تعال معي».

تبعه مجيد إلى المَزاهر على طول جانب المنزل، وراح يصغي فيما هو يُشير بإصبعه إلى أغصان الورود، رقعة زهرة الثلج، حفنات الخشخاش المُقرّن، مفكراً في الاختلاف بين تلك الزهور التي نمت، أزهرت، وماتت في ضربة موجزة واحدة، والومضات الحابسة للأنفاس، ومضات العنفوان والرائحة الناتجة، وتلك الزهور التي يجب أن تتم ملاطفتها كي تتفتح لمجرد أن تذبل تحت النظرات المحدّقة القاسية لشمس الصيف. كانت زهوره الأثيرة هي المعمرة، تلك الزهور التي تحيا وتموت في كلّ موسم، المرة تلو المرة، عميقة الجذور، هادئة ودائمة، تتلاشى تدريجياً من دون تبجح.

استدارا عائدين إلى المكان الذي بدآ به وسارا الدرب معاً. ابتسم مجيد وقال: «سمعتُ ما يتعلّق بمينا».

وضع ميرزا وجهه بين يديه وقال: «أوه يا إلهي، لا أزال أحس أني مروَّع. هو حتى لم ينظر إليّ».

«لا أحسب أنه سيأكل الدجاج ثانية».

ضحكا وسارا بقية الطريق صامتين، صوت الحصى تحت أقدامهما. رنا مجيد ببصره إلى ظلة الأشجار المتدلّية على الطريق ونظر بعينين نصف مغمضتين إلى أشعة الشمس التي كانت تشق طريقها عبر الأشجار. «قل ما تشاء، لا يسعني أن أتصوّر هذا المكان بألا يكون هنا البتة».

وضع ميرزا يداً على كتفه، النظرة البادية على وجهه هي النظرة المكتئبة نفسها منذ ذلك اليوم، قبل بضعة أعوام خلت، لمّا حَمَل الجسم عديم الحياة للمعزاة الغائبة عن الوعي بين ذراعيه. خاطبه ميرزا قائلاً: «يا صاحبي، ثمة أشياء خارج سيطرتنا».

«أنا أفهم هذا».

«إني أتكلّم عن تجربة. فقدتُ حياة. لذا وجدتُ حياة أخرى». فتش ميرزا في عينَي الشاب. «الأرض هي الأرض، مجيد. كلّ الأشياء التي تنشدها موجودة معك».

«أعرف».

«افعل إذاً ما يأمرك به أكبر-آغا. اذهب إلى باريس. ابدأ حياة جديدة».

«سأكون هنا بعد ظهر الغد من أجل مباراة النرد».

«هل تحب أن تخسر؟».

«أخسر معك فحسب».

اجتاز الأبواب الضخمة وراقب فيما كان ميرزا يغلقها. تردد صدى ثقلها في أذنيه. وقف في الطريق المؤدي إلى ساحة المدينة في اتجاه واحد وإلى المنزل في الاتجاه الآخر. كان يعرف أنه يجب عليه أن يقصد المنزل كي يتفادى مواكب وحشود عاشوراء، إلا أنه يريد أن يرى شقيقه وكان يعرف على وجه الدقة أين يمكن أن يجده. انعطف يساراً، الريح تركل الغبار والشمس متوهجة في الأعلى.

***

كان المُلّا يذرع المكان جيئة وذهاباً، ينقر بإصبعه حبات مسبحته. أمامه، أعضاء الهيئة قاطبة. كلّهم شبان مخلصون يجلسون على شكل صفوف وسيقانهم ملتفّة بعضها ببعض. جلس جمشيد في الصدارة وفي الوسط. كان قد جمعهم كلّهم هنا بعد الإفطار. الآن الرجال كلّهم لديهم ظلال الساعة الخامسة. قمصانهم الرسمية البيض تحمل علامات العَرَق. يجلس لصق جمشيد رجلٌ يُدعى أميناً، وهو شخص تقليدي قوي، وتابع مخلص لرجل الدين. كان يتأرجح فيما كان ينقر بإصبعه حبات المسبحة بينما كان رجل الدين يقول: «هذا يوم وقور بالنسبة إلينا، يوم حِداد وتذكّر الإمام الحسين. ما عانى منه وضحّى به باسم الكرامة الإنسانية. إلا أنه كذلك يوم تصفية الحساب». توقف عن المشي وواجه الفتيان واستطرد قائلاً: «كثيرون سوف

يتجمعون كي يؤشروا [احتفال الأربعاء]، وهو طقس وثني في يوم عاشوراء. إلا أننا مسلمون في المقام الأول. إنهم الأشخاص نفسهم الذين كانوا مسؤولين عن موت محمود رضا، الأبناء ذوو الامتيازات الذين يريدوننا أن ندنس هذا اليوم المقدس. إنهم يريدوننا أن ننسى محمود رضا والتضحية التي قدّمها بحياته. إنهم يريدوننا أن ننسى شقيقته التي اعتدوا عليها وشنقت نفسها على شجرة والطفل لا يزال في رحمها. غير أننا لن ننسى. نحن نعرف مَن نكون وماذا يتعين علينا أن نفعل».

توقف هنيهة عن الكلام. ومن ثم أضاف قائلاً: «ابقوا في مجموعاتكم وكونوا يقظين. هذه هي البداية، ليس إلا».

وقف الشبان لمّا غادر المُلّا الحجرة. أطفأ أمين نقطة الكهرباء. وقف أمام المحتشدين وبدأ ببطء يضرب صدره بالراحتين المفتوحتين لكلتا يديه إلى أن انضم إليه الجميع. أصبح ضربهم أعلى صوتاً، وأقوى. وبعدها بدأ أمين ترنيمته، وهي نواح بمصاحبة اللطم المتكرر على الإمام الحسين وموته. كلّ مقطع يُنشَد وفق إيقاع أيدي الرجال. كلّ واحد منهم يُعيد الحسين إلى الحياة، من لحيته السوداء النامية إلى وقفته النبيلة الجريئة. السطور الأخيرة من الترنيمة قبضت، بتفصيل فاجع شديد، المذبحة الدموية لمقتل الإمام الحسين، وانتهاءً بقطع رأسه. سالت العبرات على وجه أمين فيما هو ينشد، والشبان غطسوا بنحو أعمق في النشوة، يلطمون صدورهم، بنحو أقوى فأقوى، بعضهم يطلق أصواتاً حَلقية، وبعضهم الآخر ينشج، وفريق ثالث يئن. كلّهم منتشون تماماً.

أغمض جمشيد عينيه. كان جبينه أملس زَلِقاً من العرق الناجم من الترنّح واللطم. أحس أنه هادئ ومطمئن، وهو إحساس كان يتملّص منه باستثناء لمّا يكون على دراجة نارية أو في غشاوة الأفيون. لم ينتحب برثاء، ولا بيأس، بل بارتياح.

فتح عينيه، انتهت العبادة الآن. «أغلب النيران سوف تُضرم على طول الطريق المفضي إلى المدينة القديمة» قال أمين. «سوف يُشعلون النيران خلال الكسوف. نحتاج إلى مجموعة تخفر حشود الأكتاف وتجمعهم. نحتاج إلى مجموعة أخرى في الشوارع الجانبية للساحة كي تُبقي حشود

عاشوراء مصطفة في رتل». سحب جمشيد جانباً وهمس قائلاً له: «أبعد شقيقك عن بَصَري، من أجل منفعته هو».

توّجه الشبان خارج «غرفة الهيئة». اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة، امتطوا دراجاتهم النارية مصطفين إزاء الحاجز الحجري عند جانب الطريق. كانت الدراجات مغطاة بشعارات دينية ذات صور مرسومة للأئمة الاثني عشر محشورة عبر قضبان المقابض المعقوفة. كلّ راكب يحمل سلاحاً: عصياً، برجميات من النحاس الأصفر، سلاسل، وحتى سكاكين. ولمّا تبدأ كلّ دراجة نارية رحلتها، يهتف الرجال صائحين: «الله أكبر».

وقف جمشيد وحده في الداخل، اجتاحه إحساسٌ مباغت بالقلق. انتعل فردتيْ حذائه على عجل وغادر سائراً على قدميه. كانت شمس ما بعد الظهر تعمي البصر. ولمّا تكيّفت عيناه على النور الساطع، شاهد شقيقه في الناحية الثانية من الشارع، وهو يحدّق فيه مباشرة. كانت عيناه حادتين ومتأنيتين، ووجهه مُجهَداً تعلوه الندوب نوعاً ما، يبدو الآن أكثر هَرَماً من وجه جمشيد نفسه.

سار جمشيد إلى شقيقه، أمسك بذراعه، وجرّه في اتجاه المنزل من دون أن يقول كلمة. حرّك مجيد ذراعيه ورِجليه بحركات غير مُسيطَر عليها وتمكن من إفلات ذراع واحدة. إلا أنّ جمشيد دار دورة وأجبره على الرجوع إلى الرصيف. «أيها الفتى الصغير الأحمق»، قال له. «هذه ليست لعبة. اذهب إلى المنزل!».

ذُهل مجيد من حنق شقيقه. «ما هذا الذي تفعله، جمشيد؟» قال له. «هذا جنون. هؤلاء الناس متعصبون».

«هؤلاء القوم الذين تسميهم [متعصبين] هم أنفسهم الذين دافعتَ عنهم لمّا كنت طالباً. إنهم الثورة بعينها».

«إنهم سفاحون».

رقق جمشيد صوته، وبعدها أردف قائلاً: «ينبغي لك الذهاب إلى المنزل. سوف يعم العنف وتسود الفوضى، والناس سوف يحاربون بعضهم بعضاً، سوف يحصل هذا في بحر ساعات قليلة. أرجوك، اذهب إلى المنزل».

لم يرفع مجيد بصره عن شقيقه، «جمشيد»، خاطبه قائلاً، «إنك جزءٌ من شيء ما سوف يحطمك. إني أعرف ما فعله حبيب – آغا بك. إني أعرف أنه يهتم بك. إلا أنه لا يستطيع سوى أن يقودك إلى ظلامه هو. لا يسعك أن ترى ذلك لأنك مستميت. من فضلك، لا تفعل هذا».

«أفعل ماذا؟».

«أن تنسى أني قابلتُ قلة ما سميتهم بـ [رفاقك في السجن]. لا تفعل ذلك، جمشيد. إن العنف الذي ترتكبه سوف يُدمرك».

«ألم يخبرك أحدٌ أنه لولا حبيب – آغا لبقيتَ تتعفن في ذلك السجن؟ مَن أخرجك من السجن؟ أكبر؟ أكبر هو لا شيء الآن، إنه مجرد نكرة، ليس إلا. مضى إلى أخيه يتوسّل إليه كي يتصل هاتفياً من أجل إخلاء سبيلك. اتصال هاتفي واحد من حبيب – آغا وبعده أطلقوا سراحك».

اقترب جمشيد من شقيقه أكثر، كاد وجهاهما أن يتماسا: «نحن الثورة».

وبعدها استدار وانطلق يسير مبتعداً. لم يتوقف إلا مرة واحدة كي يقول: «لا تأتِ إلى الساحة. الجميع يعرفون أين كنتَ وأين تقف. إني أحذرك من أجل منفعتك».

ذُهِل مجيد. كانت شكوكية جمشيد، روح الدعابة العائدة له، روحه الهانئة قد حلّ محلّها وضوح الهدف والطاعة العمياء. خطر بباله أنه طوال سنوات حياتيهما معاً، لم يفهم تماماً عمق يأس أخيه. وحاله حال الجميع، ببساطة تقبّل أقنعة جمشيد لأن ذلك أسهل من مواجهة ألمه.

***

كان الخفراء من غرفة الهيئة قد ركنوا دراجاتهم النارية بالقرب من أقواس ساحة المدينة. انتشروا عبر جموع سكان المدينة الذين ينتظرون المواكب الختامية وأداء «مسرحية التعزية»، التي تُنهي يوم الحِداد.

كان مؤدي «مسرحية التعزية» قد مشى إلى ركن مُجتزأ لما كان متجر ملابس في وقت أبكر من ذلك اليوم، إلا أنه الآن غرفة تبديل الملابس. تسلل خلف الستارة. كانت فرسه تقف مُقيّدة إلى مسمار في الجدار. صهلت

الفرس لمّا دنا منها. أنزل اللجام ووضع يده على أنفها، وأمسك بها فيما هو يرخي الشكيمة في فمها ويملّس الأشرطة في موضعها. ومن ثم رمى حشية سرج مُطرز على خاصرتها ووضع سرجاً جلدياً عليها، وضفر الشريط الجلدي العريض، البالي، وسحب الرِكاب، مخمناً ردة فعلها كي يرى أنها أحست بالارتياح. نفضت رأسها إلى الأعلى وصهلت. مرّر يده على عِرفها ودسّ تفاحة صغيرة في فمها.

المؤدي، صاحب متجر الثياب، نظر إلى نفسه في قطعة مرآة مُثبتة بمسمار في الحائط. ثبّت غطاء رأسه، وهو خوذة معدنية مزوّدة بدرع مرنة ذات زرد يغطي مؤخرة عنقه، من الأذن إلى الأذن، نزولاً إلى كتفيه. بسيفه في غِمده، ثوبه الأخضر وجزمتي الركوب السوداوين العائدتين له، كان محيّا من ألف وثلاثمائة سنة خلت. كان محارباً مقدساً.

التفت إلى المؤدين الآخرين، رجال عدّة في سنّه يلبسون الزِيّ نفسه الذي يلبسه هو ومتعلّمون عدّة، وآخرون متّحدون أكثر يلبسون ثياب النساء ببراقع سود تغطي رؤوسهم ولحاهم. غلمان صغار ثلاثة، أولاده، كانوا يلبسون ألواناً زاهية، تضيء وجوههم الفتية، الريانة. وما إن انتهوا من التعديلات على أزيائهم، خوذهم، وأفراسهم، حتى أعطى إيماءة رأس صغيرة بالموافقة لفرقته.

موكب رجال من هيئات عدّة، يجلدون أنفسهم بالسلاسل المتصلة بمقابض خشبية على إيقاع صوت رجل ينشد بصوت عال وبحماسة على مكبرة صوت، كوّنوا دائرة في وسط الساحة وبدؤوا يشغلون مقاعدهم. كان رجال المدينة قد جلسوا بهيئة مجموعات وراءهم، بعض الأشخاص الأصغر سناً يتسلقون على سقوف المتاجر حيث باستطاعتهم أن يروا بنحو أفضل المسرحية التي تكاد تحدث. ملأت الهمسات الهواء فيما يتصل بالفأل السيئ للكسوف الوشيك، وأرسل كثيرون نظرات خائفة إلى الخفراء الذي كانوا مزروعين بنحو رواقي وسطهم. ألقى الخفراء نظرات شاملة وفاحصة على الحشد، منتبهين إلى البسمات الممنوعة والضحك. مجموعة من النساء مجللات بالسواد من قمة الرأس حتى إصبع القدم، عيونهن وحدها هي التي تتطلع إلى الخارج، كن مصطفات بجانبهم. وفي الحال تقريباً، حددن موضع

فتاة بحجاب مرتخ، وهبطن عليها، وجررنها بعيداً. نظراؤهن الذكور فعلوا الشيء عينه مع شاب بقميص قصير الكُم.

تمشى أكبر-آغا على مهل خارج الدائرة، وظل يراقب أفراد أسرته في الحافة الأبعد من الجمهور. كان قد أمضى الصباح وهو يناقش زوجته فيما يتعلّق بالذهاب إلى الأداء، غير أنّ بيبي-خانوم لم تكن بصدد كسر التقليد. وبينما يرى زوجته تتجادل في شيء ما مع قمر، ابتسم. ثم لوّح لنسرين وجعفر.

«قمر»، قالت بيبي-خانوم، «كفي عن النظر إلى سكينة».

«لا أستطيع أن أصدّق أنها كانت تبكي».

«قمر، الجميع يبكون لدى مشاهدة [التعزية]».

«نعم. لمّا تبدأ فعلاً. وليس قبلها».

وضعت نسرين رأسها تحت عباءتها. لم تفهم -أو لم تقدّر- الخصوصية بأن العباءات مسموح بها في الأمكنة العامة. بهمس قلّما يُسمع، دندنت اسمها الشخصي لمجيد، مثل تعويذة: «مجيددي، مجيددي، مجيددي». ثم أكدته بتملّك: «مجيدَم».

جلس محمد مع الرجال المجاورين لقاطع النساء، وراح ينقر بإصبعه حبات مسبحته. انتبه إلى زوجته وهي تتجادل مع بيبي-خانوم. حوّل نظره إلى سكينة التي كانت تنظر مباشرة إليه. طرفت عيناها لمّا لفتت انتباهه وبعدها رجعت إلى بكائها المتشنج. أحس بالرعب، وبعدها عاود النظر إلى زوجته التي كانت تنظر إليه مباشرة، وجهها خالٍ من أيّ تعبير باستثناء الدموع التي كانت تتدحرج على وجنتيها. في تلك اللحظة، عرف أنها كانت تعرف دوماً علاقته الغرامية السرية مع سكينة.

نكس رأسه وغطى عينيه بخجل.

وقف أكبر-آغا بجوار رجل عجوز، وهو أحد أعضاء «تجمع أصحاب محلات النراجيل» وناطقها السياسي الأكثر جرأة. وفيما هو يلقي نظرة شاملة وفاحصة على الحشد، قال الرجل العجوز: «كان هذا على الدوام يوم مواساة بالنسبة إلينا».

«والآن؟» قال أكبر-آغا.

نفض الرجل العجوز سترته، مستعداً للدخول إلى مركز الدائرة. «يا صاحبي القديم»، قال. «انظر إلى العدوان من حولك. ليس ثمة راحة فيها».

نظر أكبر-آغا إلى مجاميع الشبان والنساء الذين ضبطوا أمن الحشد، وفَهم، أخيراً، أنّ الرجل العجوز على حق. فكّر في أخيه وفي كلّ الأشياء التي تغلّب عليها حبيب في حياته. لكن ما الفارق الذي صَنَعه التغلّبُ على الشدائد؟ في اللحظة التي حاز فيها أخوه السلطة، أمسى ذلك الشيء بالذات ما كان يحاربه.

بدأت فرقة النقّارين[1] بالنقر على الطبول. ونفخ عازفو الأبواق لحناً. وعلى مهل، سكت الحشد لمّا مشى الرجل العجوز ودخل إلى وسط الساحة، عيناه نصف مغمضتين على مَشهد مدينة تبدّلت وباتت أبعد عن إدراكه. بصوت لطيف بدأ يتلو:

الشفق يهبط على الأرض والزمن
فيما نحن نتذكرُ مكاناً ومناخاً آخرين.
الشمس والقمر يكادان يتصادمان،
لم يبقَ مكانٌ لزمننا كي يختبئ فيه.
فلا هو يقدر أن يغادر ولا يقدر أن يبقى،
ينبغي أن يُترك بالضبط كما هو عليه الآن.
وفيما الأعوام تصفّ الطبقات على ظهره
سوف يتكون شيء متحجر[2] في تجويف رأسنا.
غروب الشمس، هبوط الليل، الغسق، ظلمة أول الليل،
فيما نحن، في هذه اللحظة، نضلّ طريقنا صوب المنزل.

***

1- النقّار percussionist: البارع في العزف على آلات النقر الموسيقية - م.
2- شيء متحجر fossil: بقايا حيوان أو نبات من عصر جيولوجي سابق متحجرة في أديم الأرض، ويُسمى أيضاً: أُحفورة - م.

فتشت عينا الرجل العجوز الحشد عن شخص واحد لا غير أدرك ما قاله، ولم يجد سوى أكبر-آغا. أومأ برأسه للقاضي، وبعدها أخيراً باشر في تمهيد «تعزية القاسم». وعلى مهل، بصوت مبني بالقوة، روى قصة ابنة الإمام الحسين رُقية المخطوبة لابن شقيق الإمام الحسين القاسم. في خضم «معركة كربلاء»، كان من المُفترَض أن يُحتفَل بزفافهما قبيل مقتل القاسم في المعركة.

كان الحشد قد بدأ أصلاً بالبكاء والتأرجح. كان الخفراء والنساء قد تأثروا كثيراً بالتراجيديا التي تجلّت أمامهم. أما الأشخاص الأقل ورعاً فقد تأثروا بخسائرهم الشخصية وبحريتهم المفاجئة في كونهم قادرين على أن يحزنوا بنحو صريح جداً وسريّ جداً في آن، في وسط عدد غفير من الناس الآخرين.

بتصفيق واحد من يديه، انتهى الرجل العجوز. خرج من الدائرة، ماراً بالمؤدين وأفراسهم في منطقة تبديل الملابس.

كان صاحب متجر الملابس واقفاً وراء أكبر أبنائه سناً، الذي مثّل دور المحارب العريس، القاسم. وكان خلفه ابنه الأوسط في نقاب بوصفه رُقية، التي من المؤمل أن تكون عروساً. قائد الفرقة استهل مسيرة عسكرية من الطبول والأبواق، واصطف أعضاء الفرقة في طابور، وراحوا يمشون في داخل دائرة المشاهدين قبل أن يتوقفوا في شبه دائرة وهم يواجهون الغلمان الثلاثة. بدأ النداء والجواب بين الرجال والغلمان، ساردين بهيئةِ لحن قصةَ الحب المأسوية.

القمر يصعد

وقف أكبر-آغا يستمع إلى مرثاة القاسم. كان فؤاده كسيراً ولم يسبق له، طوال هذه الأعوام الطويلة كلّها، أن أحس بمثل هذه الوحدة الشديدة. سار عبر الطرق الجانبية للمدينة، مُصغياً إلى قعقعة القدور، هسيس الأصوات، نباح الكلاب. رنا ببصره إلى السماء وشاهد القمر بجانب الشمس.

توقف عند المسجد. كان النور يخترق شرخ الباب فيما هو يدفعه ويفتحه ويدخل ماشياً. لا يوجد شيء ما خلا الصمت، الغرفة خالية.

أول مرة جاء فيها إلى هنا، كانت كي يتوضأ عند النافورة ويصلي جنباً إلى جنب مع أبيه. كانت بهجة الانتماء قد ملأته بشعور بالارتياح.

متى أدرك أن المواعظ الدينية التي كان أبوه معجباً بها أيما إعجاب لم تخاطب شكوكه قط؟ متى بدأ يرى الرجال والنساء، يسجدون أمام كتبهم السماوية وأيقوناتهم، مثل قطعان سمك تسبح في دوائر؟

في القاعة الرئيسة، وجد أخاه جالساً على المنبر، وحيداً. كانت القدور تقعقع في البُعد، والجموع البشرية تهتف. انتهى الأداء في الساحة، والمشاركون في المواكب يجلدون أنفسهم فيما هم يغادرون.

رفع المُلّا عينيه عن خرزات مسبحته.

«ثمة شيءٌ يقلقني منذ وقت معين بكل معنى الكلمة»، قال أكبر. «ربما بوسعك أن تساعد. إنك تعرف الشاب الذي شُنق، على ما أعتقد».

«الشهيد، تعني».

«كيف اكتشف هوية الرجل الذي خصّب شقيقته؟ لا أحدَ في أسرتها عرف أنها حامل إلى أن انتحرت».

«مضت لرؤية شقيقها قبل ليلة. ربما أخبرَته وقتئذ».

«لا أظن هذا».

«ربما الفتى الذي حطّمها تباهى بأنه طارحها الغرام وخصّبها».

«ليس بالاسم».

أغمضا عيونهما. رفرفت رعشة طفيفة عبر تعبير المُلّا واقترب أكبر: «كيف عرفت مَن يكون هو؟».

«لم أعرف».

«لماذا إذاً قلتَ له إنك تعرف؟».

«لم أقل له ذلك».

«إنك تكذب».

«أنا لا أكذب».

«إنك تكذب!».

«لا. أنا لا أكذب! لم أخبره مَن يكون، لأني لا أعرف. إني ببساطة أخمّن ذلك وأحد طلابي أبلغه بالأمر. وكنتُ على حق».

هبّ المُلّا واقفاً وحملق في أخيه فيما هو يستطرد قائلاً: «الشك كالسرطان، أكبر. كلّما غذّيتَه أكثر، ينتشر بنحو أسرع. والشاب توفي وكرامته ظلت سالمة وغير منقوصة».

«الغرور الزائف ليس كرامة».

«لا يمكنك أن تفهم».

«اشرحها لي إذاً».

«ينبغي لهم أن يدفعوا ثمن الانتهاكات التي عانينا منها».

«من هم [هؤلاء]؟».

«إنك تعرف تمام المعرفة، أكبر. الوثنيون والكفار. الأرستقراطيون الذين جعلوا من أمتنا عاهرة لأسيادهم [الغربيين]. أنت من بين الناس جميعاً يتعين عليك أن تعرف قيمة العدل. ما الشيء الذي من الجائز أن يكون أكثر أهمية؟».

نظر أكبر إلى أخيه. «أنا متأسف، حبيب».

«متأسف على ماذا؟».

«متأسف على ما فعله بك، وبشقيقتنا، وأمنا[1]. أنا متأسف لأني لم أكن أعرف كيف يسعني أن أوقف المسألة».

«هذا الأمر لا يتعلق بنا».

«هذا الأمر يتعلق بنا دوماً».

«فكر بما تشاء. لا يسعك أن تبدّل شيئاً. ما جرى قد جرى».

تأمل أكبر وجه أخيه، وجه إنسان غريب، وخاطبه قائلاً: «الفوضى تسود خارج هذه الأبواب، فوضاك. وفي الحال، حين يستقر الغبار، ستكون مسؤولاً عنها كلّها. قل لي، كيف تشعر حالياً؟».

رفع المُلّا بصره إلى أخيه، ومن دون ذرة سخرية أو ازدراء قال: «لا أشعر بشيء».

***

اختبأت مِيهري وسط النساء في عباءتها وهي تشاهد «التعزية». عيناها مخضلتان بالدمع فيما ينشد القاسم أغنية لحبيبته وهو يرتدي ثيابه استعداداً للمعركة. ذابت مِيهري في حشد القماش الأسود حيث كان بمستطاعها أن تدع نفسها تحس بانتماء تملّص منها في أيّ يوم آخر. تأرجحت مع معشر النساء، تمتعت بدفء الوصال المشترك فيما هي تمس الأكتاف مع أولئك النسوة تحديداً اللواتي بخلاف ذلك كن يعرضن عنها ويضربنها بعنف كما الذبابة.

ابتسمت لمجموعة من الأطفال كانوا يتململون ويقهقهون في الصف الأمامي. إلا أنّ القاسم كان يخرج من الخشبة على فرسه. انكسر السحر الذي أَسَر الجمهور. أحست مِيهري أنها مرئية ووقفت فجأة وشقت طريقها مروراً بحشود النساء إلى أحد المَداخل المقوّسة للساحة. يممت وجهها شطر المنزل، كانت عباءتها ملتفة بإحكام حول جسمها، يدها المقبوضة

1- هنا يُلّمح أكبر-آغا إلى أبيه، وسلوكه السيئ مع حبيب وشقيقتهما زهراء وأمهما - م.

بإحكام ونصف وجهها مكشوفان. خفضت رأسها فيما هي تسرع عبر الطرقات الجانبية الضيقة المظلمة للمدينة. كان صوت «التعزية» يغدو أضعف فأضعف.

استحالت السماء رمادية داكنة. بدأ القمر يكسف الشمس. طوال الطريق المؤدي إلى المدينة القديمة، كان الشبان يثبون على النيران التي أُضرمت في الأجمة. بعض الرجال أشعلوا أرجل سراويلهم. فيما كان آخرون ينطلقون مسرعين بوجنات محمرّة وثقوب وحيدة في قمصانهم، منشدين بصوت أعلى: «لوني الأصفر ملكك، لونك الأحمر ملكي».

الطقس الزردادشتي مُوغِل في القِدم، أقدم بكثير من عاشوراء. في أعلى وأسفل طريق البستان، كانت جذوع الأشجار تطقطق وتفرقع. تجمع مزيدٌ من الرجال، متحدّينَ رجالَ الدين. ثمة سيارة تحميل تسير بسرعة على طول الطريق، ومن ثم تتوقف بارتجاج. كان جمشيد يجلس متوتراً في مقعد الراكب بجانب أمين، السائق. يركل الباب ويفتحه، ويقفز خارج الشاحنة وفي أعقابه يقفز عدد من أتباعه السياسيين.

وفيما هو يلوّح بهراوته، تزعم الطريق المؤدي إلى أقرب نار. جمد القافزون، وراحوا يحدّقون. نظر جمشيد إلى فتى صغير، لا يتعدّى عمره الرابعة عشرة. وبعدها نظر إلى الشاحنة. كان أمين يجلس وراء عجلة القيادة، يراقبه. واجه الفتى وهزّ هراوته على رأسه. اصطدم الفتى بالأرض وجرّه جمشيد من قدم واحدة إلى مؤخرة الشاحنة، رافعاً إياه من قميصه، ورماه في داخلها.

واحداً بعد الآخر، سائر الشبان ضُربوا وجُرّوا إلى مؤخرة الشاحنة، وكان أنصارُهم يركلونهم مرة أخرى إذا ما حاولوا الهَرَب. انتهت وظيفته، احتل جمشيد مقعده في الأمام. أومأ أمين برأسه علامة الموافقة، ومن ثم خبط بقدمه بشدة على الغاز كي يقوم باستدارة مفاجئة على شكل حرف U فيما هو يسير مسرعاً نحو النار التالية. هرع فتيان قليلون ودخلوا الغابة، كانوا قد مضوا بعيداً جداً بحيث من الصعب أن يُطاردهم المرء.

في الوقت الذي وصلوا فيه إلى النار الأقرب إلى المدينة، كانت النار

مهجورة. كان الخبر قد انتشر. وقف جمشيد على ألسنة اللهب الخامدة، الضوء يلمع فوق الدم الذي على هراوته. قطرات قليلة تدحرجت على طول الخشب وسقطت، مثل قطرات مطر مشتعلة، بصوت هسهسة.

في مؤخرة الشاحنة، كان المُعتقلون قد انكمشوا سوية مرتعدين، وراحوا ينظرون إليه بعيون خائفة لم تكن تخفي ازدراءهم. أحبّ هذا الازدراء. كان أقوى. كان مُسيطراً. كان صالحاً. «أمين»، هتفَ قائلاً: «امضِ قُدُماً وخذهم إلى منطقة إصدار الأحكام. سوف أمشي نحو الساحة وأنتظرك هناك».

***

سار مجيد بسرعة، الأغصان الصغيرة تطقطق تحت قدميه. كانت وجنتاه محمرتين من المحرقة التي قفز فوقها. ذهنه مروَّع بما شاهده تواً: شقيقه يضرب أصدقاءه بينما كان هو مختبئاً في الأشجار، شقيقه يجرّ فتى إلى مؤخرة شاحنة ومن ثم يقف على نار حاملاً هراوته، وجهه رائق تقريباً.

اجتاز مجيد الغابة، متعقباً القمر الصاعد. القدور تقعقع بصورة متقطعة في البُعد فيما كان سكان المدينة يستعدون للكسوف. أصوات قاسية ساعدت على طرد الأرواح الشريرة. كان بمستطاعه أيضاً سماع «التعزية». أغنية القاسم لعروسه. مجيد تخيّل المَشهد: الشاب القاسم يستعد للمعركة، يصف بشكل حلو جمالها. سحب صدرته بالدرع المرنة ذات الزرد فوق رأسه فيما هو يتغنى بالتقوس الدقيق لحاجبها. أوثق حزامه مع سيفه وغِمده حول خصره فيما هو يُبدي إعجابه بفمها الشبيه بقوس كيوبيد[1]. لبس كفناً أبيض استعداداً للاستشهاد فيما هو يمدح تموّج شعرها الأسود كالغراب. وبعدها كفّ عن الغناء، ومسح صورتها من باله، وانطلق على فرسه كي يلاقي مصيره.

القمر استمر في الاندفاع ببطء فوق الشمس. أصبحت الشمس أكثر ظلمة. سار مجيد عبر الأشجار، متعقباً الضوء المتلاشي. رأى الطريق وهرع في اتجاهه.

1- كيوبيد cupid: إله الحب عند الرومان - م.

على كتف الطريق، وجد مِيهري ترنو ببصرها إلى الكسوف. أغمضت عينيها نصف إغماضة.

«لا تنظري إليها»، قال. «سوف تحرقُ عينيك».

أمسكت بالعباءة بإحكام حول وجهها.

«أنا أعرفكِ»، قال لها.

«رجالٌ كُثر يعرفونني».

حوّل مجيد بصره. «لا. أعني، قبل أعوام خلت، في الكهف، رأيتك».

«ماذا تريد؟».

«ذلك اليوم في الكهف»، قال لها. «ماذا جرى لكِ؟ مَن فعل ذلك بكِ؟».

«فعل ماذا؟».

«عضوك الأنثوي. كان ينزف وفيه درزة».

«أوه. نعم. إني أتذكرك الآن. مَن أنت؟».

«مجيد».

رقّ وجهها. «يا إلهي. إنكَ تبدو على غرار أمك بالضبط. العينان نفسهما على وجه الدقة».

«هل تعرفين أمي؟».

«لا. لكنها كانت لطيفة معي. كنتُ متأسفة لمّا فارقت الحياة».

«لا أزال أفتقدها». كان التعبير البادي على وجهه موجعاً، ويافعاً جداً.

«كان لي ابن مرة واحدة أيضاً»، قالت مِيهري. «القابلة، رحمة الله على روحها، أخذته إلى أسرة طيبة في مَشهد. قبل عشرة أعوام وثلاثة أشهر خلت، على وجه الدقة. في يوم ولادته».

نظر مجيد إليها من دون أن يصدّق. هذا شيء مستحيل، ومع ذلك إنه شيء ممكن تماماً أن تكون أُم جعفر. «أرجوكِ»، قال. «دعيني أراك في منزلي».

«سأكون على ما يرام».

«من أجلي. هذا الأمر من شأنه أن يجعلني أشعر أني في حال أفضل. أرجوك».

مصابيح أمامية ذات ضوء عال اخترقت المكان بغتة. أمسك مجيد بذراع مِيهري وجرّها إلى داخل الخضرة الكثيفة. جثما وسط الأشجار لمّا مرّت الشاحنة مسرعة. السرير[1] الآن خال. أحس مجيد بالعظام في ذراعيها، هشاشة جسمها. تنفس بعمق، ولما اعتلاها، كان بمستطاع مِيهري أن تحس بأنفاسه على رقبتها. كان الأمر لا يشبه ما خبرته مع الرجال الذين عرفتهم، المرة تلو المرة. أغمضت عينيها واستنشقت رائحته، رائحة اللوز الأخضر، رائحة مرحلة الشباب وجهلها باليأس.

ولمّا توارت الشاحنة حول المنعطف، سارا على جانب الطريق وبدآ يمشيان، هو في الأمام، وهي خلفه. الأغصان الصغيرة والصخور تطقطق تحت خطواتهما المتزامنة. كان بوسعه أن يحس بجسمها الهزيل وراءه، وراوده شعور بالهدف، بالمنفعة التي لم يسبق له أن أحس بها منذ زمن السجن. توقفت مِيهري فجأة في مضامرها ووقفت ترنو ببصرها إلى السماء. كان القمر قد كسف الآن الشمس تماماً. ليل في منتصف النهار. آلاف من النجوم الساطعة تبعثرت عبر السماء. أغمضت عينيها وأحس مجيد كما لو أنّ هذه هي الظاهرة التي ينبغي له أن ينتبه إليها، الوجه القاسي، الكسير، لامرأة لم يحدث أبداً أن ساندها أحد، امرأة كانت قد عاشت أكثر بكثير مما عاش هو، عاشت كلّ يوم من أيام حياتها كلّها.

«مجيد»، قال صوت.

كان ذاك صوت شقيقه. لا يزال يحمل هراوته. «ماذا تفعل؟ قلت لك أن تمكث في المنزل».

سحبت مِيهري عباءتها على وجهها.

«لا تقلقي، يا أخت»، قال جمشيد. «نحن كلّنا نعرف مَن تكونين».

مدّ مجيد ذراعه جانباً كما لو أنّ هذا من شأنه أن يحميها. «أنا أرى منزلها لا غير. أَعِدكَ».

رفع جمشيد هراوته ودفع شقيقه بطرفها غير الحاد المُضرّج بالدم.

1- السرير the bed: المقصود هنا مؤخرة الشاحنة. بالدارجة العراقية: «بودي» الشاحنة - م.

«حذرتكَ أن تبتعد والآن أجدكَ في جانب الطريق بصحبة عاهرة. إنها تذهب إلى المكان الذي تنتمي إليه ولن ترجع أبداً».

هزّ مجيد رأسه. «عليكَ أن تمر من خلالي كي تصل إليها»[1].

أتت شاحنة أمين مسرعة عبر الطريق. كانت الأضواء العالية تعميهم جميعاً. في فيضان الغبار، توقفت. «مجيد»، همس جمشيد. «اركض».

إلا أنّ مجيداً لم يتحرك. قفز الرجال من مؤخرة السيارة، وهم يتبعون أميناً. كان حانقاً بنحو جليّ. «جمشيد»، قال، «حذرتكَ أن تُبقي هذا الخائن بعيداً عن ناظريّ». وبعدها نظر إلى مِيهري: «أنا أعرفكِ. أنتِ عاهرة».

بادلته مَيهري النظر: «أنا أعرفك، أيضاً. وأعرف والدك».

كان الاتهام قد أحدث تذمراً بين الرجال. تحركوا صوب مِيهري. حاول مجيد أن يسد عليهم الطريق. «أرجوكم دعوها وشأنها. لم تفعل شيئاً خاطئاً. نحن لم نفعل شيئاً خاطئاً. إني أرى منزلها لا غير».

عددٌ منهم أمسكوا بذراعيه. أما الآخرون فذهبوا إلى ميهري، وطرحوها أرضاً، رافعين هراواتهم. صرخت. كانت ثمة ضربة خشب ضعيفة. صرخات.

صرخ مجيد تعبيراً عن الكَرب، وقاتلَ الرجال. ركل، حرّك ذراعيه ورِجليه من دون نظام. صفعه أمين على وجهه، كانت الصفعة قوية بما يكفي كي يتذوّق الدم. ركل أمين في بطنه، وراح يهوي على ركبتيه.

سكت كلّ شيء، الأشياء كلّها مرة واحدة. حتى صرخات مِيهري. الأشخاص الذين كانوا يضربونها ضرباً مُبرّحاً بدؤوا يرجعون إلى الشاحنة. رفع أحدهم عباءتها وغطاها. رفع مجيد بصره ناظراً إلى أمين. قال بصوت هادئ: «أنتم لستم أكثر من قَتلة».

«إنك تدافع عن مومس؟».

«أنتَ هو المومس».

تخضب وجه أمين بالاحمرار. مشى خلف مجيد، أمسك بشعره، وجرّ رأسه إلى الوراء. اندفع جمشيد بقوة لمساعدة شقيقه، إلا أن الرجال

1- تمر من خلالي go through me: أي بمعنى أن أكون أنا وسيطاً - م.

ردعوه. قعقعت القدور وفي مكان بعيد، بعيد جداً تابعت النسوة صرخاتهن المجلجلة على القمر الذي غطى الشمس، تاركاً العالم في ظلام تام باستثناء الأضواء العالية وبريق السكين في يد أمين.

التوت ركبتا مجيد وهوى على الأرض، وبات يتنفس بصعوبة. كان الدم مروِّعاً وداكناً. لم يكن بمستطاعه أن يتنفس. ولمّا انبثقت الشمس، حمراء في أول الأمر، حدّق مباشرة في النور ورأى نفسه في البستان. كان بمقدوره أن يسمع الطيور والحشرات تنشد في الأوراق الخضر الكثيفة، البشرة الحليبية لوجه نسرين. شعر بلمسة يدها ونعومة شعرها. أظلمت عيناه، اكتظ عقله بتنافر الأصوات الآتية من ساحة المدينة، المساوِمين على السلع، التجار، العائلات. ضحك، نقاش، صياح، ما يقرب من الغناء. سمع المحتجين في العاصمة ينشدون ويحتفلون. شعر بأجسادهم تضغط على جسده وكانوا يتحرّكون سوية مثل موجة وحيدة، يزداد عددهم ويفيضون وينهضون إلى أن أصاب جسمه الخدر. بات يشكو من صعوبة التنفس، وكلّها –البستان، نسرين، الساحة، الحشود، العرق والحرارة والشمس– غابت وتلاشت. كلّ ما بقي هو الخفقان الخافت لقلبه.

پاريس

VI

كان حَشد المتفرجين على ضفة النهر يضغط على شازديپور. لم يكن ذلك يمنحه الراحة. بدأ يشعر كما لو أنه مسحوق. أحس بدقة على ذراعه. ثمة فتاة صغيرة لاجئة تقف بجانبه، تعرض زوجاً من النظارات الورقية.

لم تكن هذه الفتاة تلك الفتاة نفسَها في ساحة Place du Tertre، بالطبع. كانت أكبر منها سناً. كانت ترتدي حجاباً. طأطأت رأسها كي تحوّل أنظارها، كما لو أنها جديدة على هذه الطريقة من الحياة. أحس شازديپور بخجلها ونقب في جيوبه بحثاً عن عملات يورو قليلة. انسلّت الفتاة عبر الأجساد بحثاً عن الزبون التالي. وعلى مدى لحظة، فكر في أن يتبعها. غير أنها، هي أيضاً، توارت عن الأنظار. زحلق نظارته على عينيه.

كان القمر قد بدأ أصلاً بانزلاقه المنحرف على الشمس، وهي حركة بطيئة وثابتة غير محسوسة تقريباً بالنسبة إلى العين باستثناء الظلام الذي كان ينتشر من تقدّمه. ركّز على محيط القمر. ولمّا بلغ الكسوف كلّيته، أمست السماء باردة داكنة كالكهوف، وصارت مسحة الهواء كئيبة. سكتت الحمائم وكذلك الباعة والتصفيق.

في تلك اللحظة من الظلام المطبق والصمت التام، أحس بوحدة شديدة. لم يعد باستطاعته أن يحتمل ذلك أكثر.

بوحشية، شق طريقه عبر الحشد، متعثراً بدرجات ضفة النهر، وكاد يدوس على شاب. لم يأبه بالشتائم والدفع. وصل إلى منبسط الدرج الذي بمستوى

الشارع ومشى مجهداً عبر رقعة من الحصى المرتخي، وزلَّ فيما كانت قدمه تغطس. وبينما هو يهوي على ركبتيه، شرع يضحك. في أول الأمر ضحك على كرهه للحصى وعلى زمن حياته الذي أمضاه في مقاتلتها. كان الضحك قد تقلّص عبر جسمه وتحوّل إلى كَرب. كان يئن، وأعمته دموعه. عددٌ من المارة تجمعوا من حوله، ومشى رجلٌ في مقتبل العمر إلى الأمام، غير أن شازديپور لوّح له بالابتعاد. «أنا بخير»، قال له، وانبعث صرير من مفاصل قدميه. أبقى عينيه مثبتتين على الأرض وتمكّن من الهَرَب. إنّ فقدان السيطرة من هذا النوع قد روَّعه. سار بأسرع ما يستطيع، إلى المكان الذي كان يجب عليه الذهاب إليه قبل ساعات عدّة.

إبان العقود الثلاثة من صداقة شازديپور التي تقاسمها مع تريانان، لم يخبره مرة واحدة بقصة أسرته. كان يدور حول كلّ الأسئلة التي كانت تُثار ويباشر في حكايات مُخترَعة عن مصانع السكر والحروب بين الأُسود والحمير. في بعض الأحيان، كان جمال حكاياته فاتناً جداً، مُغرياً جداً، فَهِم أساطير الإمام الحسين والصيدلي ومسرات الأفيون وكُتب مجيد، سعادة الهَرَب إلى حدّ أن تنسى نفسك. لا شيءَ منها تم إحصاؤه أبداً. كان الأمر بسيطاً بحيث أنه، بعد هذه الأعوام كلّها، لم يعد يعرف ما هو الشيء الحقيقي. ما خلا أنه فقد ابناً أثناء ثورة ما وابناً آخر أثناء حرب أعقبت ذلك[1]. كانت أسرته قد تفرّقت ورحل أعضاؤها إلى الضفة الأخرى من الحياة. البستان -حيث تفتح هؤلاء الأشخاص- بيع قطعة قطعة.

لكنهم اليوم يقفون جميعاً أمامه، بنحو حقيقي في باله كما كانوا عليه في الحياة. طرق برقّة على باب تريانان. فتحه صاحبه. «يا إلهي!» قال. «أين كنتَ طوال هذا الوقت؟ أأنت بخير؟».

«أنا متأسف على إزعاجك»، قال شازديپور. «هل يسعني الدخول؟».

اقتاد تريانان صديقه إلى غرفة مكتبه، وأشعل مصباح المكتب. غطس شازديپور في الكنبة التي جلس عليها. صبّ له تريانان الكونياك. ناول

1- هذه الحرب التي تلمّح إليها الكاتبة رابعة غفاري هي الحرب العراقية - الإيرانية التي استمرت بين عاميْ 1980 و 1988 - م.

شازديبور كأساً ووضع كأسه على الطاولة الكائنة بينهما. ومن ثم جعّد جريدة ما ورماها تحت ألواح الخشب في الموقد. كانت الأغصان الصغيرة قد التقطت النار بسرعة ونشرتها إلى ألواح الخشب الأكثر سمكاً. بدأت النار ترتفع، وغمرت الحجرة بوَهَج برتقالي دافئ، وراحت تطقطق وتفرقع.

«قل لي ماذا حصل»، قال تريانان. «انتظرتك على مدى ساعات. مضيتُ إلى شقتك».

«أنا متأسف جداً»، قال شازديبور. أدار رأسه إلى النار، قدماه مزروعتان في سجادة ابنه. كلّ صباح، كان يفكر بينه وبين نفسه: حين أبدأ بحلاقة ذقني، ثمة لحظة حين أخفض بصري ناظراً إلى يدي أشعرُ كما لو أنها ليست يدي، ولمّا أفتح فمي، أتكلّم بصوت أعرف أنه ليس صوتي...

إلا أنه على الرغم من ذلك لم يقل شيئاً.

«ما الذي يجري لك، يا صاحبي؟ ماذا حدث؟» وقف شازديبور بغتة ومشى إلى الراديو، من دون أن يطلب الإذن من تريانان، وزحلق قرص الراديو المدرج عبر المحطات الإذاعية. إلى أن سمع، أخيراً، النوتات الثلاث الأولى على الكمان. بيتهوفن، اللحن الذي ينبغي أن يُعزَف ببطء إنما ليس ببطء شديد، ويكون مُعبّراً جداً[1]. في النوتة الثانية عشرة، وتحديداً حين بدأ الكمان الثاني يشق طريقه بالمراوغة ويكرر النوتات، أغمض عينيه وابتعد عن الراديو، ووقف على النقش البارز في سجادة ابنه، وراح يعزف برقة على الآلات الوترية في الهواء، وقد انضمت إليها الآن آلتا كمان أوسط وتشيللو فيما كانت الآلات الموسيقية الأربع تطوّقه بنغماتها.

الموسيقى، في تلك اللحظة فحسب، كانت تعبيراً مثالياً عما لا يُمكن التعبير عنه بصوت الكلمات. كانت كآبته، أسفه وتكتمه، مرارته، انسلاخه-خسارته. إن كان باستطاعته أن يوجَد حصراً في تدوينها، فما من شيء في العالم يُمكن أن يكون مُرهِقاً.

1- اللحن الذي ينبغي أن يُعزَف ببطء إنما ليس ببطء شديد، ويكون معبّراً جداً: هذه الكلمات وردت بالإيطالية في النص الإنكليزي الأصل:
The Adagio ma non troppo e molto espressivo - م.

وبعدها، كما ينبغي، انتهت القطعة الموسيقية البطيئة ومضت مباشرة وأصبحت قطعة سريعة. أغلق شازديپور الراديو. كان الصوت الوحيد هو صوت طقطقة النار. كان صديقه ينظر إليه، حائراً.

«شازديپور؟» قال تريانان.

جلس شازديپور على الكنبة وأخذ جرعة من كأسه المترعة بالكونياك. «أود أن أخبرك قصة»، قال له. «بدأت القصة في بستان ما، قبيل أول غداء جمعة في الربيع».

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

شكر وعرفان

أود أن أتقدّم بوافر امتناني إلى سيسيل بارايندیسما لإخلاصها الذي لا يتزعزع للكِتاب وإلى ليغ نيومان لتحريرها التحوّلي. ولأسرة دار نشر «كاتاپولت» للاهتمام والحماسة في رعي هذا الكتاب خارجاً إلى العالم. كما أود أيضاً أن أتقدّم بوافر امتناني إلى القراء والأصدقاء على السواء طوال الطريق الذين أغنوا فيه حياتي وعملي: وليم أو. بيمان (عمّو بِل)، فرانك فاريس، زُهرة شايسته، شيرين نشأت، شجاع أذري، فونغ بوي، نازي بيگلاري، پيتر سكارليت، سالار عبدو، حُرّة ياڤاري، اراكلي جيوشڤيلي، أنجيلا ليڤين، إيستر كرو، كارا گورمان، صوفيا - إليكسيا دِي لوتبنيير، نريمان حميد، وشيري هَدوك. كذلك إحياءً لذكرى حسن طهرانچيان وآشوربانيپال بابيلا. وختاماً، امتناني العميق لأمي، ثريا شايسته، وأبي، محمد غفاري، وأسرتي، في نيويورك وإيران على السواء، لأنهم يهبونني على الدوام وطناً في العالم.

المترجم

ولد علي عبد الأمير صالح في مدينة الكوت–واسط سنة 1955. يمارس كتابة القصة القصيرة والرواية والترجمة منذ منتصف سبعينيات القرن العشرين. نال جائزة وزارة الثقافة العراقية في الترجمة سنة 2000، وفي الإبداع الروائي سنة 2009، وجائزة دار الشؤون الثقافية العامة في النقد الأدبي سنة 2009، وجائزة الإبداع العراقي / وزارة الثقافة والسياحة والآثار لعام 2017، في حقل الترجمة. من ترجماته المنشورة: الطيور الحُمر (بيروت 2021)، أمس واليوم وغداً: حياتي، مذكرات صوفيا لورين (بيروت 2020)، نادني الأمريكي، مذكرات عبدي نور إفتين (بيروت 2020)، قبل أن نزور الإلهة (الكويت 2019)، فريدا: سيرة حياة فريدا كاهلو (بيروت 2019)، في أمريكا (بيروت 2019)، طقوس (بيروت 2019)، العمى (بيروت 2018)، المطيرچي (بيروت 2018)، قابيل (بيروت 2016)، أشياء كنتُ ساكتة عنها (بيروت 2014)، الجبل السحري (بيروت 2010). من أعماله المنشورة: الهولندي الطائر (قصص، دمشق 2000)، يمامة الرسام (قصص، بيروت 2010)، خميلة الأجنة (رواية، بيروت 2008)، أرابيسك (رواية، عمّان 2009)، ثقافة واسط: الماضي والحاضر (جزآن) (دمشق 2017)، العوالم الثلاثة: تجربتي في الكتابة والترجمة والنقد (دمشق 2018).